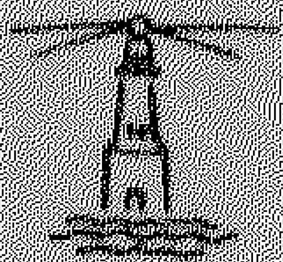
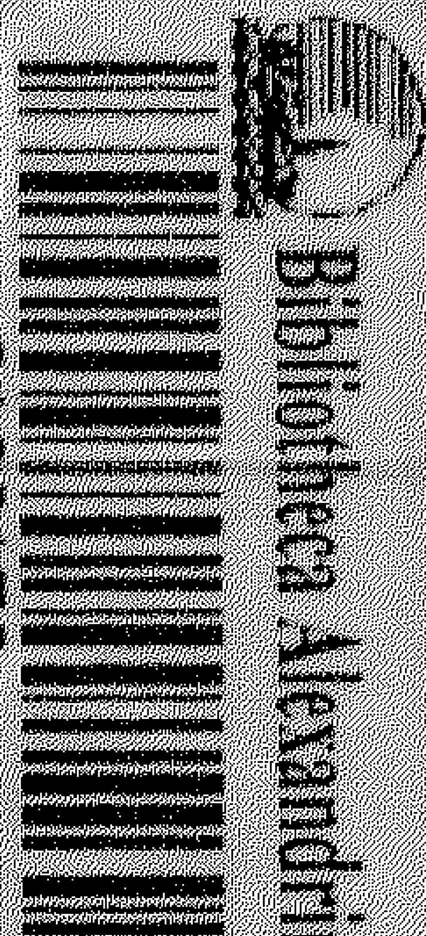
دكتور أحمد جمال العمري

أدب الحرب والسلم
في سورة الأنفال



دار المعارف



أدب الحرب والسلم

فى

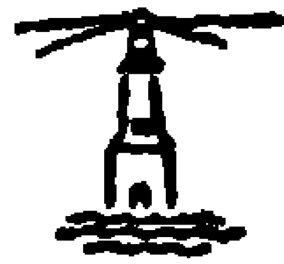
سورة الأنفال

تأليف

الدكتور/ أحمد جمال العمرى

أستاذ الدراسات القرآنية والبلاغية

كلية الآداب ــ جامعة الزقازيق



دار المعارف

الطبعة الأولى : ١٩٨٩

الناشر : دار المعارف ــ ١١١٩ كورنيش النيل ــ القاهرة

الإهـــداء

إلى روح أمي ...

- جُرِمت منك غُلاَما صغيراً ... واشتقتُ إلى حنانك كبيراً ...
- ولازلتُ أعيش على ذِكْرَاكِ ... ولن يضيع من أُذُنَيّ صوتك ما حييت ..
- إنكَ أوّل من حَفَّظنى سُوَر القرآن ... وعلَّمَنى فرائض الله ....
- فجزاك الله خيراً عنّى، وعَمْن أنجَبْتِ.. ورحمك رحمَةً واسعة..
- وجعل جَنّة الخُلْد مثْوَاك ..

يا أعزّ مَنْ رَحَل ..

ابنك

أحمد جمال الدين

* * *

مقدمة

١ ــ الموضوع وأهميته:

إن الحمدَ لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادى له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ــ ﷺ ــ القائل:

«بُعثت بين يدى الساعة بالسَّيف حتى يُعْبد الله وحده، لاشريك له، وجعل رزقى تحت ظل رمحى، وجعل الذل والصغار على من خالف أمرى، ومن تشبّه بقوم فهو منهم»(١).

والقائل: «لَغَدْوَة فى سبيل الله أو رَوْحة خير من الدنيا وما فيها»(٢).

والقائل: «من مات ولم يغز ولم يحدّث به نفسه، مات على شعبة من نفاق»(٣).

والقائل: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع

(١)مسند الإمام أحمد ٩٢/٢.

(٢)رواه البخارى فى صحيحه ٢٠١/٣.

(٣)صحيح البخارى بشرح النووى ٥٦/١٣.

وتركتم الجهاد، سلّط الله عليكم ذُلاً لا ينزعه عنكم حتى تعودوا إلى دينكم» (١).

* ورضى الله عن صحابة رسول الله، الذين اقتدوا به، وساروا على نهجه، ونشّروا دينه، ودفعوا أرواحهم ثمنا لذلك، فكان منهم من يرمى الطعام من يده مع حاجته إليه، ويستعجل الموت فى سبيل الله (٢). ومنهم من أعطى الله عهدا ألاّ يمسّه مشرك، ولا يمس مشركا أبداً تنجساً، فيموت فى سبيل الله وفاء بعهده (٣). ومنهم من يذهب (سَرِيّة) وحده، فيقتل صنديداً من صناديد الكفر، غير هياب ولا وجل (٤)..

* ورضى الله عن مَنْ تبعهم، وسار على هديهم إلى يوم الدين.

وبعد:

فسورة الأنفال إحدى السور المدنية، التى عُنيت ببعض جوانب التشريع، خاصة ما يتعلق بالغزوات والجهاد فى سبيل الله، فقد تضمنت كثيراً من التشريعات الحربية، والارشادات الإلهية التى يجب على المؤمنين اتباعها فى قتالهم لأعداء الله، وتناولت جانب السِّلْم والحَرْب، وحكم الغنائم والأسرى.

نزلت هذه السورة الكريمة فى أعقاب غزوة بدر، التى كانت فاتحة الغزوات فى تاريخ الإسلام المجيد، وبداية النصر لجند الرحمن، حتى سماها بعض الصحابة «سورة بدر» لأنها تناولت أحداث هذه الموقعة بإسهاب، ورسمت الخُطّة التفصيلية للقتال، وبيّنت ما ينبغى أن يكون عليه المسلم من

(١) رواه أبو داود باسناد حسن.

(٢) أنظر قصة استشهاد عمير بن الحمام، سيرة ابن هشام ١٧١/٣.

(٣) أنظر قصة إستشهاد عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح، سيرة ابن هشام ١٧١/٣.

(٤) انظر غزو عبد الله بن أنيس لخالد بن سفيان، مسند الإمام أحمد ٤٩٦/٣.

البطولة والشهامة، والوقوف فى وجه الباطل بكل شجاعة وجراءة، وحزم وصمود.

ومعلوم فى تاريخ الغزوات التى خاضها رسول الله ـ ﷺ ـ أن غزوة بدر كانت فى السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة، وكانت الجولة الأولى من جولات الحق مع الباطل. وردّ البغى والطغيان، وإنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، الذين قعد بهم الضعف فى مكة، وأخذوا فى الضراعة إلى الله، أن يخرجهم من القرية الظالم أهلها، وقد استجاب الله ضراعتهم، فهيأ لهم ظروف تلك الغزوة. التى تم فيها النصر للمؤمنين على قلّة عددهم، وضَعْف عُدَدِهم، وعلى عدم تهيئوهم للقتال. وبها عرف أنصار الباطل، أنه مهما طال أمده، وقويت شوكته، وامتد سلطانه، فلا بد من يوم يخرُّ فيه صريعا، أمام جلال الحق، وقوة الإيمان.

* فى هذه السورة .. تحديد لصفات المؤمنين الخمس التى ذكرها الله فى مطلعها.
* وفى هذه السورة .. الكثير من التوجيهات الحربية للمؤمنين.
* وفى هذه السورة .. تحذير من مخالفة الدين.
* وفى هذه السورة .. الأمر بالاستجابة لداعى القرآن.
* وفى هذه السورة .. مجموعة من الأحكام الشرعية، التى تتصل بالجهاد، كحكم الأنفال وكيفية توزيعها.
* وفى هذه السورة .. امتنان الله ـ تعالى ـ على المؤمنين بالنصر على عدوهم.
* وفى هذه السورة .. الأمر باليقظة والاستعداد الدائم للحرب.
* وفى هذه السورة .. الحث على الاستجابة لمن طلب الأمان ورفع راية السلم.

* وفيها أيضا .. الإشارة إلى تقوية الروح المعنوية فى الجند .
* وفيها كذلك .. الإشارة إلى حكم الأسرى وكيفية التصرف فيهم .

وقد تضمنت سورة الأنفال أيضا مجموعة من الآداب الاسلاميه، فقد ورد فى ثناياها النداءات الإلهية للمؤمنين، وتوجيههم وحثهم على الصبر والثبات فى مجاهدتهم لأعداء الله، وتذكيرهم بأن هذه التكاليف التى أمروا بها من مقتضيات الإيمان الذى تحلّوا به، وأن عاقبة الإيمان، والالتزام بالقيم والآداب الإسلامية هو النصر. وخُتمت السورة بتحديد أن الرابطة الإسلامية أقوى الروابط .

إن آيات هذه السورة الكريمة، نزلت لتثبيت قلوب المؤمنين، فى أول معركة وقعت بينهم وبين المشركين، وهى واقعه بدر، وقد كانت هذه المعركة هى الفارقة بين عهدين، عهد الكفر، وعهد الإيمان، لذلك سمى يومها بيوم الفرقان، قال الحق تعالى: (وما أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الفُرْقَانِ) لأنها فرقت بين الظلام والنور، وبين الكفر والإيمان .

وفى هذه السورة يأمر الله عبادة المؤمنين، أن يصمدوا أمام أعدائهم، وألا ينهزموا مهما كان جيش الكفر عظيماً وكبيرا، فإن الغلبة ليست بالكثرة، والمؤمنون أولى بالثبات والشجاعة من الكافرين، لأنهم يطلبون إحدى الحُسْنَيَيْن: إما العزة فى الدنيا والنصر على الأعداء، وإما الشهادة فى سبيل الله، التى لا يعادلها شىء من الأشياء، وقد حذّرهم من الفرار والهزيمة، لأن فى ذلك كسراً لجيش المسلمين، وإلقاء الرعب فى قلوب المجاهدين .

وفى هذه السورة إثبات بأن الله ـ عُظمت قدرته ـ تدخل لتأييد رسوله الكريم ـ ﷺ ـ بإمداده بالملائكة، لنصره على الكافرين .

وهذه السورة الكريمة، توضح بجلاء بعض جوانب عبقرية الرسول المصطفى

ـ ﷺ ـ فى فن الحرب، قيادة وتوجيها.. فعلى الرغم من أن الجهاد فى سبيل نشر دعوته، ليس إلاّ واحدًا من أعمال الرسول العظيم الكثيرة، فإنها تصور أن ما قدّمه الرسول فى هذا المجال يعتبر ـ حتى يومنا هذا ـ شاهداً حيا على عبقرية هذا الرجل الأمّى، الذى اختاره الله واجتباه، وعلمه ووّجهه، فى فن الحرب والقيادة. وأن الرسول ـ ﷺ ـ لم ينتصر على خصومه ـ فى هذه المعركة وفى غيرها ـ لأنه كان يملك الجيوش الجرارة، والموارد الاقتصادية الضخمة، فأحداث غزوة بدر تدل على النقيض من ذلك، وتثبت أن أسلحة الخصوم كانت أكثر وأفضل، وقواتهم المسلحة أكثر، ومواردهم الاقتصادية أغزر، ولكن الرسول الكريم ـ ﷺ ـ تمكن من إلحاق الهزيمة بهم لتفوقه عليهم بفنه الحربى، وبالإيمان الذى غرسه فى نفوس رجاله.. إنهم أصحاب عقيدة ورسالة، يجب أن يناضلوا ويجاهدوا لتبليغها للناس أجمعين.

إن الوثائق التاريخية والحربية التى سجلتها كتب السيرة، تجعلنا نقول بكل ثقة ويقين: إن المبادئ العسكرية التى طبّقها الرسول ـ ﷺ ـ فى معركة بدر، وفى سراياه وحملاته، ما تزال صالحة إلى يومنا هذا، كما أن آفاق الاستراتيجية العليا التى مارسها الرسول على صعيد الحرب والسلم، ما تزال منارة تشع لتهدى إلى سواء السبيل.

* ومن هنا تأتى أهمية البحث...

لقد كانت كل هذه العوامل السابقة حافزا لى لدراسة سورة الأنفال دراسة تحليلية، وبطريقة جديدة، ليس التفسير فيها هدفا أو مرادًا، وإنما دراسة الجوانب التى تتصل بأدب الحرب والسلم، كما ورد فيها، ودراسة الجوانب النفسية التى عاشها الرسول ـ ﷺ ـ ومعه المسلمون، بالإضافة إلى دراسة العناصر البلاغية، والقيم الجمالية، من حيث الأسلوب وألوان البيان التى برزت فى السورة.

٢ ـ منهج البحث:

كان أساس منهجى فى البحث أن أبدأ من أول الطريق ، فاتصلت بالقرآن الكريم والسنة المطهرة، التى تتحدث عن السورة وما يتصل بها من أحداث ، فإذا ما انتهيت من وضع تصوّر كامل للسورة ومشتملاتها ، رجعت إلى كتب التفسير، وهى كثيرة ... بيد أن كتب التفسير لم تشف سقمى ، ولم ترو عطشى ، فلم أجد فيها إلاّ ذكر مناسبات النزول ، وتوضيح معانى المفردات ، والمعانى الكلية ، وأحداث ومرويات غزوة بدر، وما جرى فيها ، وما نقل عن كتب السيرة من وسائل تفسيرية .

فإذا ما تبلورت ــ فى ذهنى ــ الصورة العامة للسورة ، مضيت أبحث عن دراسات وأبحاث تتناول بعض جوانب السورة ، من حيث آدابها التى تتصل بالحرب والسلم ، فلم أجد إلا إشارات عامة تتصل بالجهاد عموما ، ومشروعيته وأحكامه ...

لذلك آثرت أن أضع لنفسى خطاً واضحاً لدراسة السورةالكريمة ــ لا من الناحية التفسيرية التوضيحية ، ولا من الناحية التاريخية .. ولكن من الناحية الفنية التأثيرية الدقيقة ، التى توضح ما اشتملت عليه السورة من آداب وأحكام ، وجوانب نفسية ، وقيم جمالية بلاغية ، برزت من خلال آياتها التى تتعرض للحرب والسلم .

بيد أن سورة الأنفال فى وضعها الدقيق ، لا يمكن دراستها من فراغ ، فلابد من دراسة تمهيدية توضح الجوانب التاريخية والنفسية ، التى أدت إلى نزول السورة ، بهذه الكيفية ، وبكل مشتملاتها التى توضح أحكام الأنفال وكيفية توزيعها ، وحكم الأسرى ، وقضايا الحرب .

فكان لابد من مصاحبة الرسول ــ ﷺ ــ من خلال سيرته العطرة ، فى

بعثته، وفى دعوته، وفى كيفية نشرها، وما صاحب ذلك كله من أحداث، وقد كان القرآن دليلا ومرشداً لهذه الحياة التى عاشها الرسول ـ ﷺ ـ فى مكة، وكافح فيها من أجل نشر دعوته، والتى أدت بعد ذلك إلى هجرته إلى المدينة المنورة، ثم تكوينه للمجتمع الإسلامى، والدولة الإسلامية، ثم إعداده للمخططات السياسية والحربية، بعد أن بُلّغ بالإذن بالقتال، لمواجهة أعداء الدعوة.. ثم إعداده للقوات الجهادية، التى بدأت بمناوشات عسكرية أدت فى النهاية إلى نشوب الحرب، بين المؤمنين والكافرين، -فى هذه الموقعة الحاسمة، وما نتج عن ذلك من توزيع الغنائم، واختلاف المسلمين فيها، فأنزل الله ـ سبحانه ـ سورة الأنفال حاملة حكم الله فى توزيعها، إلى جانب وصاياه وتعليماته وتوجيهاته للمسلمين.

• من هنا قلنا: إن بحثنا لم ينشأ من فراغ، وإنما نشأ نشأة طبيعية، كانت لها ولادتها ونموها ثم نشأتها وتطورها إلى أن وصل إلى نضجه وتكامله.

• كان منهجى فى البحث بهذا التصور والمفهوم، هو الذى فرض علىّ تقسيم البحث على هذا الوجه، فكان فى تسعة فصول:

• فى الفصل الأول: تناولت بالدراسة الدعوة الاسلامية فى مواجهة الكفر.
• وفى الفصل الثانى: عشت مع القرآن فى مواكبة الدعوة سرًّا وجهرًا.
• وفى الفصل الثالث: تناولت بالدراسة دولة الإسلام فى المدينة المنورة
• وفى الفصل الرابع: درست «مشروعية القتال».
• وفى الفصل الخامس: درست التشريعات القرآنية بشأن الحرب والسلم.
• وفى الفصل السادس: درست مخططات الرسول السياسية والجهادية التى انتهت بغزوة بدر.
• وأما الفصل السابع: فقد خصصته لدراسة منهج القرآن فى توزيع الأنفال.

● وأما الفصل الثامن: فقد درست فيه أدب الحرب والسلم وفقا لآيات سورة الأنفال.

● والفصل التاسع الاخير: جعلته في جزأين:

الأول: دراسة بلاغية لآيات السورة.

والثاني: دراسة الجوانب النفسية التى رفعت الروح المعنوية للمؤمنين فى معركة بدر

وقد حرصت فى هذا البحث على إكثار الأدلة من الكتاب والسنة وأقوال العلماء المشهود لهم بالفضل والعلم، وذلك لأن شُبَه خصوم الإسلام، الذين ناقشتهم كثيرا، وبيّنت زيف ادعاءاتهم مدعومة ومدروسة ومبرزة من قبل بعض وسائل الإعلام والتوجيه، فى عصرنا الحاضر لأمرٍ يراد.

وحرصت أيضا على إيراد النصوص بألفاظها تامة من غير اختصار — فى بعض الأحيان، وذلك لأن المختصر قد لاينقل مراد العالم المؤلف كاملاً، ولأن الهدف هو فائدة الباحثين والقارئين. وهذا منهج للعلماء القدامى وبعض المحدثين

وختمت البحث بذكر خلاصته وأهم نتائجه، وألحقت به قائمة بأهم المصادر التى رجعت إليها، كما ألحقت به فهرسا تحليليا للموضوعات الورادة فيه.

٣ — المصادر:

إن المصادر العلمية التى رجعت إليها، واعتمدت عليها فى بحثى هذا كثيرة ومتنوعة، وهى تنقسم بحسب طبيعة البحث وموضوعيته إلى مجموعات:

أ — تفاسير القرآن الكريم.

ب — مصادر فقهية وتشريعية.

جـ — مصادر دينية.

د ــ مصادر تاريخية .

هـ ـ مصادر لغوية

أ ــ فأما تفاسير القرآن : ففى مقدمتها تفسير الطبرى ، وتفسير الفخر الرازى ، وتفسير الكشاف للزمخشرى ، وتفسير ابن كثير ، والتفسير القيم للإمام ابن القيم ، وتفسير الشوكانى ، بالإضافة إلى بعض التفاسير الحديثة .. كتفسير المنار لمحمد رشيد رضا ، وتفسير أضواء البيان للشيخ محمد الأمين الشنقيطى . وتفسير الشيخ سيد قطب «فى ظلال القرآن» وغيرها .

ب ــ وأمــا المصـادر الفقية والتشريعية : ففى مقدمتها أحكام القرآن للإمام الشافعى ، وأحكام القرآن لابن العربى ، وأحكام القرآن للجصاص ، واختلاف الفقهاء لابن جرير الطبرى ، والاجتهاد فى طلب الجهاد لابن كثير ، وأحكام أهل الذمة ، لابن قيم الجوزية ، وتفسير آيات الأحكام للشيخ الصابونى

هذا بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من الدراسات الحديثة التى تتناول الأحكام الخاصة بالجهاد ومايتصل به ، مثل كتاب آثار الحرب فى الفقه الإسلامى للدكتور وهبه الزحيلى ، وأحكام الذميين المستأمنين فى دار الإسلام للدكتور عبد الكريم زيدان ، والفقه على المذاهب الأربعة لعبد الرحمن الجزيرى ، وغير ذلك

جـ ــ وأما المصادر الدينية : ففى مقدمتها كتب الصحاح الستة ، ثم كتب العقائد ، كالملل والنحل للشهرستانى ، وكتب التوحيد وشروحها ...

هذا بالإضافة إلى الكتب التى ألفها باحثون مُحْدَثون عن الجهاد الإسلامى ، مثل : إرادة القتال فى الجهاد الإسلامى ، لمحمود شيث خطاب ، والإسلام والحرب لأبى لبابة حسين ، والإسلام والرق للدكتور محمد البهى ، والجهاد طريق النصر لعبد الله غوشة ، والجهاد فى الإسلام لكل من محمد محمود

الرامينى، وتوفيق على وهبة، ومحمد شديد، وأحمد محمد جمال، والجهاد والفدائية فى الإسلام، لحسن أيوب، والجهاد فى سبيل الله، لأبى على المودودى.. وأهمية الجهاد فى نشر الدعوة الإسلامية والرد على الطوائف الضالة فيه، للدكتور على بن نفيع العليانى، وغير ذلك.

د ـ وأما المصادر التاريخية: فهى كثيرة أيضا، فى مقدمتها كتب السيرة، مثل السير والمغازى لابن اسحق، ومغازى رسول الله للواقدى، وسيرة ابن هشام، والروض الأنف للسهيلى، وجوامع السيرة لابن حزم، وسبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد، لمحمد بن يوسف الصالحى.

هذا بالإضافة إلى كتب التاريخ القديمة، كتاريخ الطبرى، والبداية والنهاية لابن كثير، وكتب الطبقات، كطبقات ابن سعد، وأسد الغابة فى معرفة الصحابة.

كما رجعنا إلى الدراسات الحديثة التى ألفت فى سيرة رسول الله ـ ﷺ ـ مثل: سيرة الرسول مقتبسة من القرآن، لمحمد عزة دروزة، ونور اليقين فى سيرة سيد المرسلين للشيخ محمد الخضرى، والكتب التى ألفت فى غزواته ـ ﷺ ـ مثل غزوات النبى، للخولى البهى، والغزوات الإسلامية لمحمد فرج، وغزوة بدر للبرزنجى، وغزوة بدر الكبرى، لمحمد عبد القادر، وغزوة بدر، لمحمد أحمد باشميل.

هـ ـ أما المصادر اللغوية والأدبية: ففى مقدمتها بالطبع معاجم اللغة، لسان العرب، وتاج العروس، والقاموس المحيط، والمعجم الوسيط، ودواوين الشعراء الاسلاميين، كديوان حسان بن ثابت، والموسوعات الأدبية التى تضمنت الشعر الإسلامى.

هذا وكانت طبيعة البحث تحتم علينا الاتصال بالكتب التى ألفها

المستشرقون، ومن تتلمذ عليهم لمعرفة أفكار هؤلاء الباحثين، وما يضمرونه للإسلام، ولنبيّ الإسلام، وما يشيعونه من أقوال وآراء عن الرسول وجهاده، فرجعنا إلى كتاب الدعوة إلى الإسلام لتوماس أرنولد، والعقيدة والشريعة فى الإسلام لجولد تسيهر، وغيرهما من الكتب التى ألفها المتأثرون بآراء وأفكار المستشرقين.

كما رجعنا إلى الكتب التى ألفت فى الرد على المستشرقين، وتفنيد مزاعمهم مثل كتاب «الاستشراق والمستشرقون» للدكتور مصطفى السباعى، الذى أفادنا إفادة كبيرة فى معرفة التيارات الفكرية لدى هؤلاء الناس، ومثل كتاب الإسلام والدعوات الهدامة، لأنور الجندى، والإسلام أمام افتراءات المفترين، لتوفيق على وهبة، والصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، لأبى الحسن النووى، والعالم الإسلامى والمكائد الدولية لفتحى يكن.. إلى غير ذلك من الكتب والمراجع التى أفادتنا إفادة كبيرة فى بحثنا مما هو مدرج فى هوامش البحث وفى الثبت الأخير منه.

وبعد.. فهذه محاولة لدراسة سورة من سور القرآن الكريم، دراسة تحليلية فنية، تبتعد عن المحاولات التفسيرية القديمة والحديثة، ولعلها تكون مفيدة، ولعلى أكون قد وفقت.. فإذا كان هناك شىء من القصور، فلأن الكمال لله وحده.. والله حسبى وهو نعم المولى ونعم الوكيل.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين أجمعين.

جدة فى ١٥ من ذى الحجة سنة ١٤٠٦

٢٠ من أغسطس سنة ١٩٨٦م

أ. د. أحمد جمال العمرى

الفصل الأول

الدعوة الإسلامية فى مواجهة الكفر والشرك

— ١ —

الرسول والرسالة

اختار الله — سبحانه وتعالى — من البشر رجلاً أمياً ، وحمَّلة الأمانة ، وأرسله بالرسالة ، وكلّفه بالدعوة إلى الله ، وأيده بالمؤيدات الإلهية ، للتأكيد على صدق نبوته ، وصحة رسالته ، وأنزل عليه القرآن دستوراً وسجلاً خالداً ، ومعجزة بيانية تتحدى الإنس والجن ، وتتحدث عن كل ما يتصل بالرسول ورسالته .. حتى لقد كان الرسول جزءاً لا يتجزأ من الرسالة ، والرسالة صورة ناصعة لما أهَّل الله به رسوله ، النبى الأمّى — ﷺ .

ارتبط التعريف برسول الله — ﷺ — بأمور:

أولها : بنوعية القوم الذين يتحدث إليهم القرآن .

ثانياً : بموقفهم من دعوته ، ومبلغ تصديقهم ، أو تكذيبهم برسالته .

ثالثاً : بمبلغ ما يذيعونه ويفترونه لتشويه الدعوة ، وإثارة الشكوك فى نفوس الناس .

فنقطة البداية التى توخّاها القرآن إذاً .. التعريف بالرسول ، فى نطاق الصراع العقيدى مع القوم الذين بُعث إليهم ، وهم أبناء عشيرته الأقربون ،

لذلك جاء التعريف برسول الله ليس لمجرد الذكر، وإنما لهدف أسمى، وهو: تأييد الدعوة، وتأكيد الرسالة، وإظهار الحجة، وإثبات النبوة.

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨]

فالآية الكريمة تقرّب الرسول محمداً ـ ﷺ ـ من المخاطبين من قومه، فتقول إنه من أنفسكم، ثم جمع بينه وبينهم فى هذا الجانب العاطفى، من أنه يخشى عليكم العنت، ويحرص عليكم، ويرأف بالمؤمنين برسالته الجديدة، ويرحمهم. وهذه السمات المميزة لاتراد لذاتها ـ كما هو واضح ـ ولكنها لتمكين الدعوة من نفوس المخاطبين.

ويقدم القرآن صورة واضحة عن مهمته ورسالته:

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

إن رسول الله ـ ﷺ ـ من الأميين أنفسهم، ميزته أنه يتلو عليهم آيات الله، ويزكيهم ويعلمهم القرآن والسنة، لأنهم كانوا فى ضلال مبين.

ويزيد القرآن فى توضيح صورة هذا الرسول، وتحديد شخصيته وهويته..

﴿ قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [الطلاق: ١٠، ١١].

ثم يوضح القرآن العظيم صورة الرسول ـ ﷺ ـ أكثر وأكثر، بتسليط الضوء على المؤمنين، الذين آمنوا به، والتفوا حوله، حتى يكون المثل للذين يوجه إليهم الدعوة.

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الفتح : ٢٩]

فالرسالة التى يحملها رسول الله ــ تنوير للقلوب، وتربية للنفوس، والمؤمنين معه يعبدون الله بالصلاة.. ولكنهم مع الكفار تجدهم أشداء عليهم، ورحماء مع المؤمنين، أشداء فى الحق رحماء فى العلاقة الإنسانية بينهم وبين من تجمعهم بهم وحدة العقيدة.

فصورة المؤمنين، كما يرسمها القرآن، صورة مستمدة من رسول الله ــ ﷺ.

ومن زيادة التعريف برسول الله ــ ﷺ ــ والتكريم له، أن الله ــ شاءت حكمته ــ جعله شاهداً على أمته، وهذه مهمة كبرى حمّلها الحق سبحانه لرسوله:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ ﴾ [المزمل: ١٥].

ويؤكد ذلك.. أن الله سبحانه، جعل شهادته على أمته شهادة على الناس.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٨].

هذه الصورة التى حددها القرآن لشخصية رسول الله ــ كإنسان، وكرسول يحمل رسالة من عند الله، تزداد وضوحاً فى الصراع الذى صوّره القرآن بينه وبين الكافرين والمشركين والمنافقين. هذا الصراع الذى وضح فيه جانب التشكيك إما بالكذب، أو بمحاولة التعجيز، أو التنكير لإنسانيته تمهيداً للتنكر لرسالته.

لقد بلغ العجب بأهل مكة أنهم يفكرون فى فرض اختيارهم على الله، حتى أنهم ليتساءلون.. لماذا لم ينزل القرآن على رجل عظيم؟

فأجابهم القرآن.. وهو يصور هذه الوضعية، ويعرّف بمكانته ﷺ:

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ * وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف: ٢٩ - ٣٢].

ففى سياق الاحتجاج عليهم بأنهم لا يقسمون رحمة الله، وليس من حقهم أن يختاروا على الله أين يضع رسالته - يعرّف النبى ﷺ - بأنه رسول مبين، وليس من عظماء مكة أو الطائف، كما يعرفون هم العظماء.

والمكيون - كما سجل القرآن - كانوا شديدى العداوة لمحمد، ودين محمد، وشديدى الجدل الذى يبعد كثيراً عن المنطق. وفى هاته الصورة التى يحكيها القرآن عنهم، وعن مجابهتهم، والفكرة التى يتصورونها عن النبوة، بل الإغراق فى الجدل ومحاولة التعجيز.

فى هذه الصورة ما ينبئ بما كان النبى - ﷺ - يلقاه منهم، حينما كانوا يريدون أن يخرجوه من طبيعته، فلا يريدون أن يقبلوا منه دعوة رسول، ولكن يريدون أن يروه فى صورة أخرى لا تستند إلى الطبيعة البشرية.

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾

[الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

إنهم يريدون من رسول الله ـ ﷺ ـ أشياء تخرجه عن نطاق بشريته.

يريدون منه أن يفجر الأرض.. وأن تكون له جنات من النخيل والعنب، تجرى حولها الأنهار، وذلك أقصى ما يصل إليه خيالهم من التعجيز، لأنهم يفتقدون الماء.. وكل المعجزات التى يتصورونها إنما تنحصر فى تفجير الينابيع، وفى جنات النخيل والأعناب، التى تجرى من حولها الأنهار..

وهذه الصورة أبلغ ماتكون فى قصر النظر، وفى ربط الدعوة الفكرية بالمصالح المادية التى تطمح إليها نفوسهم.

ثم يذهب بهم التعجيز أن يتحدوه فى أن تنفّذ فيهم الآية التى يقول فيها القرآن:

﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [سبأ: ٩]

بل يتحدّونه فى أن يأتى بالله والملائكة، ليشهدوا بصحة دعوته، وصدق نبوته، ويختلط التحدى بالرغبة فى الحصول على مباذل الدنيا (أو يكونَ لَكَ بيْتٌ مِنْ زُخْرف). ثم تتطور الفكرة، فيتحدونه أن يرقى فى السماء.

ولكن القرآن العظيم يخسف بكل هذه التحديات، فيعرف رسول الله ـ ﷺ ـ فى كلمات معدودات، تزرى بكل هذا الذى يطلبونه، ويتحدون به:

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٣]

وهم يستنكرون على الرسول أن يكون بشراً يأكل الطعام، ويمشى فى الأسواق..

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٧].

بل يرجون فيه بعقلية التحدى المعروفة عنهم أن ينزل :

﴿ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا * ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٧ - ٩].

وهم لم يطلبوا ذلك تعظيماً لأمر رسالته، وإنما هو نوع من التحدى والسخرية، كما هو واضح من التعبير القرآنى.

ولم يفضح القرآن الكريم كل هذه التحديات السخيفة إلا ليؤكد بشرية الرسول، ولينفى عن الرسالة الإلهية كل بُعد عن النطاق البشرى، فلا الملائكة يمكن أن يكونوا رسلاً إلى جميع البشر، ولا الرسول مفضل على بنى قومه بالكنوز والجنان، ولا الرسالة الإلهية تحتمل السحر أو تفجير الأرض بالينابيع أو غيرها من الأعمال التى تخرج عن طاقة البشر.

إنما الرسالة التى كلف بها رسول الله ﷺ، هى أن يربط بين الناس وإله الناس عن طرق العقيدة الصحيحة، والعبادة الخاصة، ودعوتهم إلى الإيمان بالله وحده، لا شريك له، وإخلاص العبادة لله.

ولم تكن طبيعة هذه الرسالة لتخرجه عن كونه بشراً، ولا ترفعه إلى مقام الألوهية..

وإنما هى رسالة من عند الله، إذا اكتسب صاحبها سمو المكانة، والثقة المثلى من الله، فليس ذلك بمخرجه عن طبيعته وبشريته.

ثم إنها تكليف محدود، فليس من طبيعة الرسالة أن يكون حاملها مسئولاً عن النجاح فيها، بل إن الله ليأمره أن يتقدم إلى من يُوجِّه إليهم رسالته،

بأن يؤمنوا بهذه الرسالة ــ أو ــ لا يؤمنوا . لأن الله غنى عن العالمين ، وإيمانهم مصلحة لهم ، وكفرهم خسارة عقيدتة وروحية ونفسية لهم .

رسالة رسول الله .. دعوة للهداية ، وتبليغ للقرآن ، وتبشير ..

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ [الشورى : ٥٢ - ٥٣] .

ويزيد القرآن فى تحديد معنى الرسالة ، وقيمتها الحقيقية ، وهو يرد على الذين زعموا أن محمداً مجرد شاعر أو كاهن أو ساحر .

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الحاقة : ٣٨ - ٤٢]

والرسالة ليست قرآناً يُتلى فحسب ، ولكنها توجيه دعوة إلى الإيمان ، وتعليم للإيمان والدين والسلوك والخلق القويم .

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٥١]

رسالة رسول الله ، محمد ﷺ ــ إذن دعوة للناس كافة ، عرّف القرآن الرسالة والرسول ، وقدمها للناس ، بقوله .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

وهى رسالة عامة، ليست قبلية ولا قومية ولا انعزالية، وإنما رسالة للناس كافة، لكافة الأمم والأديان والأجناس، لذا فالإيمان بها يتطلب الإيمان بكل الرسالات السماوية، وبكل الرسل الذين بعثوا من قبله.. وذلك يعطى طابعاً خاصاً للرسالة المحمدية..

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ومن طبيعة الرسالة، التى بُعِث بها محمد، أنها لاتتحمل مسئولية الذين لم يهتدوا، بعد أن بيّن لهم الطريق، وتهديهم سواء السبيل:

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ * قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٨ - ٥٠].

هذه الآيات تسلط الأضواء كاملة على معنى الرسالة، ثم علاقة الرسالة بالذين توجه إليهم، إنها تبشير وإنذار، ولكنها تترك الحرية لضمير الآخرين، إن شاءوا آمنوا، وإن شاءوا كفروا، إنْ شاءوا أصلحوا، وعند ذلك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وإن شاءوا كذبوا فسيلقون جزاءهم.

ثم تتحدى الآية هؤلاء المكذبين لتوضيح جوانب كثيرة من طبيعة الرسالة، فرسولُ الله لايملك خزائن الله، وهو لا يطّلع على الغيب، وليس مَلَكاً، وإنما هو متبع لما يوحى إليه.. ولهذا أكدت آيات كثيرة الأمر له بالتبليغ ثم تنتهى مسئوليته.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ ﴾ [المائدة: ٦٧]

﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ [المائدة : ٩٩] .

﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾

[العنكبوت : ١٨] .

هذه هى صورة الرسول ، وهذه هى صورة الرسالة ، صورة الرسول هى نفسها صورة الرسالة ، الرسول لاينفك عن الرسالة ، والرسالة لاتنفصم عن الرسول ، إذا تحدث القرآن عن الرسول ، قرن إلى صورته تعاليم الرسالة ، وإذا تحدث عن الرسالة شمل الحديث شمائل الرسول .

من هنا قلنا .. إن الرسول والرسالة عنصران مترابطان متلازمان ، الرسول جزء من رسالته ، والرسالة مرآة تعكس صورة الرسول ، وتعكس المنهج الإلهى الذى وضعه الله لرسوله ـ ﷺ ـ لكى يخاطب البشر ، ويهدى البشر إلى صراط العزيز الحميد .

وهكذا كانت مشيئة الله ـ العلى القدير ، أن يجعل منهج رسالته الإلهية ، منهجاً عمليا تطبيقيا ، فاختار من البشر رجلاً يحمل هذا المنهج الإلهى ، وينفذه ويحوّله إلى حقيقة ، لكى يعرف الناس أصول العقيدة ، وأنها أحق بالاتباع . ووضع الحق ـ سبحانه ـ فى شخصه العظيم الصورة الكاملة للمنهج الإلهى ، الصورة الحية للمنهج القرآنى ، الصورة الخالدة على مدار الزمن ، فكان الرسول الترجمة الحيّة لروح القرآن ، وحقائق القرآن ، وتوجيهات القرآن ، ودعوة القرآن ، ومن ثمّ كان كالقرآن قوة كونية عظمى ، قوة من صنع الله ، تتكامل فيها القوى ، وتتناسق فى محيطها الشامل ، وتتألف منها نفس واحدة تجمع كل النفوس ، تجمعها فى توازن واتساق ، ذلك هو رسول الله ، محمد بن عبد الله ـ ﷺ ـ النبى الأمّى ، والنور الكونى ، الذى بهر العالمين .

— ٢ —

الكافرون كما صوّرهم القرآن

اهتم القرآن الكريم بتصوير الكافرين اهتماماً كبيراً ، بحيث شغلوا حيِّزاً كبيراً من آيات الدعوة ، والصراع بين أنصارها وخصومها ، لأنهم كانوا حقيقة واقعية فى زمن الدعوة المحمدية ، لم يكفهم أن يقفوا بعيدين عنها أو مسالمين ، ولكنهم كانوا من التنوع بحيث وقف بعضهم منكراً لها مسالماً. ووقف الآخرون معاندين جاحدين ، ووقف النوع الثالث منهم معتدين ، ووقف النوع الرابع دسّاسين يؤذون النبى — ﷺ — غدراً وحيلة .

من كل هذه العقليات والاتجاهات كوّنوا مجتمعا ، كانت له خطورته فى زمن رسول الله — ﷺ. لم يكن موقف هذا المجتمع سلبياً إذاً ، ولكنه كان موقفاً إيجابيا ، ولهذا دخل فى صراع البقاء والفناء مع مجتمع المؤمنين ، وكانت الدعوة تقف أحياناً مواقف الحرج من هذه الخصومة ، التى لم تكن شخصية إلا من خلال انطباع خصومتها للفكرة على خصومتها لشخص .

كانت الدعوة تتغلب ، ولكن فى وجه خصومة خطيرة ، مثّلها الكافرون بكل ما ملكوا من ممكنات الكفر ، ولكن هذه الخصومة أثْرَت الدعوة القرآنية بالحجة والجدل وطرق الإقناع ، ومكّنت النبى — ﷺ — من وسائل للدفاع عن دينه ، فى وجه الشبهات التى يثيرها هؤلاء .

والقرآن الكريم .. حين يحلل نفسية الكافرين ، ويصف نماذج من كفرهم ،

وحينا يجادل الكافرين. في آيات الله، ويدل بالحجج الكافية على بطلان دعواهم، وحين يتحدث عن مصير الكافرين في الدنيا وجزائهم في الآخرة.. لا يفعل ذلك لمجرد أنهم يكونون مجتمعاً كافراً، ولكنه يفعل ذلك ليؤكد دعوة الإيمان عن طرق معارضة الدعوة المخالفة، ولينصر مجتمع الإيمان عن طريق خذلان مجتمع الكفر، وليكشف الشبهات التي يأتي بها الكافرون للدفاع عن رأيهم. ومن قراءة القرآن نستطيع أن نعرف عمق الأحداث التي مرت بها الدعوة الإسلامية. فلم تكن أحداثاً سهلة يسيرة ــ كما تصورها كتب التاريخ، وكتب السيرة، ولكنها كانت عميقة عمق النفس البشرية، وعمق الصراع العقيدي، بكل إرثه الثقيل، الآتي من الفكر، أو العادة، أو الخرافة أو التقليد أو التشبث، بمافي ذلك من المنفعة المادية أو المعنوية.

ولعل نموذج الكافرين ــ في عصر الرسول ــ ﷺ يختلف عن نموذج المنافقين، في المواجهة والوضوح والصراحة، فقد كان المنافقون متعبين من حيث أن المؤمنين لا يدركون خفايا مايجول في ضمائرهم، وكانوا بذلك يستطيعون إن يتسربوا إلى مجتمع المؤمنين، حتى في الأوقات الحرجة، التي تحتاج إلى وحدة الصف، كأوقات الحروب، وتكالب الأعداء على الدعوة، ولذلك عُنِي القرآن بفضح هذا النفاق في كل صوره.

والأمر ليس كذلك بالنسبة للكافرين، الذين يواجهون الدعوة في وضوح بالإنكار أو المحاجة، أو الحرب أو العنف، ولذلك كان تصوير القرآن للكافرين من نوع آخر، ومحاجتهم تكتسي لوناً آخر.

لقد تتبع القرآن الكفر بمحمد ــ ﷺ ــ في مختلف إحساسات وتصرفات الكافرين، وصراعهم ضد دعوته ــ ﷺ ــ وكل ما جاء به.

* فهم ينكرون رسالته:

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ﴾ [الرعد : ٤٣].

* ويزعمون أن ما جاء به سِحْر وأساطير..

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

[الأنعام : ٧].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٥].

* ويجابهونه بالزعم بأن رسالته كان يجب أن تكون من مَلَكْ..

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٨].

* ويطالبونه فى عنادهم المطلق بأن تنزل عليه معجزة من ربه رغبة فى إحراجه..

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ [الرعد : ٧].

* وهم لا يجادلون فى نبوته كإنسان فحسب، ولكنهم يجادلون فى كل ما جاء به، ينكرون الله ويكفرون به:

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ﴾ [المؤمنون : ١١٧].

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل : ١٠٦].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا * أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾

[النساء : ١٥٠، ١٥١].

* وينكرون البعث بعد الموت..

﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [هود : ٧].

* ويكفرون بالقرآن الذى أتاهم به..

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال : ٣١]

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ [الحج : ٧٢]

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت : ٢٦].

ــ وهناك آيات تفصيلية تصور نفسية نماذج مختلفة من الكافرين، موقفهم من القرآن، فبعضهم يجادل ويطالب بأن القرآن كان يجب أن ينزل جملة واحدة، وبعضهم يزعم أنه سِحْر، وبعضهم يزعم أنه شِعْر، وبعضهم بالغ فى التهافت حتى قالوا :

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾. [الزخرف : ٣١].

وكلها تنتهى إلى نكران القرآن ككتاب نزل على رسول الله محمد ــ ﷺ ــ من عند ربه.

* وقد كفروا بآيات الله التى تشمل قرآنه وكل آياته فى خلقه :

﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الجاثية : ٤، ٥].

* ويستمر القرآن فى تصوير موقف المنكرين من هذه الآيات إلى أن يقول :

﴿ هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ [الجاثية ١١].

وكما كفروا بالله وبمحمد وبدعوته وقرآنه، كفروا بكل ما جاء به، ومن ذلك البعث يوم القيامة..

وقد صور القرآن هذا الكفران فى كثير من الآيات، تعطينا جميعها نماذج عقلية ونفسية من هذا الكفر، من هذه النماذج:

١ ــ نموذج يكفر بالساعة وينكرها إنكاراً صريحا..

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ﴾ [سبأ: ٣].

﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [هود: ٧].

٢ ــ ونموذج أكثر من ذلك تفكيراً ومنطقاً، ولكن عقله لا يتعدى الرؤية البسيطة العادية، التى لا تستند إلا إلى التجربة الشخصية.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [النمل: ٦٧، ٦٨].

٣ ــ ونموذج ثالث يعبر عن استغراب شديد من بعث يأتى بعد إندثار..

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ ﴾ [سبأ: ٧، ٨].

ولم يكن محمد ــ ﷺ ــ يواجه فى دعوته نوعاً واحداً من الكافرين، هم الذين أنكروا وجود الله أو رسالة محمد، أو القرآن الذى جاء به، أو عناصر دعوته ومنها البعث. لم يكن يواجه نوعاً واحداً من هؤلاء الكافرين، وإنما كان يواجه نماذج كثيرة، منهم أهل الكتاب، والمشركون، والمنافقون.

وقد تتبع القرآن كل هذه النماذج ليسكّت قولتهم، وليكبح جماحهم، وليرد عليهم، ويسفّه مزاعمهم وحججهم اتباعا للخطة التى استنها، وهى أن الدعوة لا تثبت إلا بعد الإقناع والحجة والمجادلة والصراع الفكرى.

فقد كفر أهل الكتاب من اليهود والنصارى وناصبوا دعوة محمد العداء.

﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾
[البينه: ١ - ٦].

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ﴾. [الحشر: ٢].

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا ﴾
[البقرة: ١٠٩].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ﴾ [آل عمران: ١٠٠، ١٠١].

* وأهل الكتاب هؤلاء لم يكفروا بدعوة محمد ـ ﷺ ـ تشبثاً بكتبهم، مع أن التوراة والإنجيل بشّرا ببُعث محمد لو احتفظوا بما أتت به كتبهم. لذلك اتجه القرآن إلى أقوى دليل ليؤكد خطأهم، حين يعارضون ويتحدّون وجود رسول الله، ويقدم الدليل من واقع كتبهم..

﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾
[الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]

فرسول الله ــ النبى الأمى ــ ﷺ ــ لم يأت على غير موعد، وخاصة عند أهل الكتاب، فقد تحدثت عن مجيئه التوراة والإنجيل، ثم هو قد جاء ليطهر الإنسانية، ومنها اليهود والنصارى من كل منكر، فيحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث التى ابتدعوها، ونسبوا بعضها إلى الدين. والدين منها براء، ثم هو يحللهم من الإصــر والأغلال، التى ربطوا أنفسهم بها، اعتقاداً منهم أنها من الدين، وماهى من الدين فى شىء.

ويؤكد القرآن العظيم، أن الله تبارك وتعالى ــ قد أخذ الميثاق على النبيِّن والمرسلين، أنهم يؤمنون برسول الله محمد ــ ﷺ ــ حينما يبعث مصدقاً لما معهم من دعوة وكتب سماوية.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١].

فرسالة ــ رسول الله، ودعوته ــ ﷺ ــ لم تبلّغ فقط إلى أهل الكتاب فى عصره، ولكنها قبل ذلك أخذت ميثاقاً على النّبيّين أن يصدقوه ويؤمنوا به، وينصروه، وقد أخذت بالتالى على أتباع هؤلاء الأنبياء، ولــن يكون هؤلاء يهوداً حقاً، ولانصارى حقاً، حتى يؤمنوا برسول الله، لأن أنبياءهم آمنوا به، وتعهدوا بتصديقه ونصرته، وأخذوا بذلك عهداً لله على أنفسهم، فأشهدهم الله على عهدهم، وكان الله معهم من الشاهدين، فكيف يجوز بعد هذا ــ أن يتنكر اليهود والنصارى لرسول الله، ويناصبونه العداء، وهم يزعمون أنهم متمسكون بالتوراة والإنجيل؟.

— ٣ —

تبشير الكتب السماوية برسول الله

لقد بشرت الكتب السماوية بنبوّته ودعوته، وبأنه سيبعث ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى الصراط المستقيم (١).

* جاء في التوراة، في سفر التثنية، الإصحاح الثامن عشر، قول موسى لبني إسرائيل:

(سوف أقيم لهم نبياً مثلك من بين إخوانهم، وأجعل كلامي في فيه، ويكلّمهم بكل شيء آمره به، ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به باسمي، فأنا أكون المنتقم من ذلك).

فهذه البشارة الواردة في التوراة، تشهد شهادة واضحة بنبوة النبي محمد ـ ﷺ ـ وقبول دعوته، ووجوب اتباعه، وهي حجة على أهل الكتاب جميعا، وإن جحدوها وتأولوها.

ـ فقول التوراة: (سوف أقيم لهم نبياً مثلك) هو الشهادة على صدق

(١) انظر بحثنا (محمد ـ ﷺ ـ وبشارات النبوة) مجلة القافلة عدد ربيع الأول سنة ١٤٠٥ هـ.

وانظر أيضاً (وجاء النبي المنتظر ـ للأستاذ عبد الوهاب عبد السلام طويلة، ص٣٠ طبع الجامعة الإسلامية سنة ١٤٠٥ هـ.

نبوته، وصحة رسالته، لأن المتكلم هو الله، والمخاطب هو نبى الله موسى، ومن كان (مثله) فهو نبى ورسول مبعث أيضاً.

— وفى قول التوراة: (وأجعل كلامى فى فيه) لا ينطبق إلاّ على النبى محمد — ﷺ — لأنه هو الذى يقرأ كلام الله ويحفظه، وهو القرآن الكريم.

وعبارة (يكلمهم بكل شىء) أقوى دليل وشاهد، إذْ النبى — ﷺ — تكلم بغيب لم يتكلم به نبى سواه، إذْ أخبر بكثير من الأمور الغيبية، فأخبر عن أصحاب الكهف، وذى القرنين، والخضر صاحب موسى، وتحدث عن الروم، ونبّأ بفتح فارس وبلاد الروم، وفتح مكة، إلى آخر هذه الأمور التى لم يكن يعرفها من قبل (١).

* وجاء فى التوراة أيضاً ما نصه:

(يا أيها النبى إنا أرسلناك مبشراً ونذيراً، وحرزاً للأمّيّين، أنت عبدى ورسولى، سمّيتك المتوكّل، ليس بفَظٍّ ولا غليظ، ولا صَخَّابٍ فى الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يُقيم الملّة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلاّ الله، فيفتح به أعينا عميا، وآذاناً صُماً، وقلوباً غُلْفاً).

[أخرجه البخارى]

* وجاء فى التوراة أيضاً، فى سفر التثنية، **الإصحاح** الثانى والثلاثين: ما يلى:

(هم — أى بنو إسرائيل — أغارونى بغير إله، وأغضبونى بمعبوداتهم الباطلة، وأنا أيضاً أغيرهم بغير شعب، وبشعب جاهل أغضبهم).

(١) انظر بحثنا (مفهوم الاعجاز القرآنى حتى القرن السادس الهجرى) — فصل الإعجاز التاريخى للقرآن. طبع دار المعارف سنة ١٤٠٤ هـ.

فبنو إسرائيل أغضبوا الله وأغاروه بعبادتهم للمعبودات الباطلة، ومنها العجل، ولذلك فإن الله ــ سبحانه ــ سوف يعاقبهم ويغيرهم، وذلك باصطفاء واختيار الشعب الآخر، الذى هو عندهم جاهل محتقر.

ولا شك أن المقصود بالشعب الجاهل العرب، لأنهم كانوا فى غاية الجهل والضلال، ولم يكن عندهم اتجاه إلى العلم، سواء كان من العلوم الشرعية، أو العلوم العقلية، أو التجريبية، وكان معظمهم أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وكانوا يعبدون الأصنام، ويئدون البنات، ويغير بعضهم على بعض، كما كانوا محتقرين لدى اليهود، لكونهم من أولاد جارية إبراهيم، عليه السلام، هاجر.

وأوفى الله بما وعد، فبعد أن كان بنو إسرائيل أفضل العالمين فى زمانهم، استبدل بهم قوماً غيرهم، وهم العرب الأميّون، فبعث فيهم رسولاً منهم، أُمياً مثلهم، فهداهم من الضلال وجمعهم من الشتات، وألّف بين قلوبهم على الحق والخير، قال سبحانه:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

كما فضل أمته على سائر الأمم: قال سبحانه:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

هذا ويؤيد ذلك ما جاء فى المزامير:

(الحجر الذى رفضه البناؤون صار حجر الزاوية. لذلك أقول لكم: إن مُلك الله يُنزع منكم، ويعطى لأمة تحمل ثماره).

* كما جاء فى العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح التاسع والأربعين:

(فلا يزول القضيب من يهوذا، والمدبر من فخذه حتى يجيىء الذى له الكل وإياه تنتظر الأمم).

فمن ذاك الذى كانت تنتظره الأمم سوى النبى محمد – ﷺ ؟

فهذه علامة صريحة، ودلالة واضحة على أن المراد من ذلك هو سيدنا محمد – ﷺ – لأن الشعوب ما اجتمعت قط إلا إليه. قال الله تعالى فى سورة الأنفال:

﴿ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣].

وجاء فى حديث جابر – رضى الله عنه – «.. وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة». وكان من أصحابه الحبشى والرومى والفارسى وغير ذلك.

* وجاء فى سفر التثنية، الإصحاح الثالث والثلاثين، ما يلى:

(جاء الرب من سَيْناء، وأشرق لنا من سَاعِير، واستَعْلَن من جبال فَارَان ألوف الأطهار).

فهذه شهادة صريحة من التوراة، واضحة بنبوة ورسالة محمد – ﷺ. إذ معنى هذا اللفظ، أن الله تعالى ناجى موسى، وأوحى إليه بسيناء، وأرسل عيسى، وأوحى إليه بساعير، وهى من أرض الجبل بالقدس، وبعث محمداً – ﷺ – رسولاً معلناً كلمة: (لا إله إلاّ الله) مستعلنا بها من مكة الواقعة

بين جبال فاران، كجبل أبى قبيس وحراء، وغيرهما من جبال مكة المحيطة بها (١).

إن كل هذه البشارات وردت فى العهد القديم، التوراة، وكان اليهود أكثر الناس تلهفاً وانتظاراً لمبعث النبى العربى، فى جزيرة العرب، ولكن الحسد والحقد هو الذى دفعهم إلى التنكر له، والكفر بدعوته، وبذلك دمغهم القرآن ولعنهم:

﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩].

* والبشارة بالنبى محمد ـ ﷺ ـ لم تقتصر على التوراة فقط، بل بشّر به الإنجيل أيضاً فى أكثر من موضع، فقد حكى القرآن عن عيسى بن مريم ـ عليه السلام:

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف: ٦].

ـ عن خالد بن معدان، عن أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ أنهم قالوا: «يا رسول الله أخبرنا عن نفسك، قال: «أنا دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى عليهما الصلاة والسلام، ورأت أمى حين حملت بى كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بُصْرَى من أرض الشام» (٢).

---

(١) انظر إظهار الحق ص٢٥٢، ومحمد رسول الله لبشرى ص٧٥، ٧٦، وقصص الأنبياء للنجار ص٣٩٧ ومحمد فى الكتب المقدسة لمحمد رواس ص١٥، وجاء النبى المنتظر ص٥٩، ٦٠.

(٢) رواه ابن اسحق بسنده، وقال ابن كثير: إسناه جيد وله شواهد.

فعيسى خاتم أنبياء بنى إسرائيل، وقد أقام فى ملئهم مبشراً بمحمد، وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين الذى لا رسالة بعده ولا نبوّة، فلما جاء أحمد المبشَّر به فى الأعصار المتقادمة، اتهموه بالسحر وغيره.

وكان المسيح عيسى ـ عليه السلام ـ يعبر عن المبشّر به بلفظ النبى، وبلفظ مسيّا(١)، وبلفظ أحمد ـ فارقليط.

جاء فى إنجيل يوحنا، الإصحاح الرابع عشر، قول المسيح ـ عليه السلام ـ لأتباعه:

(إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى (١٦) وأنا أطلب من الأب ـ أى الله ـ فيعطيكم «فارقليط» آخر، ليثبت معكم إلى الأبد...

(٢٦) ـ وأما الفارقليط روح القدس الذى سيرسله الأب باسمى، فهو يُعَلِّمكم كلَّ شىء ويذكركم بكل ما قلته لكم...

(٢٩) ـ والآن قد قلت لكم قبل أن يكون، حتى إذا كان تؤمنون...

وجاء فى الإصحاح الخامس عشر:

(٢٦) ومتى جاء الفارقليط الذى أرسله إليكم من الأب، روح الحق الذى ينبثق من الأب، فهو يشهد لى.

(٢٧) وأنتم أيضاً تشهدون، لأنكم معى من الابتداء.

---

(١)(مسيّا) كلمة آرامية تعنى رسول، و (المسيح) كلمة عربية معناها الملك أو النبى، وهو لقب لعيسى بن مريم أما (عيسى) فاسم العلم له، وبالعبرية يشوع أى المخلّص لتخليصه لكثير من الناس من آثامهم وضلالهم. [انظر قصص الأنبياء للنجار ص٣٧٦ ـ ٣٩٨].

وجاء في الإصحاح السادس عشر:

(٧) ــ لكني أقول لكم الحق، إنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق، لا يأتيكم الفارقليط، فأما إن انطلقت فإني أرسله إليكم.

(٨) ــ ومتى جاء فهو يوبّخ العالم على خطيئته..

(١٢) ــ وعندى أيضاً أشياء كثيرة أقولها لكم، غير أنكم لا تطيقون حملها الآن.

(١٣) ــ ولكن متى جاء هو روح الحق فإنه يعلمكم الحق، لأنه لا يتكلم من عند نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية..

وهكذا تكرر لفظ «الفارقليط» في الإنجيل، وأعلَمَ به المسيح، وبشّر به قومه.

وقد تباينت أقوال المفسرين النصارى في المراد بالفارقليط، وذهبوا إلى أقوال منها:

* إن (الفار) بمعنى المخلّص. وقال بعضهم: هو مشتق من الفاروق أو الفارق، وقالوا أيضاً: (ليط) مقطع يزاد، كما يقال: رجل هو، وعالم هو، ومخلّص هو.

ومن المسلّم به.. أنه لا نبيّ بعد عيسى بن مريم سوى النبي المصطفى محمد ــ ﷺ، وهذه البشارات قد تضمنت بوضوح، أنه سيأتي بعد عيسى نبيٌّ يخلّص العالم مما فيه، ويوبّخهم على الخطيئة، ويتكلم بما يسمع، أي بما يُوحى إليه من ربّ العزة..

فهذه العبارة من الإنجيل، صريحة الدلالة على التبشير بالنبي ــ ﷺ، فهو الذي صحّح أوضاع العالم، وهو الذي بُعث والعالم يسبح في بحور الفساد والضلال، والشرور والوثنية. وهو ــ ﷺ ــ الذي جاء بعد رَفْع عيسى بن مريم، يدعو إلى رب السموات والأرض، وهذا ما أكده القرآن العظيم..

* وقد سجل القرآن الكريم أيضاً شهادة أهل الكتاب فى أكثر من موضع :

من مثل قوله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء : ١٩٧] .

ففى هذا القول لوم وتوبيخ للعرب الكافرين ، الذين لم يؤمنوا برسالة محمد ـ ﷺ ـ مع وجود آية عظيمة تدل على صدق نبوته ، وصحة دعوته ، وثبوت رسالته ، وهى معرفة علماء بنى إسرائيل ، وشهادتهم له بأنه نبى الله ، وما جاء به هو من عند الله .

وقوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ . [البقرة : ١٤٦ ، ١٤٧] .

فقد نصت هذه الآية الكريمة علي أن الذين أوتوا الكتاب (التوراة والإنجيل) يعرفون نبوّة محمد ـ ﷺ ، وصدقه فيها ، معرفة مثل معرفتهم لأولادهم ، كما أخبرت أن فريقاً كبيراً منهم يكتمون الحق بعد معرفتهم له ، وإن لم يؤمنوا برسالة محمد ـ ﷺ ـ بعد مُعرفتهم لها تمام المعرفة .

تلك نماذج من الكافرين ، فى مقدمتهم أهل الكتاب ، الذين واجههم القرآن بالتصوير ، ثم جابههم بالحجج وإبطال ما يعتمدون عليه فى تفكيرهم . ولعل أكبر وضْع وَضَعَ فيه القرآن الكافرين ، هو أنه أعلن غنى الله والرسول والمؤمنين عنهم ..

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾ [الكهف : ٢٩] .

﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٧]

﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان : ١٢]

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٧٦ ، ١٧٧]

— ٤ —

المشركون كما صوَّرهم القرآن

لا تكتمل صورة الكفر فى القرآن إلا بالصورة التى يعطيها القرآن عن الشرك والمشركين، ذلك أن الشرك ربما كان أصل الكفر، ولعل طبيعة الشرك تزيد عن طبيعة الكفر من جهة، وتقل عنها من جهة أخرى.

* — تزيد عن الكفر لأن المشرك لا يكتفى بالكفر بالله، رغم الحَجج والدلائل التى تقوم لديه عن وجود الله، بل يشرك بالله غيره، أو يعبد غير الله وفى ذهنه فكرة مشوهة عن الله، انفتحت أمامه إذن طريق الهداية، ولكنه مع ذلك اختار الضلال حينما اختار أن يشرك مع الله غيره، فهو إذن كافر وزيادة..

* وتقلّ عن الكفر لأن فى ضميره بعض الإيمان بالله، نعم.. ولكن الهداية لم تكتمل ما دام يشرك مع الله غيره، وربما لم يكن يعبد هذا الغير إلاّ ليقرّبه إلى الله.

وقد تتبع القرآن الكريم، إبان الدعوة المحمدية، الشِّرك والمشركين، بنفس الأهمية التى تتبع بها الكافرين عموماً، لأنهم كونوا طائفة، حاربوا الرسول، وبهرجوا دعوته، وكانوا عقبة فى سبيل هداية الآخرين لما نشروه من أباطيل وضلال.

ونحن نعرف أن المجتمع المكى، كان مجتمعاً مشركاً، مليئاً بالأصنام والأوثان التى كان يعبدها أهل مكة، بل إنهم كانوا يشركون بالله الجن والملائكة والشياطين أحياناً، لأن فكرة الألوهية، والإله الواحد الحق، لم تتضح فى أذهانهم، وربما كان مجتمعاً معانداً، يتخذ من الشرك سبيلاً لإرضاء الغريزة الطبيعية فى الإنسان، وهو الإلتجاء إلى قوة غيبية عليا (١).

لذلك عانى الرسول – ﷺ – فى تبليغ رسالته، وتوضيح دعوته – من المشركين أكثر مما عانى من الكفار عموماً، ومن أهل الكتاب، حتى فى طريقة الإقناع، كانت مخاطبة المشرك واقتلاع جذور الشرك من عقله ونفسه وضميره، أكثر صعوبة فى بعض الأحيان من مخاطبة الكتابى.

ولقد كان المشركون سبيلاً إلى تكوين طائفة أخرى، من الذين لاقى الرسول – ﷺ – منها الأمَرَّين. وقد كان الشرك – كما وضح القرآن – من طبيعة البشر، الذين يحاولون الاهتداء إلى مصدر القوة الغيبية، فلا يكادون يهتدون بالعقل، إلا القِلّة الذين رجحت عقولهم فاتبعوا طريق الهداية.

ومن هنا كان الشرك مشكلة كل الأنبياء، والديانات السماوية، فما جاءت ديانة، ولا بُعث نبىّ، إلا واصطدم بمشكلة الشرك والمشركين. فمن أبى الأنبياء إبراهيم. عليه السلام – إلى موسى وعيسى ومحمد، والأنبياء قبلهم.. كلهم عانوا مشكلة الشرك والمشركين.

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟

---

(١) انظر كتابنا «الشعراء الحنفاء»، فصل أديان العرب قبل الاسلام. طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٨١.

﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾
[التوبة : ٣٠، ٣١].

ولذلك حرص القرآن الكريم على نفى الشرك عن محمد — ﷺ — كما نفاه عن الأنبياء من قبله، وأمره أن يُعرض عن المشركين. من مثل قوله تعالى:

﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ١٠٦].

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر : ٩٤].

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾
[آل عمران : ٦٤].

﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٥].

وقد ألح القرآن على نفى الشرك عن إبراهيم بخاصة، لصلته النَّسَبِيَّة بالعرب المخاطبين بالقرآن، إذ إن عرب مكة العدنانيين ينتسبون إلى إبراهيم عن طريق ابنه إسماعيل، ومعظم القبائل التى سكنت المنطقة العربية تنتسب إليه، وإبراهيم هو الذى رفع قواعد البيت الحرام، وحول هذا البيت كانت قريش وغيرها من سكان مكة ينصبون الأصنام والأوثان ويعبدونها من دون الله، أو يعبدونها لتقربهم إلى الله زُلفى..

ولذلك أكد القرآن على أن بانى البيت الحرام لم يكن مشركاً مع الله شيئاً، فلا يحق لمن ينتسبون إليه عن طريق النبوة، أو يقيمون حول البيت الحرام، الذى أقام قواعده، لا يحق لهم أن يشركوا بالله شيئاً.

* ويهتم القرآن العظيم بتصوير الشرك والمشركين اهتماماً كبيراً، فلا تكاد تخلو آية تتعلق بالشرك من وصف دقيق ظاهرى لحالة الشرك، أو تحليل نفسى للمشركين، ولحالة الشرك، أو تصوير لما يصيب المشركين من ندم وخوف من المصير.

من ذلك قوله تعالى :

﴿ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج : ٣٠، ٣١].

تكفى قراءة الآية لنتصور هذا الذى يخرّ من السماء فتخطفه الطير لتنهشه ، أو تهوى به الريح فى مكان لا قرار له ، ولندرك هذا الفراغ العقيدى ، الذى يجعل الإنسان يهوى بدون قرار، تهوى به الريح فى مكان سحيق .

ومن الصور النفسية للمشركين ، قوله تعالى :

﴿ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ [الشورى : ١٣].

فالقضية عندهم ليست قضية اهتداء وهداية ، ولكن الدعوة كبرت عليهم فلم يستطيعوا الفكاك عن إشراكهم .

ثم هى قضية حسد المهتدين ، وعناد للهداية :

﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة : ١٠٥]

ومن وضعيتهم النفسية ما يصوره القرآن ، فى قوله تعالى :

﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ [آل عمران : ١٥١].

والقرآن يصور المشركين تصويراً رائعاً من الداخل النفسى، فهم لا يشركون عن إيمان ، ولكن وضعهم النفسى المزعزع يجعلهم يحسون بالقلق والاضطراب ..

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ﴾ [النحل : ٥٣ـ٥٥]

* والشرك ـ كما وضّحه القرآن : إشراك غير الله معه في العبادة. ومن خلال الآيات التي تتحدث عن الشرك ندرك إجمالاً.. هذا الذي كانوا يشركونه مع الله في العبادة أو التقديس وبعض الآيات تنص على مـا كانوا يشركونه مع الله. جاء في القرآن:

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنعام : ١٠٠]

ومثلها في هذا العموم لما يعبدون من دون الله، قوله تعالى :

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [يونس : ٦٦]

هذه الآيات وغيرها، تعطينا صورة واضحة عما يشركون به مع الله من مختلف مخلوقاته.

وهنا سؤال يطرح نفسه: هل للشرك طابع خاص، أم هو الكفر الذي حدّث القرآن عنه طويلا؟.

الذي يظهر من الآيات، أن الكفر يعطي المعنى العام لعدم الإيمان بالله، فإذا كان يعني أحياناً انعدام الإيمان مطلقاً، فهو كفر بالمعنى العام.

وإذا كان يعني الكفر برسالة محمد ـ ﷺ ـ مع الإيمان برسالة موسى أو عيسى رغم التحريف في العقيدة، وفي نصوص التوراة والإنجيل، فيسميهم

القرآن أهل الكتاب، وربما كان بعضهم موحداً إذا احتفظ بأصل العقيدة، وربما كان مشركاً إذا ما قال إن عُزَيْراً ابن الله، أو قال: إن المسيح ابن الله.

أما الذين يعبدون من دون الله ما لا يملكون لهم ضرًّا ولا نفعاً من أوثان أو أصنام أو ملائكة أو شياطين، فهم المشركون الذين خصهم القرآن بكثير من الآيات. من مثل قوله تعالى:

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

[يونس : ١٨]

* ومن مثل قوله — في إتخاذ المشركين أنداداً لله:

﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

[فصلت : ٩]

— ٥ —

أعباء الدعوة

كان النبي – ﷺ – مثالاً حياً لما ينبغي أن يكون عليه الداعي، من حسن الخلق وكريم السلوك، والصبر على تحمل المشاق. ذلك أنه فهم أن الدين الذي أرسله الله به دين دعوة، وقد كان الحق سبحانه يؤكد على هذه النقطة بالذات، في كثير من آيات الكتاب المجيد، من مثل قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾

[الأحزاب: ٤٥، ٤٦]

لقد كانت مهمته – ﷺ – أن يعرض الإسلام من غير قهر أو إكراه، فالله تعالى يرشده بقوله:

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]

ويوجهه بقوله سبحانه:

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩]

ويبين له جزاء المؤمنين، وجزاء المعرضين، ليكون المدعوون على بينة من أمرهم:

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٢٩، ٣٠]

وتطلب من نبيّه ـ ﷺ ـ ألا يستخدم أسلوب الإكراه فى عرض دعوته..

﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩]

وإنما الوسيلة هى الإقناع الفكرى، خاصة فى مواجهة أصحاب الثقافات والعقائد الأخرى مع إزالة الأغشية التى تحول بينهم وبين الإيمان بالله.

وكان النبى ـ ﷺ ـ يخوض هذا الصراع الفكرى واثقاً من الحق الذى يدعو إليه وفى هذا يقول ـ ﷺ ـ مخاطباً قومه ـ كما علّمه ربه:

«قل إنما أعظكم بواحدة: أن تقوموا لله مثنى وفرادى، ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة، إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد، قل ما سألتكم من أجر فهو لكم. إن أجرى إلاّ على الله، وهو على كل شىء شهيد، قُل إن ربى يقذف بالحق، علاّم الغيوب، قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد، قل إن ضللت فإنّما أضل على نفسى، وإن اهتديت فبما يوحى إلىّ ربى، إنه سميع قريب».

(متفق عليه)

وكان أسلوب الدعوة التى اتبعه ـ ﷺ ـ تنفيذاً لأمر ربه:

(ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ) وذلك فى مواجهة الحكماء من العرب (وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) وذلك فى مواجهة عامة الناس، (وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) وذلك فى مواجهة غير المُسلمين. كما قال تعالى:

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

[العنكبوت: ٤٦]

* ولقد أيقن الرسول ـ ﷺ ـ أن دعوته تندرج تحت أنواع من التكامل:

١ ـ التكامل التاريخى.
٢ ـ التكامل المكانى والإنسانى.
٣ ـ التكامل الموضوعى.

١ ـ أما ما يتصل بالتكامل التاريخى:

فإن القرآن الكريم فتح المجال واسعاً أمامه، ليستفيد من جميع الخبرات الإنسانية عبر التاريخ، بدءاً من الخليقة، عندما أبدعتها يد الله، والإنسان عندما نفخ فيه من روحه، وتتابع الرسالات الإلهية حاملة الهدى والنور إلى الإنسانية. حتى اكتملت به ـ ﷺ ـ بوصفه خاتم الأنبياء والمرسلين. لذلك أخذ يدعو ـ ﷺ ـ إلى الاستفادة من كل خبرة سابقة دون انطواء أو انغلاق.

*** ومعلوم أن الأديان السماوية كلها تجتمع على أصول ثلاثة:**

١ ـ الإيمان بواحدانية الخالق.
٢ ـ الإيمان باليوم الآخر، حيث يجازى كل إنسان بما عمل فى دنياه.
٣ ـ والعمل الصالح، من الصدق والأمانة والشجاعة، وقول الحق والصبر والجود، والرحمة والعدل، وقد جمع القرآن الكريم هذه الأحوال فى قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢]

لذلك كانت دعوته ـ ﷺ ـ تحمل الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين السابقين:

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾
[البقرة: ٢٨٥]

كما أن هذا الحشد الكريم من الآيات القرآنية الدالة على توحيد الله، والإيمان باليوم الآخر لا تستغرق جميع الرسالات السماوية، فالأنبياء المذكورون صراحة فى القرآن الكريم عددهم خمسة وعشرون نبياً(١)، ذكر ثمانية عشر منهم فى آيتين متتاليتين من سورة الأنعام، وذُكر السبعة الباقون فى آيات متفرقة فى القرآن. وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ ﴾
[غافر: ٧٨]

وما أكرم ما نقرأ فى القرآن الكريم من ذكر النبوات متتابعة، وثناء الله ـ جلا وعلا ـ على جميع الجهود الكريمة، التى بذلها النبيون والذين آمنوا معهم، ويؤكد هذا المعنى، قول الله تعالى لنبيه ـ ﷺ ـ فى سورة الأنبياء:

﴿ إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢]

فهى أمة واحدة، مسلمة، مهما تتابعت العصور، يرجعون جميعاً إلى رب واحد، أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، يهدون إلى الحق وإلى صراط مستقيم.

٢ ـ التكامل المكانى والإنسانى فى دعوته:

وكما تمتد الدعوة زمانياً لتشمل جميع الجهود المبذولة من أجل الإيمان بالله

---

(١) انظر بحثنا دراسات فى التفسير الموضوعى ـ فصل أنبياء الله ورسله، طبع مؤسسة الخانجى سنة ١٤٠٦.

واليوم الآخر، والعمل الصالح عبر التاريخ، فإنها تمتد مكانياً دون أن تقيد نفسها بمصر من الأمصار، أو قطر من الأقطار، أو جنس من الأجناس.

فالقرآن الكريم حين نزل على قلبه ـ ﷺ ـ كان يخاطب قريشاً أول الأمر، بقضايا يستطيعون أن يكونوا أكثر إحساساً بها من الناحية المكانية، مثل:

قصة أصحاب الفيل: التى حدثت فى العام الذى ولد فيه رسول الله محمد ـ ﷺ. وسجل القرآن هذا الحادث فى سورة كاملة هى «سورة الفيل». ولا بد من أنه كان يوجد أناس أدركوا هذا الحادث. ونزل القرآن بعد ذلك ليذكّره ويذكر نتيجته.

فلو كان فى هذا الحادث شك فى وقوعه، لعارضه هؤلاء الذين أدركوا ذلك التاريخ، وقالوا إنه لم يحدث، ولكنهم لم يعارضوه، فهو دليل على وقوعه، وعلى أن المعجزة القرآنية كلام الله الذى:

﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢]

كما ذكر القرآن رحلتى الشتاء والصيف لقريش، فالقرشيون أهل تجارة، وكانوا يتعاملون مع جنوب الجزيرة العربية جنوباً، ومع أهل الشام شمالاً، والجنوب لقربه من خط الاستواء يكون جوّه دافئاً، فكانت الرحلة إليه فى فصل الشتاء. والشام جوها طيب معتدل، فكانت الرحلة إليها فى فصل الصيف، وقد ذكر القرآن الكريم نبأ هاتين الرحلتين فى سورة كاملة هى «سورة قريش». وقد ذكرهما الله تعالى فى معجزة الرسول، ليؤكد على أهمية البيت الحرام، ووجوب توحيد ربه وعبادته وحده.

* ثم توسع القرآن مكانياً، فعرض لقضايا عالمية وقتئذ، كالصراع بين الفرس والروم:

﴿ الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ * فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ ﴾ [الروم: ١-٤]

وعندما تحدثت «سورة الكهف» عن فتية أهل الكهف، ذكر القرآن القصة للعبرة والعظة.

﴿ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا * إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: ٩، ١٠]

* وذكر القرآن في هذه السورة نفسها «قصة ذى القرنين»(١)، وقال الله في شأنه:

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا * فَأَتۡبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ ﴾

[الكهف: ٨٤-٨٦]

واستمر القرآن يحكى ما رآه عند مغرب الشمس. ثم قال:

(حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ)

واستمر فى الحكاية، ثم قال:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ﴾ [الكهف: ٩٣]

(١)انظر بحثنا «دراسات فى التفسير الموضوعى للقصص القرآنى. قصة ذى القرنين. طبع مؤسسة الخانجى بالقاهرة.

فطلب العبرة – كما توخى القرآن – يقتضى من المرء ألا يتقيد بمكان، وألا يقتصر على موطن، فالحكمة ضالة المؤمن – كما قال رسول الله – ﷺ.

ومع هذه العناية القرآنية بالتوسع المكانى فى العبرة، اتساعاً يصل إلى مشرق الأرض ومغربها، ويدعو الإنسان إلى متابعة الجهد حتى لو أمضى فيه الحقب.. فإنه يلفت نظره إلى ما بين يديه من آيات، فلا يشغله القريب عن البعيد، بحيث يصرفه.. ذلك عن حكم واضحة لا تحتاج منه – وهو فى مكانه – إلا أن يفتح حواسه وقلبه، من أجل ذلك يحذر القرآن:

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥]

٣ – التكامل الموضوعى للدعوة:

ومع تأكيد التكامل المكانى، والتكامل الزمانى، والتكامل الإنسانى للدعوة، هناك تكامل موضوعى، يتمثل فى القضايا المشتركة بين الأديان جميعاً، وهى قضية الإيمان بالله، وقضية الإيمان باليوم الآخر، وقضية العمل الصالح. ولا بد فى الدعوة من الارتباط بين العمل والعقيدة.

نجد هذا فى أكثر من آية من كتاب الله، من مثل قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ [الكهف: ١٠٧]

وقوله سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠]

ومن هذا المنطلق العريض فى قوله تعالى: (وعمل صالحاً) تسعى الإنسانية إلى عمل الخير، وتتعدد وتتنوع صور هذا الخير مع سير الحياة.

١ ـ فقد يأخذ الإيمان صورة تنظيم سياسى، يوضح العلاقة بين الحاكم والمحكومين، وهى علاقة تقوم على تأكيد مبدأ الشورى، فالإسلام يرفض الاستبداد فى الحكم، ويرفض الرأى الواحد، ولكنه يدعو إلى أن يكون الحكم فى الإسلام قائماً على مبدأ الشورى.

ولهذا وجدت سورة كاملة فى القرآن الكريم، تسمى «سورة الشورى»، وهى سورة مكية الأمر الذى يؤكد أن مبدأ الشورى مقرر منذ السنوات الأولى لظهور دعوة الإسلام.

قال الله تعالى فى هذه السورة:

﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾
[الشورى: ٣٨]

فذكر الشورى بين عبادتين: الصلاة، والإنفاق فى سبيل الله، دلالة على أهميتها ومكانتها فى الدعوة الإسلامية.

٢ ـ وقد يأخذ الإيمان صورة الاستعداد العسكرى لحماية المجتمع الإسلامى ورد العدوان عنه: وفى هذا نقرأ قول الله تعالى:

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾
[الأنفال: ٦٠]

وقوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾
[الأنفال: ٦٥]

٣ ــ وقد يأخذ صورة تقسيم عمل تجمع فيه الأمة بين الاستعداد العسكرى والتخصص العلمى: وفى هذا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢]

نرى من ذلك أن الدعوة كانت متفاعلة تفاعلاً كاملاً مع قضايا الحياة، تحاول دائماً أن تحل متناقضاتها، وأن تقضى على نوازع الشر فيها، وتفتح للمجتمع دائماً طريقاً إلى التقدم والصعود، ويجمع هذا كله ما ذكره القرآن، مبيناً مهمة الرسول:

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]

ولنقف وقفة المتأمل لهذه الآية الكريمة، وكيف يجعل الله دينه ورسوله ودعوته ومهمته أن يضع عن الناس الآصار والأغلال لينطلقوا عاملين على طريق الدعوة والإيمان.

ونظرة فاحصة على ظروف الدعوة ومنهجها، نجد ما يلى:

أن الرسول الكريم ــ ﷺ ــ سلك المنهج الملائم، والأسلوب الأمثل فى هداية قومه، وتحلّى بالحكمة والخلق، وبالشجاعة والصمود والصبر الجميل فى علاج النفس البشرية، وإصلاح المجتمع، وأن دعوته ــ ﷺ ــ كانت تلتقى عند:

أ ـ الالتزام الفكرى والسلوكى رغم المساومات والتهديدات .

ب ـ الإيجابية ، فلم يكن ـ ﷺ ـ ليهدأ حتى يظفر بالنتيجة التى يريدها ، ولو أوذى فى سبيل ذلك أشد الإيذاء ، واضطر للخروج من وطنه .

جـ ـ استخدامه أسلوب التأليف بين طبقات المجتمع.

د ـ اختياره الوقت المناسب والمكان المناسب :

ولقد أعلن رسول الله ـ ﷺ ـ عن دعوته فى حفل عام ، دعا إليه ، واستمال الناس حوله ، ثم قال : « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقىّ ؟ قالوا : نعم . ما جرّبنا عليك كذباً ، قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » ومن غير شك فإن دعوة الجماعة أقوى أثراً ، وأقصر زمناً من دعوة الأفراد .

هـ ـ استمرار الدعوة ليلاً ونهاراً ، سرًّا وعلناً ، وما وسعت الظروف إلى ذلك من سبيل .

و ـ أسلوب الدعوة الإسلامية كان يقوم على عرض الحقائق.

ز ـ الأسلوب الدبلوماسى فى الدعوة كتابياً ، بالاتصال بالملوك والرؤساء واستقبال الوفود .

* إن الدعوة الإسلامية لم تكن مرتبطة بزمان أو مكان ، أو لغة أو جنس ، ولما كان مجالها واسعاً ، فإن الرسول ـ ﷺ ـ كان يجابه فى دعوته أنماطاً من الناس :

١ ـ الرجعية التى تتعصب لكل قديم دون فهم. وشعارها ـ كما ذكر القرآن :

﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٢]

٢ ـ الوجودية، التى تهزل فى نظرتها إلى الأمور.

﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة: ٦٥]

٣ ـ الفساد الاقتصادى:

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [المطففون: ١-٣].

٤ ـ الفساد الخلقى:

﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾

[الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]

٥ ـ الفوضى الفكرية والعقائدية:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾ [الحج: ٣]

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ * ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الحج: ٨، ٩]

* والباحث المطلع يستطيع أن يدرك أن رسول الله ـ ﷺ ـ تحرك من الناحية الفكرية فى مرحلتين:

ـ المرحلة الأولى: تفهيم مضمون دعوته جماعياً، حينما دعا قريشاً إلى وليمة فى بيته وبدأ يشرح لهم الدعوة.

ـ وفى المرحلة الثانية: خرج بهذه الكتلة وضرب بها المجتمع القديم، وبدأ يتعرض لعلاقات الناس، ويعيب آلهة قريش ويندد بعقائدهم، والآيات التى تدل على ذلك كثيرة.. ومن هنا بدأت قريش تكيد لرسول الله، وبدأ دور التفاعل ليبدأ الكفاح بين فِكْر وفكر، مثل أُبى بن خلف وهو ينكر البعث بعظام فى يده.

الفصل الثانى

القرآن فى مواكبة الدعوة سرًّا وجَهْرا

امتثل الرسول ـ ﷺ ـ لأمر ربه، حين أنزل عليه قوله تعالى: (يا أيها المدثّر قُمْ فَأَنْذِر) أى قم حذر الناس من عذاب الله إن لم يرجعوا عن غيهم، وما كان يعبد آباؤهم (ورَبَّكَ فَكَبِّر) خصّه بالتعظيم، ولا تُشرك معه فى ذلك غيره (وثيابَكَ فطهِّر) لتكون مستعداً للوقوف بين يدى الله، (والرُّجْزَ فاهْجُر) أى اهجر أسباب الرجز وهو العذاب، بأن تطيع الله وتنفذ أمره (ولا تَمْنُنْ تستكثر) ولا تهب أحداً هبة وأنت تطمع أن تستعيض من الموهوب أكثر مما وهبت، فهذا ليس من شأن الكرام (ولرَبِّكَ فاصْبِر) على ما سيلحقك من أذىٰ قومك حينما تدعوهم.

فقام ـ ﷺ ـ ودَعَا لعبادة الله أقواماً جُفاة، لا دين لهم إلاّ أن يسجدوا لأصنام لا تنفع ولا تضرّ، ولا حجة لهم إلاّ أنهم متبعون لما كان يعبد آباؤهم، وليس عندهم من مكارم الأخلاق إلاّ ما كان مرتبطا بالعزة والأنفة، فجاءهم رسول الله ـ ﷺ ـ بما لا يعرفونه، فذوو العقول السليمة بادروا الى التصديق وخلع الأوثان، ومن أعْمَته الرياسة أدبر واستكبر كى لا تسلب منه عظمته.

وأول من أجابه ـ من غير أهل بيته أبو بكر بن أبى قحافة بن عامر بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة التيمى القرشى، كان صديقاً لرسول الله

ـ ﷺ ـ قبل النبوة، يعلم ما اتصف به من مكارم الأخلاق، ولم يعهد عليه كذباً منذ اصطحبا، فأول ما أخبره برسالة الله أسرع بالتصديق، وقال: بأبى أنت وأمى، أهل الصدق أنت، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله.

كان رضى الله عنه صدراً معظماً فى قريش، على سعة من المال، وكرم الأخلاق، وكان من أعفّ الناس، سخيا يبذل المال محببا فى قومه حسن المجالسة، ولذلك كله كان من رسول الله ـ ﷺ ـ بمنزلة الوزير، فكان يستشيره فى أموره كلها، وقال فى حقه: **«ماذعوت أحداً إلى الإسلام إلاّ كانت له كبوة غير أبى بكر»**.

وكانت الدعوة إلى الإسلام سِرًّا حذرا من مفاجأة العرب بأمر شديد كهذا، فيصعب استسلامهم، فكان ـ ﷺ ـ لا يدعو إلاّ من يثق به.

ودَعَا أبو بكر إلى الإسلام من يثق به من رجال قريش، فأجابه جمع.. منهم عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس، بن عبد مناف الأموى القرشى. ولما علم عمه الحكم بإسلامه، أوثقه كتافا، وقال: ترغب عن دين آبائك إلى دين مستحدث؟! والله لا أحلّك حتى تدع ما أنت عليه، فقال عثمان: والله لا أدعه ولا أفارقه، فلما رأى الحكم صلابته فى الحق تركه.

● ـ ومنهم الزبير بن العوام بن خويلد بن عبد العزّى بن قصى القرشى، وأمه صفية بنت عبد المطلب وكان عم الزبير يرسل الدخان عليه وهو مقيد، ليرجع إلى دين آبائه، فقوّاه الله بالثبات، وكان شاباً لا يتجاوز سن الاحتلام.

ـ ومنهم سعد بن أبى وقاص، مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة

ابن كلاب الزهرى القرشى ، ولما علمت أمه حسنة بنت أبى سفيان بن أمية ، بإسلامه ، قالت له : يا سعد بلغنى أنك قد صبأت ، فوالله لا يظللنى سقف من الحر والبرد ، وأن الطعام والشراب علىّ حرام حتى تكفر بمحمد ، وبقيت كذلك ثلاثة أيام ، فجاء سعد إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وشكا إليه أمر أمه ، فنزل فى ذلك تعليا ، قول الله تعالى :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٨] .

وَصَّاه جل ذكره بوالديه ، وأمره بالإحسان إليهما مؤمنين كانا أو كافرين ، أما إذا دعواه للإشراك فالمعصية متحتمة ، لأن كل حق وإن عَظُم ساقط هنا ، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ثم قال : (إلىّ مَرْجِعُكُم) من آمن منكم ، ومن أشرك ، فأجازيكم حق جزائكم .

وفى هذه الآية فائدتان :

أولها : التنبيه على أن الجزاء إلى الله ، فلا تحدّث نفسك بجفوتهما لإشراكهما .

والثانية : الحض على الثبات فى دين الله لئلا ينال شرّ جزاء فى الأخرى .

● ومن السابقين الأولين : طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة التيمى القرشى ، وقد كان على اتصال بالرهبان ، وعلم منهم ببعث رسول جديد ، وصفته ، فلما دعاه أبو بكر وسمع من رسول الله ما نفعه الله به ، ورأى الدين متينا بعيداً عمّا عليه العرب من المثالب بادر إلى الإسلام .

● وممن سبقوا إلى الإسلام، صُهَيْب الرومى، وكان من الموالى، وقد تحمل من أجل إسلامه أشد أنواع العذاب، وعمار بن ياسر العنسى، وقد قال رضى الله عنه: «رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ وما معه الاّ خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر». وكذلك أسلم أبوه ياسر، وأمه سمية.

● ومن السابقين الأولين: عبد الله بن مسعود، وكان سادس من أسلم.

كان يرعى الغنم لبعض مشركى قريش، فلما رأى الآيات الباهرة، وما يدعو إليه ـ ﷺ ـ من مكارم الأخلاق، ترك عبادة الأوثان ولزم رسول الله، وكان ـ رضى الله عنه ـ كثير الدخول على الرسول، لا يحجب ويمشى أمامه، ويستره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، ويلبسه نعليه إذا قام، فإذا جلس أدخلهما فى ذراعيه.

● ومن السابقين الأولين: أبو ذر الغفارى، وكان من أعراب البادية، فصيحا حلو الحديث، لما بلغه مبعث رسول الله قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادى، فاعلم لى علم هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله ثم إئتنى، فانطلق الأخ حتى قدم مكة، وسمع من قول الرسول ـ ﷺ ـ ثم رجع إلى أبى ذر، فقال: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، ويقول كلاماً ماهو بالشِّعر، فقال: ماشفيتنى مما أردت، فتزود وحمل قربة له فيها ماء حتى قدم مكة، فأتى المسجد، فالتمس النبى ـ ﷺ ـ ولا يعرفه، وكره أن يسأل عنه، لما يعرفه من كراهة قريش لكل من يخاطب رسول الله، حتى إذا أدركه الله رآه علىّ، يعرف أنه غريب فأضافه عنده، ولم يسأل أحد منهما صاحبه عن شىء (على قاعدة الضيافة عند العرب، لا يسأل الضيف عن سبب قدومه إلا بعد ثلاث). فلما أصبح احتمل قربته وزاده إلى المسجد، وظل ذلك اليوم ولا يراه الرسول حتى أمسى، فعاد إلى مضجعه، فمرّ به علىّ فقال: أما آن للرجل أن يعرف منزله الذى أضيف به

بالأمس ؟ فأقامه فذهب معه لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء ، حتى إذا كان اليوم الثالث عاد عليّ مثل ذلك ، ثم قال له عليّ: ألا تحدثنى ماالذى أَقْدَمَكَ؟ قال : إن أعطيتنى عهداً وميثاقاً لترشدني فعلت ، ففعل ، فأخبره ، قال : فإنه حق وهو رسول الله ــ ﷺ ، فإذا أصبحت فاتبعنى فإنى إن رأيت شيئاً أخافه عليك قمت كأنى أريق الماء ، فإن مضيت فاتبعنى حتى تدخل مدخلى ففعل ، فانطلق يتبع أثره حتى دخل على النبى ــ ﷺ، ودخل معه ، فسمع من قوله ، وأسلم مكانه .

فقال له النبى ــ ﷺ ــ ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمرى ، قال : والذى نفسى بيده لأصرّخن بها بين ظهرانيهم ، فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته : «أشهد أن لا إله إلاّ الله ، وأن محمداً رسول الله» ، فقام القوم فضربوه حتى أضجعوه ، وأتى العباس فأكب عليه ، وقال : ويلكم أولستم تعلمون أنه من غفار؟ وأن طريق تجارتكم إلى الشام عليه ، فأنقذه منهم ، ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه وثاروا إليه ، فأكب العباس عليه(١) .

● ومن السابقين الأولين : سعيد بن زيد العدوى القرشى ، وزوجه فاطمة بنت الخطاب أخت عمر ، وأم الفضل لُبَابة بنت الحارث الهلالية ، زوج العباس بن عبد المطلب ، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم ، ابن عم رسول الله ــ ﷺ ، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى القرشى ، ابن عمة رسول الله ــ ﷺ ، وزوجه أم سلمة ، وعثمان بن مظعون الجمحى القرشى ، وأخواه قدامة وعبد الله ، والأرقم بن أبى الأرقم القرشى .

● ومن السابقين الأولين : خالد بن سعيد بن العاص(٢) بن أمية بن

---

(١)رواه البخارى .

(٢)وهو أول المهاجرين وفاة بالمدينة ، كما كان أول المسلمين الذين دفنوا بالبقيع .

عبد شمس الأموى القرشى. كان أبوه سيد قريش إذا اعْتَمّ لم يَعْتَمّ قرشى إجلالاً له. وكان خالد بن سعيد قد رأى فى منامه أنه سيقع فى هاوية، فأدركه رسول الله وخلّصه منها، فجاء إليه، وقال: إلام تدعو يا محمد؟ قال: أدعوك إلى عبادة الله وحده لاشريك له، وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لايسمع ولا يبصر، ولايضر ولاينفع، والإحسان إلى والديك، وألا تقتل ولدك خشية الفقر، وألا تقرب الفاحشة ما ظهر منها وما بطن، وألا تقتل نفسا حرّم الله قتلها إلا بالحق، وألا تقرب مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده، وأن توفى الكيل والميزان بالقسط، وأن تعدل فى قولك، ولو حكمت على ذوى قرباك، وأن توفى لمن عاهدت، فأسلم رضى الله عنه، وحيئنذ غضب عليه أبوه وآذاه حتى منعه القوت، فانصرف إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فكان يلزمه ويعيش معه، ويغيب عن أبيه فى ضواحى مكة.

ـ وأسلم بعده أخوه عمرو بن سعيد.

وهكذا دخل هؤلاء الأشراف فى دين الله، عن اقتناع وعن إيمان حقيقى، ولم يكن مع رسول الله ـ ﷺ ـ سيف يرغمهم به حتى يطيعوه صاغرين، وليس معه ما يرغب فيه حتى يترك هؤلاء العظماء آباءهم، وذوى الثروة منهم، ويتبعوا الرسول ليأكلوا من فضل ماله، بل كان الكثير منهم واسع الثروة أكثر منه، كأبى بكر وعثمان وخالد بن سعيد وغيرهم، والذين اتبعوه ـ ﷺ ـ من الموالى، اختاروا الأذى والجوع والمشقات مع اتباع الرسول، بحيث لو اتبعوا سادتهم لكانوا فى هذه الدنيا أهدأ بالاً، وأنعم عيشة، اللهم ليس ذلك إلا من هداية الله، وسطوع أنوار الدين عليهم، حتى أدركوا ماهم عليه من الضلالة، وعليه رسول الله من الهدى.

• الجهر بالدعوة

مضت ثلاث سنوات من النبوة (١). والنبى - ﷺ - لايظهر الدعوة، ولا يجهر بها فى مجامع قريش، ولم يكن المسلمون يتمكنون من إظهار عبادتهم حذراً من انتقام قريش.. فكان كل من أراد العبادة ذهب إلى شعاب مكة يصلى مستخفيا. ولما دخل فى الإسلام مايربو على الثلاثين، وكان من اللازم اجتماع الرسول بهم، لإرشادهم وتعليمهم، اختار لذلك دار الأرقم بن الأرقم، وظل يدعو إلى الإسلام سرًّا حتى جاءه الأمر بالجهر بالدعوة، فى قوله تعالى:

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤].

حينئذ بدل بالدعوة سرًّا الدعوة جهراً، امتثالاً لأمر ربه، ووثوقاً بوعده ونصره، فصعد رسول الله - ﷺ - على الصفا، فجعل ينادى:

«يا بنى فهر، يا بنى عدىّ، لبطون قريش، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر الخبر، فجاء أبو لهب بن عبد المطلب، وقريشا، فقال - ﷺ - «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقىّ؟ قالوا: نعم ماجرّبنا عليك كذبا، قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد، فقال أبو لهب: تباً لك، ألهذا جمّعْتَنا؟ فأنزل الحق سبحانه فى شأنه:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾ [المسد: ١ - ٥].

والقصد من حمل الحطب المشى بالنميمة، لأنها كانت تقول على رسول الله الأكاذيب فى نوادى النساء.

---

(١) الشيخ محمد الخضرى: نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين ص ٣٩

* ثم نزل عليه قول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] .

وهم بنو هاشم ، وبنو عبد المطلب ، وبنو نوفل ، وبنو شمس ، أولاد عبد مناف .

(واخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤْمِنِين ، فَإِنْ عَصَوْكَ) أى العشيرة والأقربون ، (فَقُلْ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ) .

* وتنفيذاً لأمر ربه ، جمعهم رسول الله — ﷺ — وقال لهم :

«إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى رسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس عامة ، والله لتموتُنّ كما تنامون ولتبعثُن كما تستيقظون ولتحاسبُن بما تعملون ، ولتجزُون بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً ، وإنها لجنةٌ أبداً ، أو لنارٌ أبداً » .

فتكلم القوم كلاماً ليّنا غير عمه أبى لهب ، الذى كان خصماً لدوداً ، فإنه قال : «خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب ، فإن سلّمتموه إذن ذللتم ، وإن مَنَعْتُموه قُتلتم » . فقال أبو طالب : « والله لَنمْنَعنّه ما بقينا » ، ثم انصرف الجميع .

* ظل رسول الله — ﷺ — يدعو الناس إلى دين الله ، فيدخل فيه من اهتدى وأنار الله بصيرته ، ويعزف عنه من ضَلّ من المشركين ، وقد واجه — ﷺ — ليس العزوف والكفر فحسب ، بل أخذ القرشيون يسخرون منه ، ويستهزئون به فى مجالسهم ، فكان إذا مرّ عليهم يقولون « هذا ابن أبى كبشة يُكلّم من السماء ، وهذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء ، لايزيدون على ذلك » .

فلما انتقل إلى مرحلة أعلى من مراحل دعوته، وهى مرحلة تحقير أصنامهم، وتسفيه عقولهم، وقوله ــ ﷺ : «والله لقد خالفتم دين أبيكم إبراهيم» ثارت فى رؤوسهم حمية الجاهلية غيرة على تلك الآلهة، التى كان يعبدها آباؤهم، فذهبوا إلى عمه أبى طالب ــ سيد بن هاشم، الذى أخذ على عاتقه حمايته من أيدى أعدائه، فطلبوا منه أن يُخْلى بينهم وبينه، أو يكفّه عما يقول: فردهم ردًّا جميلا، فانصرفوا عنه.

ومضى رسول الله ــ ﷺ ــ لما يريده، لايصدّه عن دعوته شىء، فتزايد الأمر، وأضمرت قريش الحقد والعداوة لرسول الله ــ ﷺ ــ وحث بعضهم بعضا على ذلك.

* ثم مشوا إلى أبى طالب مرة أخرى، وقالوا له: إن لك سنًّا وشرفا ومنزلة منّا، وإنّا قد طلبنا منك أن تنهى ابن أخيك فلم تنهه عنه، وإنا لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه عقولنا، وعَيْب آلهتنا، فإنهم كانوا إذا احتجوا بالتقليد فى استمرارهم على عدم اتباع الحق، ذمهم لعدم استعمال عقولهم فيما خُلقت له، وفى ذلك قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٤].

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [لقمان: ٢١].

وقال فى بيان حجتهم الداحضة:

﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣].

ولما شبههم بمن قبلهم من الأمم فى هذه المقالة الدالة على التعصب والعناد، قال:

﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾

[الزخرف : ٢٤] .

فلما تمسكوا بحجة التقليد لآبائهم جر ذلك إلى وصف آبائهم بعدم العقل وعدم الهداية ، فهاج ذلك أضغانهم ، وتحولوا إلى مرحلة الإيذاء العملى ، بعد أن كان إيذاؤهم منحصرا فى الإيذاء القولى .

* لقد تحمل الرسول ــ ﷺ ــ فى سبيل دعوته من الشدائد مالم يتحمله بشر ، ولكنه صبر كما صبر أولو العزم من الرسل .

* وكان من أعظم من أذى رسول الله ــ ﷺ ــ جماعة سُمُّوا لكثرة أذاهم بالمستهزئين .

ــ فأولهم وأشدهم بطشا أبو جهل عمرو بن هشام المخزومى القرشى .

تقول كتب السيرة : إنه قال يوما ، يا معشر قريش إنّ محمداً قد أتى اماترون من عيب دينكم ، وشتم آلهتكم ، وتسفيه أحلامكم ، وسب آبائكم ، إنى أعاهد الله لأجلسن لـه غداً بحجر لا أطيق حمله ، فإذا سجد فى صلاته رضخت به رأسه فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى ، فليصنع به بعد ذلك بنو عبد مناف مابدا لهم ، فلما أصبح أخذ حجراً ــ كما وصف ــ ثم جلس لرسول الله ينتظره ، وغَدَا ﷺ ، كما كان يغدو إلى صلاته ، وقريش فى أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل ، فلما سجد ــ عليه الصلاة والسلام ــ احتمل أبو جهل الحجر ، وأقبل نحوه حتى إذا دنا منه أصبح منهزما ، منتقعا لونه من الفزع ، ورمى حجره من يده ، فقام إليه رجال من قريش ، فقالوا : مالك يا أبا الحَكَم ؟ قال : قمت إليه لأفعل ماقلت لكم ، فلما دنوت منه عَرَضَ لى فحل من الإبل ، والله ما رأيت مثله قط هَمَّ بى أن يأكلنى .

فلما ذُكِرَ ذلك لرسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ذاك جبريل ولو دنا لأخذه».

وكان أبو جهل كثيراً ما ينهى الرسول عن صلاته فى البيت، فقال له مرة بعد أن رآه يصلى: ألم أنْهَكَ عن هذا؟ فأغلظ له رسول الله القول وهدده، فقال: أتهددنى وأنا أكثر أهل الوادى ناديا، فأنزل الله تهديداً له فى آخر سورة اقرأ:

﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ * كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴾ [الآيات: ١٥ - ١٩].

ومن أذيته للرسول ـ ﷺ ـ ما حكاه عبد الله بن مسعود، فيما رواه البخارى، قال: «كنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ فى المسجد، وهو يصلى، فقال أبو جهل: ألا رجل يقوم إلى فرث جزور (الأحشاء الداخلية) بنى فلان فيلقيه على محمد وهو ساجد؟ فقام عقبة بن أبى معيط بن أبى عمرو بن أمية ابن عبد شمس، وجاء بذلك الفرث، فألقاه على النبى ـ ﷺ ـ وهو ساجد، فلم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على إلقائه عنه لضعفهم عن مقاومة عدوهم، ولم يزل ـ ﷺ ـ ساجداً حتى جاءت فاطمة بنته، فأخذت القذر ورمته، فلما قام دعا ـ ﷺ ـ على من صنع هذا الصنع القبيح، فقال: اللهم عليك بالملأ من قريش، وسمَّى أقواماً. قال ابن مسعود: فرأيتهم قُتِلوا يوم بدر.

* ومن جماعة المستهزئين: «أبو لهب بن عبد المطلب» عم رسول الله ـ ﷺ، كان أشد عليه من الأباعد، فكان يرمى القذر على بابه، لأنه كان جاراً له، فكان الرسول يطرحه ويقول: يابنى عبد مناف أى جوار هذا؟

وكانت تشاركه فى قبيح عمله زوجه أم جميلة بنت حرب بن أمية، فكانت كثيراً ماتسبّ رسول الله ـ ﷺ ـ وتتكلم فيه بالنمائم، وخصوصا بعد أن نزل فيها وفى زوجها سورة المسد.

* ومن المستهزئين : «عقبة بن أبي معيط» كان الجار الثانى لرسول الله ، وكان يعمل معه ـ كأبى لهب ، صنع مرة وليمة ودعا لها كبراء قريش ، وفيهم رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : والله لا آكل طعامكَ حتى تؤمن بالله فنشهد ، فبلغ ذلك أُبَىّ بن خَلَف الجمحى القرشى ، وكان صديقاً له ، فقال : ماشىء بلغنى عنك ؟ قال لا شىء ، دخل منزلى رجل شريف ، فأبى أن يأكل طعامى حتى أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتى . ولم يطعم فشهدت له ، قال أبىّ : وجهى من وجهك حرام إن لقيت محمداً فلم تطأ عنقه وتبزق فى وجهه ، وتلطم عينه ، فلما رأى عقبة رسول الله ، فعل به ذلك ، فأنزل الله سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴾
[الفرقان : ٢٧ - ٢٩] .

ومن أشد ماصنعه ذلك الشقى برسول الله ـ ﷺ ـ ماروواه البخارى فى صحيحه ، قال : «بينما النبى ـ ﷺ ـ يصلى فى حِجْر الكعبة ، إذا أقبل عقبة بن أبى معيط ، فوضع ثوبه فى عنق رسول الله ـ ﷺ ـ فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ، ودفعه عن النبى ـ ﷺ ـ وقال :

﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [غافر : ٢٨] .

* ومن جماعة المستهزئين : العاص بن وائل السهمى القرشى ، والد عمرو بن العاص ، كان شديد العداوة لرسول الله ، وكان يقول : غَرَّ محمد وأصحابه أن يحيوا بعد الموت ، والله ما يهلكنا إلاّ الدهر ، فأنزل الحق سبحانه ردًّا عليه فى دعواه :

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾
[الجاثية : ٢٤] .

وكان عليه دين لخبّاب بن الأرتّ أحد رجال المسلمين، فتقاضاه إياه، فقال العاص: أليس يزعم محمد هذا الذى أنت على دينه أن فى الجنّة مايبتغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم؟ قال خبّاب: بلَى، قال: فأنظرنى إلى هذا اليوم فسأوتى مالا وولداً وأقضيك دينك، فأنزل الله سبحانه:

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۞ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ۞ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ۞ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ [مريم: ٧٧ - ٨٠].

* ومن جماعة المستهزئين: الأسود بن عبد يغوث الزهرى القرشى، من بنى زهرة، أخوال رسول الله - ﷺ - كان إذا رأى أصحاب النبى مقبلين، يقول: قد جاءكم ملوك الأرض، استهزاء بهم لأنهم كانوا متقشفين، ثيابهم رثة، وعَيْشَهم خَشِن، وكان يقول لرسول الله سخرية: أما كُلّمت اليوم من السماء؟

* ومنهم: الأسود بن عبد المطلب الأسدى، ابن عم خديجة، كان هو وأصحابه إذا مرّ عليهم المسلمون يتغامزون، وفيهم نزل قول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۞ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۞ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ۞ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾ [المطففون: ٢٩ - ٣٢].

* ومنهم الوليد بن المغيرة عَمّ أبى جهل، كان من عظماء قريش، وفى سعة من العيش، سمع القرآن مرة من رسول الله - ﷺ - فقال لقومه بنى مخزوم:

«والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ماهو من كلام الإنس، ولامن كلام الجن، وإنّ له حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يُعْلى».

فقالت قريش : صَبَأ ـ أى خرج من دينه إلى دين آخر ـ والله الوليد ، لتصبأن قريش كلها ، فقال أبو جهل : أنا أَكْفِيكُمُوه ، فتوجد وقعد إليه حزينا ، وكلمه بما أحماه ، فقام فأتاهم ، فقال : تزعمون أن محمداً مجنون ، فهل يهوس ؟ وتقولون إنه كاهن فهل رأيتموه يتكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط ؟ وتزعمون أنه كذّاب ، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ؟ فقالوا فى كل ذلك اللهم لا ، ثم قالوا فما هو؟ ففكر قليلاً ، ثم قال : ماهو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ فارتجّ النادى فرحا ، فأنزل الله فى شأن الوليد ـ مخاطباً الرسول ـ ﷺ :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المدثر: ١١ - ٢٦].

* وأنزل الحق فيه أيضا : (وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ) كثير الحلف ، وكفى بهذا زاجراً لمن اعتاد الحلف (مَهِين) حقير، وأراد به الكذاب لأنه حقير فى نفسه (هَمَّازٍ) عياب طعام (مَشَّاء بِنَمِيم) ينقل الأحاديث للإفساد بين الناس (مَنَّاعٍ للخَيْرِ مُعْتَدٍ أثيم عُتُلٍ) غليظ جاف (بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيم) دخيل .

﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ [القلم: ١٣-١٦]

كناية عن الإذلال والتحقير، لأن الوجه أكرم عضو والأنف أشرف ما فيه

* ومن المستهزئين .. النضر بن الحارث العبدرى ، من بنى عبد الدار بن قصى ، كان إذا جلس رسول الله مجلساً للناس يحدثهم ويذكّرهم ما أصاب مَنْ قبلهم ، قال النضر: هلموا يا معشر قريش فإنّى أحسنُ منه حديثاً ، ثم

يحدث عن ملوك الفرس، وكان يعلم أحاديثهم، ويقول: ما أحاديث محمد إلا أساطير الأولين، فأنزل الله سبحانه:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۞ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان: ٦، ٧]

وكل هؤلاء انتقم الله منهم، كما قال تعالى فى الذكر الحكيم:

﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

[الحجر: ٩٥، ٩٦]

وقد وضع الله ــ جل ذكره ــ الوعد فى صورة الماضى للتحقق من وقوعه، لأن الآية مكية، وهلاك هؤلاء كان بعد هجرة الرسول ــ ﷺ ــ فمنهم من قتل كأبى جهل، والنضر بن الحارث، وعقبة بن أبى معيط ــ كما سنذكر إن شاء الله ــ ومنهم من ابتلاه بأمراض شديدة فهلك منها كأبى لهب، والعاص بن وائل، والوليد بن المغيرة.

* وكما أوذى الرسول ــ ﷺ ــ أوذى أصحابه لاتباعهم له، خصوصاً من ليس له عشيرة تحميه، وترد كيد عدوه عنه، وكل هذا الأذى كان حلواً فى أعينهم ما دام فيه رضا الله، فلم يُفْتَنوا عن دينهم، بل ثبتهم الله حتى أتم أمره على أيديهم، وصاروا ملوك الأرض بعد أن كانوا مستضعفين فيها. كما قال سبحانه:

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾

[القصص: ٥]

وقد حقق الله ما أراد.

* من الذين أوذوا فى الله، بلال بن رباح، كان مملوكاً لأُميّة بن خلف الجمحى القرشى، فكان يجعل فى عنقه حبلاً، أو يدفعه إلى الصبيان يلعبون به، وهو يقول: أَحَدٌ أَحَدٌ، لم يشغله ما هو فيه عن توحيد الله.

وكان أمية يخرج به فى وقت الظهيرة فى الرمضاء، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزّى، فيقول: أَحَدٌ أَحَدٌ.

* مرّ به أبو بكر يوماً فقال يا أميّة، أما تتقى الله فى هذا المسكين، حتى متى تعذّبه؟.

قال: أنت أفسدته فأنقذه مما ترى، فاشتراه منه وأعتقه، فأنزل الله تعالى فى أبى بكر وفى أمية:

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾

[الليل: ١٤ــ٢١]

يرضى بما يعطيه الله فى الأخرى جزاء أعماله، وقد نبه الله تعالى على أن بذل الصدّيق ماله فى شرائه وعتقه لم يكن إلا ابتغاء وجه ربه.

وفى الصدّيق أيضاً نزل قول الحق سبحانه:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾

إلى قوله تعالى:

﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾

وكفى بهذا شرفاً وفضلاً للصديق ــ رضى الله عنه ــ وأرضاه .

* ومن الذين أوذوا فى الله : حمامة أم بلال ، وعامر بن فهيرة ، مولى الطفيل بن عبد الله ، وكان يُعذب حتى لا يدرى ما يقول ، وأبوفكيهة ، وكان عبداً لصفوان بن أمية بن خلف ، وامرأة تسمى زنّيرة ، عذبت فى الله حتى عميت ، فلم يزدها ذلك إلا إيماناً .

وكان أبو جهل يقول : ألا تعجبون لهؤلاء وأتباعهم ، لو كان ما أتى به محمد خيراً ما سبقونا إليه ، أفتسبقنا زنّيرة إلى رشد ، فأنزل الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [الأحقاف : ١١]

وممن عُذّب فى الله عمار بن ياسر ، وأخوه وأبوه وأمه ، كانوا يُعَذّبون بالنار ، فمرّ بهم رسول الله ــ ﷺ ، فقال : « صبراً آل ياسر فوعدكن الجنة ، اللهم اغفر لآل ياسر » .

وقد فعلت ، أما أبو عمار وأمه فماتا تحت العذاب ، رحمهما الله ، وأما هو فثقل عليه العذاب ، فقال بلسانه كلمة الكفر ، فإن أبا جهل كان يجعل له دروعاً من الحديد فى اليوم الصائف ، ويلبسه إياها ، فقال المسلمون : كفَرَ عمّار ، فقال النبى ــ ﷺ ــ عمّار ملىء إيماناً من فرقه إلى قدمه ، وأنزل الله ــ سبحانه ــ فى شأنه استثناء فى حكم المرتد :

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل : ١٠٦]

* وممن أوذى فى الله خباب بن الأرت ، سُبىَ فى الجاهلية ، فاشترته أم أنمار ، وكان حداداً وكان النبى ــ ﷺ ــ يألفه قبل النبوة ، فلما شرفه الله

بها أسلم خباب ، فكانت مولاته تعذبه بالنار، فتأتى بالحديدة المحماة فتجعلها على ظهره ليكفر، فلا يزيده ذلك إلا إيماناً .

وجاء خباب مرة إلى رسول الله ، وهو متوسدٌ بردة فى ظل الكعبة ، فقال : يا رسول الله : ألا تدعو الله لنا؟ فقعد ـ عليه الصلاة والسلام ـ محمرًّا وجهه ، فقال : إنه كان مَنْ قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمة من لحم وعصب ، ويوضع المنشار على فرق رأس أحدهم فيُشق ، ما يصرفه ذلك عن دينه . وليظهرن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلاّ الله والذئب على غنمه .

قال ذلك ـ ﷺ ، وهو فى هذه الحال الشديدة لا يتصور فيها أعقل العقلاء ، وأنبل النبلاء قوة منتظرة ، أو سعادة مستقبلة ، اللهم إلا أن ذلك وحى يوحى إليه ، فأنزل الله تعالى تثبيتاً للمؤمنين :

﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾
[العنكبوت : ١ ـ ٣]

* وممن أوذى فى الله : أبو بكر الصديق ، ولما اشتد عليه الأذى أجمع أمره على الهجرة من مكة إلى جهة الحبشة ، فخرج حتى أتى برك الغماد ، فلقيه ابن الدغنة ، وهو سيد قبيلة عظيمة ، اسمها القارة ، فقال : إلى أين يا أبا بكر؟ فقال : أخرجنى قومى ، فأريد أن أسيح فى الأرض وأعبد ربى ، فقال ابن الدغنة ، مثلك يا أبا بكر لا يخرج ، إنك تُكْسِب المعدوم ، وتصل الرحم ، وتحمل الكَّل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فإنا لك جار ، فارجع واعبد ربك ببلدك ، فرجع وارتحل ابن الدغنة معه ، وطاف فى أشراف قريش ، فقال لهم : أبوبكر لا يخرج مثله ، أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم ، ويصل

الرحم، ويحمل الكَّل ويقرى الضيف، ويعين على نوائب الحق؟ فلم تكذّب قريش بجوار ابن الدغنة وقالوا له: مُرْ أبا بكر فليعبد ربه في داره، فيها ما شاء، وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن، فإنا نخشى أن يَفْتِنَ نساءنا وأبناءنا.

فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فلبث بذلك يعبد ربَّه في داره، ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا لأبي بكر.. فابتنى مسجداً بفناء داره، وكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن، فينقذف عليه نساءُ المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه، وينظرون إليه، وكان رجلاً بكاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش، فأرسلوا إلى ابن الدغنة، فقدم عليهم، فقالوا: إنا كنا قد أجرنا أبا بكر بجوارك، على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك، فابتنى مسجداً بفناء داره، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه بفناء داره فعل، وإن أبَى إلاّ أن يعلن ذلك، فسَلْه أن يردّ إليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان، فأتى ابن الدغنة أبا بكر فقال: قد علمت الذي عاقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترجع إليّ ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له..

فقال أبو بكر: فإني أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله(١)

وكان ذلك سبباً لإيصال أذى عظيم إلى أبي بكر — رضي الله عنه.

* وجملة ما أردنا عرضه، أنه لم يَخْلُ أحد من المسلمين من أذية لحقته، ولكن كل ذلك ضاع سدى تلقاء ثباتهم، وعظيم إيمانهم، فإنهم لم يُسْلِموا

---

(١) رواه البخاري.

لغرض دنيوى يرجون حصوله فيسهل إرجاعهم ، ولكن وفقهم الله لإدراك حقيقة الإيمان ، فرأوا كل شيء دونه سهلاً .

* اجتماع كفار قريش للشورى :

لما أيقن كفار قريش أن الأذى لم يُجدهم نفعاً ، بل كلما زادوا المسلمين أذى ازدادوا يقيناً وإيماناً ، اجتمعوا للشورى فيما بينهم ، قال لهم عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً مطاعاً فى قومه : يا معشر قريش .. ألا أقوم لمحمد فأكلّمه ، وأعرض عليه أموراً عَلّه يقبل بعضها فنعطيه إياها ويكف عنا ؟..

فقالوا : يا أبا الوليد .. قُمْ إليه فكلّمه ، فذهب إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يصلى فى المسجد ، وقال : يابن أخى .. إنك منا حيث قد علمت من خيارنا حسباً ونسباً ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرّقت به جماعتهم ، وسفّهت أحلامهم ، وعبت آلهتم . فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها ..

فقال ـ ﷺ ـ قُل يا أبا الوليد .. أسمع .. فلما فرغ أبو الوليد من مقالته التى عرض فيها أمور الدنيا ، قال ﷺ ، فاسمع منى ، فقرأ أول سورة فُصِّلت :

﴿ حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ * قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ [فصلت الآيات : ١ـ٦]

إلى قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾

[فصلت الآيات : ١٣، ١٤]

وهنا وضع عتبة يده على فِي الرسول وناشده الرحم أنْ يكف عن ذلك. فلما رجع عُتبة سألوه، فقال: والله.. لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالكهانة، ولا بالسحر، يا معشر قريش أطيعونى فاجعلوها لى، خلّوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لكلامه الذى سمعت نبأ، فإن تُصبه العرب، فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فعزّه عزّكم، فقالوا: لقد سحرك محمد، فقال: هذا رأيى..

* ثم عرضوا عليه بعد ذلك أن يشاركهم فى عبادتهم، ويشاركوه فى عبادته، فأنزل الله تعالى فى ذلك:

(قُلْ يا أيُّها الكافرون...) السورة.

فلا تتوهموا أن أُجيبكم لطلبكم من الإشراك بالله، فأيسوا منه.

* وطلبوا بعد ذلك أن ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذم الأوثان، والوعيد الشديد، فيأتى بقرآن غيره أو يبدله، فأنزل الله جواباً لهم:

﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ ﴾

[يونس: ١٥]

* ولما رأىٰ المشركون أن هذه المطالب التى يعرضونها لا تقبل منهم، أرادوا أن يدخلوا فى باب آخر وهو تعجيز الرسول بطلب الآيات، فاجتمعوا وقالوا: إن كنت صادقاً فأرنا آية نطلبها منك، وهى أن تَشُقَّ لنا القمر فرقتين، فأعطاه الله هذه المعجزة، وانشق القمر فرقتين، فقال رسول الله ـ ﷺ: اشهدوا.

ـ وهذه القصة رواها ابن مسعود، وابن عباس، وغيرهما، ورواها عنهم

جمع غفير حتى صارت الحديث المتواتر، وقد سجل القرآن أحداثها فى سورة القمر، فقال تعالى:

(اقتربت السَّاعةُ وانْشَقّ القَمَرُ)

فحينا رأى المعاندون هذه الآية الكبرى، قال بعضهم: لقد سحركم ابن أبى كبشة، فأنزل الله فيهم:

﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر: ٢]

* ثم سألوا الرسول ـ ﷺ ـ بعد ذلك آيات لا يقصدون بذلك إلا التعنت والعناد. فلم يجبهم إلا بما أمره الله به:

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٣]

لأن الله علم ما تكنه جوانحهم من التعصب والعناد، فلا يؤمنون مهما جاءهم من البينات كما قال جل ذكره:

﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٩]

وكيف يُرْجَى الخيرُ ممن قالوا، كما ورد فى سورة الأنفال:

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال الآية: ٣٢]

ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه، وهذه هى سنة من سنن الأنبياء، إذا رأوا من طلاب الآيات عناداً، وأنهم يطلبونها تعجيزاً، لا يسألون الله إنفاذ هذه الآيات كى لا يحل بقومهم الهلاك، كما حصل لعاد وثمود وغيرهم. وهذا هو المراد من قوله تعالى:

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [الإسراء: ٥٩]

ولما رأى المشركون ضَعْفَهم عن مقاومة المسلمين بالبرهان، تَحَوَّلوا إلى سياسة القوة، التى اختارها قوم إبراهيم عندما عجزوا عنه حيث قالوا:

﴿ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ [الأنبياء: ٦٨]

أما هؤلاء فازدادوا بالأذى على كل من أسلم، رجاء صدهم عن اتّباع الرسول ـ ﷺ ـ ولم يتركوا بَاباً إلا ولجوه، فقال ﷺ لأصحابه: «تَفَرَّقوا فى الأَرْضِ فإنَّ الله سيجمعكم»، فسألوه عن الوجه، فأشار إلى الحبشة.

— ٢ —

الهجرة إلى الحبشة

استمع الناس إلى قول رسول الله ـ ﷺ ـ فتجهز ناس للخروج من ديارهم وأموالهم فراراً بدينهم، وهذه هى أول هجرة من مكة، وكان عدة أصحابها عشرة رجال، وخمس نسوة، وجلّهم من قريش، وكان عليهم ـ فيما روى ابن هشام: «عثمان بن مظعون». فساروا على بركة الله، ولما انتهوا إلى البحر استأجروا سفينة أوصلتهم إلى مقصدهم، فأقاموا آمنين من أذى يلحق بهم من المشركين، ولم يبق مع النبى ـ ﷺ ـ إلا القليل.

بيد أنهم رجعوا إلى مكة بعد ثلاثة أشهر، حيث لم تتيسر لهم الإقامة فى الحبشة. لأنهم قليلو العدد، وفى الكثرة بعضُ الأنس.

أضف إلى ذلك أنهم أشراف قريش، ومعهم نساؤهم، وهؤلاء لا يطيب لهم عيش فى دار غربة بهذه الحالة.

وقد ذكر بعض المؤرخين حكاية، وجعلوها سبباً فى رجوع مهاجرى الحبشة، وهى أنه بلغهم إسلام قومهم حينما قرأ عليهم الرسول ـ ﷺ ـ سورة النجم، وتكلّم فيها كلاماً حسناً على آلهتهم، حيث قال بعد:

﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ (١)﴾ [النجم: ١٩، ٢٠]

---

(١) النجم الآية ٢٠.

تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى.. فسجدوا إعظاماً لذلك وفرحاً..

والحقيقة أن قصة الغرانيق(١) هذه موضوعة، وغير ثابتة من جهة النقل، وهى مما لا تجوز روايته إلاّ عن قليلى الإدراك، الذين ينقلون كل ما وجدوا، غير متثبّتين من صحته.

وها نحن أولاء نسوق الأدلة النقلية والعقلية على بطلان ما ذُكِر:

أما الحديث، فسنده ومتنه قلقان، فالسند قال فيه القاضى عياض- فى الشفا:

«لم يخرّجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم».

وأما المتن: فليس أصحاب رسول الله -ﷺ- ولا المشركون مجانين حتى يسمعوا مدحاً أثناء ذمّ، ويجوز ذلك عليهم، فبعد ذكر الأصنام قال:

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾

[النجم: ٢٣]

فالكلام غير منتظم، ولو كان ذلك قد حصل لاتّخذه الكفار عليه حجة يحاجونه بها وقت الخصام، وهم من تعرفهم من العناد فيما ليس فيه أدنى حجة، فكيف بهذه؟.

وليس ذلك القيل أقل من تحويل القبلة إلى الكعبة، وهنا قالوا فيه ما قالوا حتى سماهم الله سفهاء وأنزل فيهم:

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ [البقرة: ١٤٢]

ولكن لم يُسْمع عن أى واحد من رجالاتهم، والمتصدرين للعناد منهم أن

(١) الغرانيق جمع غرنوق وهى الطيور ويراد بها الملائكة.

قال : مالك ذممت آلهتنا بعد أن مدحتها، وكان ذلك أولى لهم من تجريد السيوف ، وبذل مهج الرجال .

* على أن المؤرخين الذين ينقلون هذه العبارة ، ويجعلونها سبباً لرجوع مهاجرى الحبشة ، يقولون أثناء كلامهم ــ إن الهجرة كانت فى رجب ، والرجوع كان فى شوال، ونزول سورة النجم كان فى رمضان ، فالمدة بين نزول السورة ، ورجوع المهاجرين شهر واحد .. والمتأمل أدنى تأمل ، يرى أن الشهر كان لا يكفى فى ذلك الزمن للذهاب من مكة إلى الحبشة، ثم الإياب منها ، لأنه لم يكن إذ ذاك مراكب بخارية تسهل السير فى البحر، ولا برق يوصّل خبر إسلام قريش لمن بالحبشة ، فلا غرابة بعد ذلك أن قلنا (١) :

«إن هذه الخرافة من موضوعات أهل الأهواء ، الذين ابْتُلى بهم هذا الدين ، ولكن الحمد لله فقد مَنَّ علينا بحفظ كتابنا المجيد ، الذى يحكم بيننا وبين كل مفتر كذّاب .. ففى السورة نفسها (وما يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى) والذى يلقيه الشيطان من أقبح ما يروى ، فكيف يقول رسول الله ، أو يجرى على لسانه مما يبث الشكوك فى الوحى؟ الأمر الذى يريده السفهاء ردّ الله كيدهم فى نحرهم .

* إن الذى ورد فى الصحيح ، فى موضوع هذا السجود ، ما رواه عبد الله ابن مسعود ، أن النبى ــ ﷺ ــ قرأ « والنجم » فسجد وسجد من كان معه إلا رجلاً أخذ كفًّا من حصى وضعه على جبهته ، وقال : يكفينى هذا ، فرأيته قتل بعد كافراً .

وليس فى هذا الحديث أى دلالة على أن الذين سجدوا معه مشركون ، بل الذى يفيده قوله : « فرأيته قتل بعد كافراً » أنه كان مسلماً ثم رأيته ارتد ،

---

(١) محمد الخضرى : نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين ص ٦٠، ٦١ .

وهذا ما حصل من بعض ضعاف القلوب الذين لم يتحملوا الأذى فكفروا .

هذا ولما رجع مهاجرو الحبشة إلى مكة ، لم يتمكن من الدخول إليها إلاّ مَنْ وجد له مُجيراً . فدخل أبوسلمة فى جوار خاله أبى طالب ، ودخل عثمان بن مظعون فى جوار الوليد بن المغيرة . وقد ردّ عليه جواره حينما رأى ما صنعه بالمسلمين ، فلم يرض أن يكون مرتاحاً وإخوانه معذبون .

ولما ضاقت الحيل بكفار مكة ، عرضوا على بنى عبد مناف الذين منهم الرسول — ﷺ — ديّة مضاعفة ، ويسلمونه ، فأبوا عليهم ذلك . ثم عرضوا على أبى طالب أن يعطوه سيداً من شبانهم يتبنّاه ، ويسلم إليهم ابن أخيه ، فقال : عجباً لكم تعطونى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه ؟ .

فلما رأوا ذلك ، أجمعوا أمرهم على منابذة بنى هاشم وبنى المطلب ولَدَىْ عبد مناف واخراجهم من مكة ، والتضييق عليهم ، فلا يبيعونهم شيئاً ، ولا يبتاعون منهم حتى يسلّموا محمداً للقتل ، وكتبوا بذلك صحيفة ، وضعوها فى جوف الكعبة ، فانحاز بنو هاشم بسبب ذلك فى شِعَب أبى طالب ، ودخل معهم بنو المطّلب سواء فى ذلك ، مُسْلمهم وكافرهم ما عدا أبا لهب ، فإنه كان من قريش ، وانخذل عنهم بنو عميهم عبد شمس ونوفل ابنى عبد مناف ، فجهد القوم حتى كانوا يأكلون ورق الشجر ، وكان أعداؤهم يمنعون التجار من مبايعتهم .

وبعد دخول رسول الله — ﷺ — والمؤمنين بدعوته الشّعب ، رأى أن يهاجر المسلمون — مرة أخرى — للحبشة ، حتى يساعد بعضهم بعضاً على الاغتراب ، فهاجر معظمهم ، وكانوا نحو ثلاثة وثمانين رجلاً ، وثمانى عشرة امرأة . وكان من الرجال جعفر بن أبى طالب وزوجه أسماء بنت عميس ، والمقداد بن الأسود ، وعبد الله بن مسعود ، وعبيد الله بن جحش وامرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان ، وتوجه لهم الذين أسلموا من جهة اليمن .

ولما رأت قريش ذلك.. أرسلت فى أثرهم عمرو بن العاص، وعمارة بن الوليد بهدايا إلى النجاشى، ليسلّم هؤلاء المهاجرين، فرجعا شرّ رجعة، ولم ينالا من النجاشى إلا إهانة لما خاطبوه به من إخفار ذمته فى قوم لاذوا به. وفى ذلك نزل قول الحق سبحانه:

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۞ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۞ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ٨٢ــ٨٥]

وقد اتفق علماء التفسير والأخبار على أن هذه الآيات نزلت فى نجاشى الحبشة وأصحابه المؤمنين، فقولهم: (ومَالَنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق) يُعَدّ شهادة عظيمة للإسلام ونبى الإسلام، وكتاب الإسلام، كما يعد دليلاً على صدق الإيمان، والدخول فى الإسلام.

ويؤيد هذا الرأى ويدعمه، ما كتبه «النجاشى الأصحم بن أبجر» فى رسالته إلى رسول الله ــ ﷺ، كتب يقول:

«إلى محمد رسول الله.. من النجاشى الأصحم بن أبجر».

سلام عليك يا نبى الله، من الله ورحمته وبركاته، لا إله إلاّ الله، هو الذى هدانى إلى الإسلام، فقد بلغنى كتابك يا رسول الله بما ذكرت من أمر عيسى، فوربّ السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقرّبنا ابن عمّك (جعفر) وأصحابه، فأشهد أنك رسول

الله صادقاً مصدقاً، وقد بايعتك، وبايعت ابن عمّك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين، وبعثت إليك يا نبى الله بأريحا بن الأصحم بن أبجر. فإنى لا أملك إلاّ نفسى، وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله» (١).

وروى أبو داود: أن النجاشي قال: «أشهد أنه رسول الله، وأنه الذى بشّر به عيسى ابن مريم» (٢).

وقد وفد على رسول الله ـ ﷺ ـ بعد الخروج من الشّعب وفد من نصارى نجران، بلغهم خبره من مهاجرى الحبشة، فسارعوا بالقدوم عليه، حتى يروا صفاته مع ما ذكر منها فى كتبهم، وكانوا عشرين رجلاً، أو قريباً من ذلك، فقرأ عليهم القرآن فآمنوا كلهم، فقال لهم أبوجهل: ما رأينا ركباً أحمق منكم، أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل فصبأتم، فقالوا: سلام عليكم لا نجاهلكم، لكم ما أنتم عليه ولنا ما اخترناه، فأنزل الله سبحانه وتعالى فى ذلك:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ * أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٢ـ٥٥]

وقد كان اهل مكة حينما عجزوا عن أمر رسول الله ـ ﷺ ـ ولم يتمكنوا من مقارعة الحجة بالحجة رموه بالسحر مرة، والكذب أخرى، وبالجنون طوراً، وبالكهانة تارة، كل ذلك شأن العاجز المعاند، الذى لا يستحى لمزيد عناده أن يقول:

﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢]

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج٣ ص٨٤.
(٢) سنن أبى داود ١٨٩/٢.

— ٣ —

* التحول الخطير فى الصراع :

لقد ظلت جُل أعمال المقاومة القرشية للدعوة الإسلامية ، وحامل لوائها ، منذ بدأت — مقتصرة على حرب الدعاية ، والتضييق ، والإعنات ، والمقاطعة . وكان كفار مكة يظنون أن سلوك هذا السبيل كفيل وحده بأن يحقق لهم ما يصبون إليه من تفرّق الناس عن النبى — ﷺ — وانفضاض أتباعه من حوله ، وتركه ودعوته وحيدا فى الميدان ، مما يحقق لها الظفر به ، والقضاء عليه منفردًا

بيد أنه فى أواخر سنوات الصراع ، حدث تطور سياسى خطير، أَقَضّ مضجع مشركى مكة وأثبت لهم خطأ ظنهم ، وجعلهم يغيّرون من نظرتهم إلى المشكلة ، وهذا التطور هو نجاح النبى — ﷺ — فى الخروج بدعوته من نطاق مكة ، والاتصال بأهل يثرب ، وإقناع الكثير منهم باعتناق الإسلام ، ثم إقامة حلف عسكرى بينه وبينهم ، يمنعونه بموجبه ، كما يمنعون أنفسهم ونساءهم وأولادهم

فقد كان من عادة رسول الله — ﷺ — أن يغتنم فرصة كل موسم من مواسم الحج ، فيعرض نفسه على قبائل العرب ، ويشرح لهم دعوته وأهدافها ، ويدعوهم إلى الإسلام ، فكان بعضهم يردّ ردًا جميلا ، وبعضهم يرد ردًا قبيحا ، وكان من أقبح القبائل ردًا بنو حنيفة رهط مُسَيْلمة الكذاب . وطلب

منه بنو عامر إن هم آمنوا به أن يجعل لهم أمر الرياسة من بعده، فقال لهم: الأمر لله يضعه حيث يشاء

وأثناء هذا العرض، اتصل ببعض رجالات قبيلتى الأوس، والخزرج من سكان يثرب، وهم من قبائل قحطان، أقوى القبائل العربية وأمنعها فى الجزيرة، وكان بين أولادهما من العداوة ما يجعل الحرب لا تضع أوزارها بين الفريقين، فكانوا دائما فى شقاق ونزاع

وكان يجاورهم فى يثرب أقوام من اليهود، وهم بنو قينقاع، وبنو قريظة، وبنو النضير، وكان لهم الغلبة على يثرب أولاً، فحاربهم العرب حتى صاروا ذوى النفوذ فيها والقوة. وكان اليهود إذا خُذلوا يستفتحون على أعدائهم باسم نبى يُبعث قد قَرُب زمانه، ولما اختلفت كلمة العرب فيما بينهم وشقت عصا الألفة، حالفوا اليهود على أنفسهم، فحالف الأوس بنى قريظة، وحالف الخزرج بنى النضير وبنى قينقاع، وآخر الأيام بينهم يوم بُعَاث قتل فيه أكثر رؤسائهم، ولم يبق إلاّ عبد الله بن أبى بن سلول من الخزرج، وأبو عامر الراهب من الأوس (١)

ولذلك كانت عائشة ــ رضى الله عنها ــ تقول: «كان يوم بُعاث يوما قدمه الله لرسول الله ــ ﷺ ــ» وقد خطر ببال رؤساء الأوس أن يحالفوا قريشا على الخزرج، فأرسلوا إياس بن معاذ وأبا الحيسر أنس بن رافع مع جماعة يلتمسون ذلك الحلف فى قريش، فلما جاءوا مكة جاءهم رسول الله، وقال: هل لكم فى خير مما جئتم له؟ أن تؤمنوا بالله وحده، ولا تشركوا به شيئا.. وقد أرسلنى الله إلى الناس كافة، ثم تلا عليهم القرآن. فقال إياس ابن معاذ: يا قوم هذا والله خير مما جئنا له، فحصبه أبو الحيسر، وقال له: دعنا منك، لقد جئنا لغير هذا.. فسكت.

(١) نور اليقين ص ٧٤.

ولما جاء الموسم التالى ، تعرّض رسول الله لنفر منهم يبلغون الستة ، وكلهم من الخزرج ودعاهم إلى الإسلام ، وإلى معاونته فى تبليغ رسالة ربه ، فقال بعضهم لبعض :

«إنه للنبى الذى كانت تعدكم به يهود فلا يسبقكم إليه ، فآمنوا به وصدقوه ، وقالوا : إنا تركنا قومنا بينهم من العداوة ما بينهم ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ، ووعدوه المقابلة فى الموسم المقبل ، وهذا هو بدء الإسلام لعرب يثرب ، وكان هذا اللقاء الأول بين النبى ـ ﷺ ـ وأهل يثرب سنة ثلاث قبل الهجرة ـ على أغلب الظن.

وبعد أن أسلم هؤلاء الستة حملوا إلى يثرب ولأول مرة رسالة الإسلام ، وصاروا يبثونها بين قبائلهم ، فلم يستدر العام إلا وقد انتشر ذكر النبى ـ ﷺ ـ فى كل دار.

* بيعة العقبة :

فلما كان العام التالى ، قدم إثنا عشر رجلا ، منهم عشرة من الخزرج ، واثنان من الأوس ، فاجتمعوا به عند العقبة ، وأسلموا وبايعوا رسول الله ـ ﷺ ـ على ألا يشركوا بالله شيئا ، ولا يسرقوا ، ولا يزنوا ، ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتوا ببُهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ، ولا يعصونه فى معروف ، فإن وفوا فلهم الجنة ، وإن غشوا من ذلك شيئا ، فأمرهم إلى الله عز وجل ، إن شاء غفر وإن شاء غذب ، وهذه هى العقبة الأولى . ولم يأت ذكر فى هذه البيعة للناحية العسكرية ، لأن هذه البيعة تمت قبل أن يأذن الله لنبيه بالقتال

وبينما كانت قريش تشدد من ضغطها على النبى ـ ﷺ ـ وتضاعف من إيذائها للضعفاء من أتباعه ، كان ـ ﷺ ـ يوثق من صِلاّته بأهل يثرب ، ويوسع من نطاق اتصالاته بهم . فبعد أن تمت بيعة العقبة الأولى ،

وانتهى موسم الحج ، بعث مع القوم الذين عقدوا معه هذه البيعة مُصعب بن عمير العبدرى، وعبد الله بن أم مكتوم، فكانا أول سفيرين له فى يثرب ، ليعلّما المسلمين فيها شرائع الله ، ويُفَقِّهوهم فى الدين ، ويقوما بنشر الإسلام بين الذين لازالوا على الشرك .

تقول كتب السيرة: إن مصعب بن عمير نزل على أحد المبايعين ، وهو أبو أمامة أسعد بن زرارة ، وصار يدعو بقية الأوس والخزرج للإسلام ، وبينما هو فى بستان ، إذ قال سعيد بن معاذ ، رئيس قبيلة الأوس لأُسَيد بن حصين ، ابن عم سعد :

«ألا تقوم إلى هذين الرجلين اللذين أتيا يسفهان ضعفاءنا لتزجرهما، فقام لهما أسيد بحربته ، فلما رآه سعد قال لمصعب: هذا سيد قومه ، وقد جاءك فأصدق الله فيه ، فلما وقف عليهما ، قال : ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا ، اعتزلا إن كان لكما بأنفسكما حاجة ، فقال مصعب: أو تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره ، فقرأ عليه مصعب القرآن، فاستحسن دين الإسلام ، وهداه الله له فتشهد . ثم رجع إلى سعد فسأله عما فعل ، فقال : والله ما رأيت بالرجلين بأساً ، فغضب سعد وقام لهما متغيظا ، ففعل معه مصعب كسابقه ، فهداه الله للإسلام ، ورجع لرجال بنى عبد الأشهل — وهم بطن من الأوس — فقال لهم : ما تعدُّوننى فيكم ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا ، قال: كلام رجالكم ونسائكم عَلَىّ حرام حتى تُسْلِموا ، فلم يبق بيت من بيوت بنى عبد الأشهل إلا أجابه .

وقد انتشر الإسلام فى دور يثرب حتى لم يكن بينهم حديث إلا أمر الاسلام . وبعد أن اطمأن سفير الاسلام «مصعب» إلى نجاح الدعوة ، وشاهد مغتبطا سرعة انتشار دين الإسلام بين تلك القبائل القحطانية العظيمة ، التى صارت فيما بعد أعظم قوة حربية اعتمد عليها الإسلام فى عهده الأول. وبعد

أن قضى هذا السفير النبوى بين أهل يثرب تسعة أشهر، عاد إلى مكة يحمل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ بشائر الفوز. وقدم له تقريراً ضافيا على النجاح الباهر المطرد، الذى تلاقيه الدعوة الإسلامية بين قبائل الأوس والخزرج، وقصّ على النبى ـ ﷺ ـ خبر هذه القبائل، وما هى عليه من منعة وقوة، فسُرّ النبى ـ ﷺ ـ لهذا النصر العظيم.

*** العقبة الثانية:**

وفى العام التالى للبيعة الأولى ـ أى سنة ٢ قبل الهجرة تقريبا ـ حضر لأداء مناسك الحج من أهل يثرب ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان ممن أسلموا، وقد جاءوا ضمن حجاج قومهم من أهل الشرك. وبمجرد وصولهم إلى مكة، جرت الاتصالات سرًّا بينهم وبين النبى ـ ﷺ ـ وانتهت هذه الاتصالات على أن يجتمع الفريقان فى اليوم التالى من أيام التشريق، على أن يتم الاجتماع فى سِرّية تامة، وفى ظلام الليل، وقد حددوا مكانا لهذا الاجتماع الشّعب من منى، عند العقبة، حيث الجمرة الأولى. وفى الموعد المحدد ـ من تلك الليلة ـ حضر النبى ـ ﷺ ـ إلى الشّعب، وأخذ الأنصار يتوافدون على النبى واحد بعد واحد، خوفا من أن ينكشف أمرهم لكفار مكة، والمشركين من قومهم أهل يثرب.

ووافقهم رسول الله ـ ﷺ ـ وليس معه إلا عمه العباس بن عبد المطلب، وهو على دين قومه، ولكن أراد أن يحضر أمر ابن أخيه ليكون متوثقا له(١).

فلما اجتمعوا وتكامل المجلس، شرع المجتمعون فى المحادثات التمهيدية لإبرام التحالف العسكرى بين هذه النخبة الممتازة من صفوة الأوس والخزرج، وبين النبى ـ ﷺ ـ.

(١) سيرة ابن هشام ٤٤١/١.

وكان أول المتكلمين فى هذا الاجتماع التاريخى العظيم «العباس بن عبد المطلب» فقد وقف خطيبا فى القوم ليشرح لهم ــ صراحة ــ خطورة ما هم مقدمون عليه، وبين لهم ليستوثق منهم، عِظَم المسئولية التى ستلقى على كواهلهم، نتيجة هذا التحالف العسكرى، قال: «يا معشر الخزرج ــ وكان العرب إنما يسمون هذا الحى من الأنصار: الخزرج ــ، إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقدْ منعناه من قومنا، ممن هو على رأينا فيه (أى من ناحية الاختلاف فى الدين) فهو فى عزّ من قومه، ومنعة فى بلده، وأنه قد أبَى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم مسلّموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده».

فقال كبيرهم، المتكلم عنهم «البراء بن معرور»: والله لو كان لنا فى أنفسنا ما ننطق لقلناه، ولكنا نريد الوفاء والصدق، وبذل مهجنا دون رسول الله، وعند ذلك قالوا لرسول الله ــ ﷺ ــ خُذْ لنفسك ولربك ما أحببت، فقال:

«اشترط لربى أن تعبدوه وحده، ولا تشركوا به شيئا، ولنفسى أن تمنعونى مما تمنعون عنه نساءكم وأبناءكم متى قدمت عليكم».

فقال له الهيثم بن التيهان: يارسول الله إن بيننا وبين الرجال عهوداً، وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟.

فتبسم ــ ﷺ ــ وقال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم(١)، أى إن طالبتم بدم طالبت به، وإن اهدرتموه أهدرته».

(١) كانت العرب تقول عند عقد الحلف والجوار: دمى دمك، وهدمى هدمك، وهى كلمة تعنى أن ذمتى ذمتك وحرمتى حرمتك. قاله ابن هشام ــ السيرة ٤٤٢/١.

وحينئذ ابتدأت المبايعة، وهى العقبة الثانية، فبايعه الرجال على ما طلب. وهذه البيعة تعد أخطر بيعة فى تاريخ الدعوة الإسلامية، فقد كانت حدًّا فاصلا بين عهدين من عهود الدعوة، ولقد منَّ الله عليهم بهذه النعمة، فأنزل قوله سبحانه:

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٦]

وبعد هذا الحدث العظيم.. قيام التحالف العسكرى بين النبى — ﷺ — وأهل يثرب، أخذ القلق يساور كفار مكة بشكل لم يسبق له مثيل، فقد تجسّد أمامهم الخطر الحقيقى الكبير، الذى يتهدد كيانهم الوثنى، نتيجة هذا التحالف العسكرى.

فكفار مكة يعلمون ما عليه قبائل الأوس والخزرج من قوة ومنعة، وما بين هاتين القبيلتين من حروب أهلية متواصلة ضاق عقلاؤهما بها ذرعا، وإن ذلك مما قد ييسر لدعوة محمد الانتشار بينهم، لما فى أصولها من حث على حقن الدماء، والدعوة إلى التآخى ونبذ الأحقاد، الأمر الذى لو نجحت فيه دعوة محمد لكانت القاضية على سلطان مكة السياسى والدينى والعسكرى. لذلك أخذت قريش تفكر فى الأمر أكثر من أى وقت مضى، لاتخاذ الخطوات العملية السريعة الحاسمة لوقف تيار الدعوة الاسلامية نهائيا؛ فتعددت الاجتماعات فى برلمان مكة للتباحث فى هذا التطور الخطير، الذى طرأ على الدعوة الإسلامية، بسبب هذا الدعم العسكرى الهائل الذى حصل عليه حامل لواء الدعوة من قِبَل قبائل الأوس والخزرج فى يثرب.

* طلائع المهاجرين:

وبينما كان المشركون المكيّون من جانبهم، يوالون الاجتماعات فى برلمانهم

لبحث الموقف الطارئ، كان النبى ـ ﷺ ـ من جانبه غير غافل عما تفكر فيه قريش، وترسمه من مخططات آثمة للقضاء عليه وعلى دعوته.

فبعد أن تمركزت الدعوة فى يثرب، ووجدت لها حماة أقوياء، عاهدوا الله على بذل الدم فى سبيل الذود عنها، والدفاع عن حاملها، أمر الرسول ـ ﷺ ـ جميع المسلمين بالهجرة إلى يثرب(١)، فصاروا يتسللون خيفة قريش أن تمنعهم. وأول من خرج أبو سلمة المخزومى. زوج أم سلمة ومعه زوجه، وكان قومها منعوها منه، ولكنهم أطلقوها بعد فلحقت به، وتتابع المهاجرون فرارًا بدينهم، ليتمكنوا من عبادة الله، الذى امتزج حبه بلحمهم ودمهم، حتى صاروا لا يعبأون بمفارقة أوطانهم، والابتعاد عن آبائهم مادام فى ذلك رضا الله ورسوله. ولم يبق بمكة منهم إلا أبو بكر وعلىّ وصهيب وزيد بن حارثة، وقليلون من المستضعفين، الذين لم تمكّنهم حالهم من الهجْرة وقد أراد أبو بكر الهجرة، فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ على رسلك ـ أى على مهلك ـ فإنى أرجو أن يؤذن لى فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبى أنت؟ قال: نعم، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله، ليصحبه، وعَلَف راحلتين كانتا عنده ورق الشجر، استعداداً لذلك.

* مؤتمر دار الندوة

لقد ظلت قريش تقاوم الدعوة الإسلامية، بمختلف الوسائل ثلاث عشرة سنة، فجرّبت كل أساليب الإرهاب والتهديد والأذى، وشنت على النبى ـ ﷺ ـ وعلى أصحابه حربا دعائية واسعة منظمة، واتبعت ضده ومن ناصره، سياسة التجويع والمقاطعة، وعذّبت وحبست المستضعفين من أتباعه، وشنّت عليهم حربا نفسية مضنية..

بيد أن هذه المقاومة بالرغم من عنفها وضراوتها لم تصل إلى إعلان

(١) البيهقى: دلائل النبوة ١٩٦/٢.

الحرب، وإشهار السلاح. ولقد كان النبى. ـ ﷺ ـ يتحمل وأتباعه كل ما يلاقونه من قريش، من عنت ومتاعب وويلات، فيمشي ـ ﷺ ـ قدما فى نشر دعوته، وإبلاغ رسالته، فى كل وسط يتسنى له الاتصال به. إلاّ أنه فى السنة الأخيرة من هذا الكفاح السّلمى، حدثت من مشركى مكة تطورات هامة، غيرت مجرى النضال تغييرا كليًّا.

فقد ضاق المشركون ذرعا برسول الله ـ ﷺ ـ وبدعوته، بعد أن أثبتت لهم الأيام فشل خُططهم غير الحربية، التى ساروا عليها لمقاومة الدعوة، والقضاء عليها فى المهد، وشعروا بتفاقم الخطر الذى يهدد كيانهم الوثنى، لاسيا بعد أن قامت تلك الجبهة القوية المعادية لهم على أثر التحالف العسكرى الذي تم بين النبي ـ ﷺ ـ وأهل يثرب، فصاروا يبحثون عن أنجح الوسائل لدفع هذا الخطر، الذى مبعثه الوحيد حامل لواء الدعوة الإسلامية، محمد بن عبد الله ـ ﷺ ـ.

ففى أوائل شهر ربيع الأول، وعلى رأس السنة الثالثة عشرة من بعثة الرسول ـ ﷺ ـ عقد برلمان مكة دار الندوة، أخطر اجتماع له فى تاريخه، إذ اجتمع رؤساؤهم وقادتهم فى دار الندوة، وهى دار قُصى بن كلاب، التى كانت قريش لا تقضى أمراً إلاّ فيها، يتشاورون ما يصنعون فى أمر رسول الله ـ ﷺ ـ.

قال الطبرى فى روايته عن ابن عباس: (١)

«إن نفراً من أشراف قريش اجتمعوا فى دار الندوة، فاعترضهم إبليس فى صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا: من أنت؟ قال: شيخ من العرب، سمعت باجتماعكم فأردت أن أحضركم، ولن يعدمكم منى رأى ونصح،

---

(١) تاريخ الطبرى ٤٩٥/١٣.

قالوا: أجل، فادخل. فقال: انظروا فى شأن هذا الرجل - يعنى محمداً - ﷺ - فقال قائل: احبسوه في وثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك، فصرخ عدو الله وقال: والله ما هذا لكم برأى، فليوشكن أن يثب أصحابه عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم، فقال قائل: اخرجوه من بين أظهركم تستريحوا منه، فإنه إذا خرج فلن يضركم ما صنع، وأين وقع، فقال الشيخ المذكور: والله ما هذا لكم برأى، أم تروا حلاوة قوله، وطلاقة لسانه، وأخذه القلوب بحديثه؟ والله لئن فعلتم لتجتمعن عليكم العرب حتى يخرجوكم من بلادكم، ويقتلوا أشرافكم، قالوا: صدق فانظروا رأيا غير هذا، فقال أبو جهل: والله لأشيرن عليكم برأى ما أرى غيره، قالوا: وما هو؟ قال: نأخذ من كل قبيلة غلاماً شاباً جلدًا، ونعطى كل واحد سيفا صارما، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، ويتفرق دمه فى القبائل كلها، ولا أظن بنى هاشم يقدرون على حرب قريش كلها، فيقبلون الدّية، ونستريح منه، ونقطع عنا أذاه، فصرخ عدو الله إبليس.. هذا والله الرأى. لا أرى غيره، فتفرقوا على ذلك. **فأتى جبريل النبى - ﷺ - فأخبره وأمره ألاّ يبيت فى مضجعه، وأذن له بالهجرة وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة، يذكره نعمته عليه:**

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]

وهكذا لحق الرسول - ﷺ - بصحابته إلى دار الهجرة (١)، إلى دار ينشر فيها الإسلام، ويكون فيها لرسول الله - ﷺ - العزّة والمنعة. وهذا من الحكمة بمكان عظيم، فإنه لو انتشر الإسلام بمكة لقال المبغضون إن قريشا

---

(١) انظر فى هجرة رسول الله: ابن هشام ٤٨٠/١، وابن سعد ١٥٢/١/١ والبخارى: المناقب ٤٥ والطبرى ٢/ ٣٦٩.

أرادوا مُلك العرب فعمدوا إلى شخص منهم ، وأوعزوا إليه أن يدعى هذه الدعوى حتى تكون وسيلة لنيل مآربهم ، ولكنهم كانوا له أعداء ألداء ، آذوه شديد الأذى ، حتى اختار الله له مفارقة بلادهم والبعد عنها وحين أخذ الركب وجهته إلى المدينة ، نظر رسول الله ــ ﷺ ــ إلى مكة نظرة وداع حارة ، وقال :

« والله إنى لأخرج منك وإنى لأعلم أنك أحب أرض الله إلى الله ، وأكرمها على الله ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت » .

الفصل الثالث

دولة الإسلام المدينة المنورة

— ١ —

أثر الدولة فى المجتمع المدنى

أحدث الإسلام انقلابا جذريا فى حياة المجتمع المدنى كله، بحيث تغير سلوك الأفراد اليومى، وعاداتهم المتأصلة تغيرا كليا، كما تغيرت مقاييسهم وأحكامهم ونظرتهم إلى الكون والحياة والإنسان، وكذلك تغيرت بِنْيَة المجتمع بصورة واضحة، فاختفت مظاهر وصور، وبرزت معالم وظواهر جديدة.

إن النقلة التى أحدثها الإسلام — فى المدينة المنورة — عميقة وشاملة.. ففى عالم العقيدة يمثل طفرة من عبادة الأشياء المحسوسة كالأصنام والأوثان والكواكب. التى يرونها ويلمسونها، إلى عبادة الله الواحد، الذى ليس كمثله شيء، والذى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار. والذى لا يمكن تصوّره وتمثله ومعرفة كنهه، بل يعرف بما وصف به نفسه فى كتابه الكريم، وعلى لسان رسوله الأمين، دون تمثيل أو تشبيه، ولا نفى أو تعطيل.

وهذه طفرة من «العقل البدائى» الذى يتعامل مع المحسوسات إلى «العقل الحضارى» الذى يتمكن من فهم التوحيد والتنزيه لله رب العالمين. وفى سلوك الإنسان اليومى أحدث الاسلام تغييرا جذريا، فالنقلة كبيرة بين ما كان عليه فى جاهليته، وماصار إليه فى إسلامه.

لم يعد العربى كما كان متفلتا من ضوابط القانون فى معاملاته وعلاقاته الاجتماعية، بل صار منضبطا بضوابط الشريعة فى جزئيات حياته، من أخلاق وعادات ونوم واستيقاظ، وطعام وشراب، وزواج وطلاق، وبيع وشراء، ولا شك أن العادات تتحكم فى الإنسان، ويصعب عليه التخلص منها، واكتساب عادات وصفات جديدة، لكن ما ولده الإسلام فى أنفسهم من إيمان عميق، مكنهم من الانخلاع من الشخصية الجاهلية، بكل ملامحها واكتساب الشخصية الإسلامية بكل مقوماتها، فاعتادوا على عبادة الله تعالى، واتجهوا بكل نشاطهم الاجتماعى والاقتصادى إليه (١). لأن العبادة فى الإسلام شاملة لكل نشاط وحركة يقصد بها وجه الله تعالى.. والتزموا بأداء الصلاة، التى هى عماد الدين يوميا خمسة أوقات محددة، ولا شك أن النفس الإنسانية تكسل أحيانا، وتحاول التنصل من الواجبات والالتزامات، لكن المسلم ـ وقد أسلم وجهه لله تعالى، تمكن من الاعتياد عليها، قال تعالى مبينا ما تحتاجه الصلاة من صبر:

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه من الآية: ١٣٢]

وكذلك الأمر بالنسبة للصوم بما فيه من خرق لعادات الإنسان اليومية فى تناول الطعام والشراب يحتاج إلى إرادة قوية، وعزيمة مؤمنة، والتخلّى عن جزء مما يملك الإنسان من مال كل سنة لأداء الزكاة يحتاج إلى التخلص من الحرص والشّح، فلابد أن يكون حب المسلم لله أعظم من حبه للمال، ليخرج زكاته، ولذلك فإن كثيرا من المرتدين فى خلافة أبى بكر الصديق ـ أعلنوا استعدادهم للبقاء على إسلامهم إذا أعفوا من الزكاة.

(١) الدكتور أكرم العمرى ـ المجتمع المدنى فى عهد النبوة ص٦٣ طبع الجامعة الاسلامية بالمدينة سنة ١٤٠٣هـ.

وإلى جانب الاعتياد على الأوامر الجديدة، وحمل النفس عليها، كان لابد للمسلم أن يتخلّص من كثير من العادات المتأصلة، كشرب الخمر، والأنكحة الجاهلية التى أبطلها الإسلام، والربا، الذى كان يقوم عليه اقتصاد مكة وغيرها.

إن المسلمين تخلصوا من هذه العادات وغيرها، استجابة لأمر الله تعالى، فلما نزل قوله سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١]

خرجت الأنصار بدنان الخمر إلى الأزقة وأراقوها وقالوا: «انْتَهَيْنا ربنا انتهينا ربنا». وشرب الخمر الذى أقلعوا عنه كان عادة متأصلة فى حياة الفرد والمجتمع، والخمر الذى أراقوه كان مالاً ضحّوا به تسليما لله رب العالمين.

ولم يكن العربى ليخضع لدولة، وإنما كانت الوحدة السياسية والاجتماعية هى القبيلة، وكانت الدويلات التى نشأت فى أنحاء من شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام بوقت طويل، قد اندثرت وطغت البداوة والقبلية بما فيها من عصبية وتنازع، وصراع وتفكك، فى سائر شبه الجزيرة العربية فلما جاء الإسلام أرسى مفهوم الدولة، وربط سائر القبائل والأفراد بها، فقامت دولة المدينة المنورة على أساس فكرى بحت، وتوسعت لتوحيد شبه الجزيرة العربية لأول مرة فى تاريخها تحت راية الإسلام، فكانت هذه نقلة فى تاريخ شبه الجزيرة العربية

وهكذا فإن الإسلام أحدث تغييراً جذريا فى حياة الفرد والمجتمع فى المدينة المنورة، لما تميز به من عمق وشمول وقدرة على التأثير، حتى صبغ الحياة بكل جوانبها بصبغته:

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة: ١٣٨]

وقد وضح أثر هذا التغيير الشامل بعد هجرة المسلمين إليها .

— ٢ —

قدم المهاجرون إلى المدينة المنورة، بعد أن أذن الرسول — ﷺ — لهم، وكانوا فى البدء من عشائر مختلفة من قريش، ثم استمرت الهجرة.. وصار حقا على المسلمين الجدد فى أرجاء الجزيرة أن يهاجروا إليها، وظل الأمر كذلك حتى أوقفت الهجرة رسميا بعد فتح مكة عام ثمان للهجرة.

والهجرة كانت حدثا عظيما استحق أن يكون بداية التأريخ الهجرى عند المسلمين، منذ أن وضع الخليفة عمر بن الخطاب التقويم الهجرى. والهجرة كانت دليلا على الإخلاص والتفانى فى سبيل العقيدة، فقد فارق المهاجرون وطنهم ومالهم، وأهليهم ومعارفهم، استجابة لنداء الله ورسوله. ولما اعترضت قريش سبيل صهيب الرومى، بحجة أنه جمع أمواله من عمله بمكة، ولم يكن ذا مال قبل قدومه مكة، ترك لهم أمواله وهاجر بنفسه، فبلغ ذلك رسول الله — ﷺ — فقال: «ربح صهيب» (١).

ومنع المشركون أبا سلمة — رضى الله عنه — من الهجرة بزوجته وابنه، فلم يمنعه ذلك من الهجرة وحيدًا، تاركا زوجته وطفله، وقد ظلت زوجته أم سلمة تخرج كل غداة بالأبطح تبكى حتى تمسى نحو سنة، حتى تمكّنت من الهجرة بابنها ولحقت بزوجها (٢).

(١) الحاكم: المستدرك ٣٩٨/٣ وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٢) الإصابه ٢٢٢/٨.

وهكذا فإن الهجرة اقترنت بظروف صعبة ، كانت تمحيصا لإيمان المؤمنين ، واختباراً لقوة عقيدتهم ، واستعلاء إيمانهم على الأعراض والمصالح الدنيوية .

ولقد دلت أحداث الهجرة على سلامة التربية المحمدية للصحابة ، رضوان الله عليهم ، فقد صاروا مؤهلين للاستخلاف فى الأرض ، وتحكيم شرع الله ، والقيام بأمره ، والجهاد فى سبيله ، وهم يقبلون على بناء دولة الإسلام فى المدينة المنورة ، بعد أن كانوا مستضعفين فى الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس .

وقد اختار الحق ــ سبحانه ــ المدينة لهجرة المسلمين ، لما صح عن رسول الله ــ ﷺ ــ :
«قد أريت دار هجرتكم ، أريت سبخة ذات نخل بين لابّتين» (١) .

وتأخر رسول الله ــ ﷺ ــ فى الهجرة ، وأخر معه أبا بكر الصديق ، رضى الله عنه ، حتى أذن الله تعالى له بالهجرة . قالت عائشة ــ رضى الله عنها :

«وتجهز أبو بكر قبل المدينة ، فقال له رسول الله ــ ﷺ ــ على رسْلِكَ ، فإنى أرجو أن يؤذن لى ، فلما أذن الله لرسوله بالخروج ، لم يُعْلِم أحدًا بذلك إلاَّ عليًّا ، وأبا بكر وآله» وكان المشركون قد غاظتهم هجرة المسلمين ، فاتمروا لقتل رسول الله ــ ﷺ ــ وقد خرج الاثنان إلى جبل ثور حيث أويا إلى غار فيه ، وتعقّبهم المشركون إلى المكان حتى بدت أقدامهم خارج الغار ، فقال الصديق ــ رضى الله عنه : لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا ، فقال رسول الله ــ ﷺ ــ «يا أبا بكر .. ما ظَنُّك باثْنَين الله ثالثهما» (٢) .

---

(١) صحيح البخارى ١٨٦/٧ ، وصحيح مسلم ٥٧/٧ .

(٢) متفق عليه .

لكن الله تعالى صرف المشركين عنهما فلم يفطنوا لهما، وخرج الاثنان بعد ثلاثة أيام، فى طريقهما إلى المدينة (١)، يقطعان الصحراء، ورسول الله — ﷺ — قد بلغ الثالثة والخمسين، وأبو بكر بلغ الحادية والخمسين، لكن القلوب الموصولة بالله تعالى لايعيقها شيء عن بلوغ القصد، وتحقيق أهداف الرسالة.

ورسالة الإسلام جاءت تنظم أمور العبادات والمعاملات، فهى دستور للحياة، لابد لتطبيقه من أرض وأمة تقام فيها أحكام الله تعالى، التى اكتمل تشريعها فيما نزل فى المدينة من قرآن، ومانطق به رسول الله — ﷺ — أو عمله، أو أمر به من سُنّة.

وهى تعطى صورة لأمثل دولة ضمت أمثل مجتمع ظهر فى تاريخ البشر وهى النموذج الذى ينبغى على المسلمين فى كل زمان ومكان أن يحتذوه، ليكفلوا لأنفسهم سعادة الدارين، ويبتعدوا عن الشقاء والحياة الضنكى، والضياع وسط ركام الجاهلية، الذى يزحف عليهم من كل مكان، ولامنجى لهم إلا بالعودة إلى الله، والاقتداء بهدى رسوله.

وقد تأخرت هجرة النبى المصطفى — ﷺ — إلى المدينة، حتى هاجر معظم القادرين على الهجرة من أصحابه، الذين استجابوا للأمر بالهجرة، واستمر الحث على الهجرة، وبيان فضل المهاجرين، بنزول الآيات القرآنية، واستمر معها تدفق المسلمين الجدد من كل مكان، فقد كانت الدولة الإسلامية الناشئة فى المدينة المنورة، بحاجة إلى المهاجرين من المؤمنين، ليتوطد سلطان الإسلام فيها، إذ يغالبه اليهود والمشركون والمنافقون، وتحيط به قوى الأعراب المشركين من حول المدينة، ويترصده كفار قريش الذين أقضت الهجرة مضاجعهم، فمضوا يخططون للإجهاز على كيان الإسلام الفتى، ودولته الناشئة.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٨٧/٣ — ١٨٨، ومسند الإمام أحمد رقم ٣٥١.

لذلك تتابعت الآيات القرآنية فى الأمر بالهجرة، وبيان فضلها، وعظيم أجرها، حتى وعد الله تعالى المهاجرين بمنعهم وتمكينهم من مراغمة أعدائهم. والتوسعة عليهم فى أرزاقهم، من مثل قوله تعالى:

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ ﴾

[النساء: ١٠٠]

أى إن الذى يخرج بنيّة الهجرة فيموت فى الطريق، فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر. وقوله سبحانه:

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [الحج: ٥٨]

فهنا أقسم الله تعالى أن يرزق المهاجرين فى سبيله رزقا حسناً سواء قتلوا فى الجهاد، أو ماتوا على فرشهم فى غير جهاد.

وقد منع القرآن الكريم المسلمين القادرين على الهجرة من الإقامة مع المشركين، قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾

[النساء: ٩٧ـ٩٩]

وذلك لأن الإقامة مع المشركين فيها تكثير سوادهم، وانتفاعهم بالمسلمين فى صناعاتهم وزروعهم، بل ربما اضطروهم للمشاركة معهم فى حربهم ضد

المسلمين، كما وقع فى غزوة بدر الكبرى(١). بالإضافة إلى تعرضهم للفتنة من قبل الكفار لصرفهم عن دينهم، ولا يخفى مافى بُعدهم عن دولة الإسلام من منع استفادة المسلمين منهم فى حربهم ومصالحهم، وتكثير سوادهم، لذلك قال رسول الله ـ ﷺ ـ:

«من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله» (٢)

وقد تأخر بعض المسلمين بمكة عن الهجرة، تحت ضغوط أزواجهم وأولادهم، فلما هاجروا من بعد، ورأوا الذين سبقوهم من المهاجرين قد تفقهوا فى الدين، همُّوا بمعاقبة أزواجهم وأولادهم، وكان ذلك سببا فى نزول قول الحق سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن: ١٤]

ويتضح من ذلك كله أن الهجرة كانتا فَرْضا فى أول الإسلام على من أسلم، حتى إذا كانت غزوة الأحزاب سنة خمس للهجرة، وتبينت قدرة الدولة الإسلامية على الدفاع عن نفسها، وحماية كيانها أمام قوىٰ الأحزاب مجتمعين، لم تعد بحاجة إلى مهاجرين جدد، فقد تغيرت خطة الدولة الإسلامية من الدفاع إلى الهجوم. وعبر الرسول ـ ﷺ ـ عن ذلك بقوله:

«الآن نَغْزُوهم ولا يَغْزُوننا»

وكذلك ضاقت المدينة بسكانها المتزايدين، وما يحتاجونه من القوت والمسكن، فطلب الرسول الكريم ـ ﷺ ـ من بعض المهاجرين، بعد غزوة الخندق، العودة إلى ديارهم، قائلا «هجرتكم فى رحالكم» إذ لم تعد ثمة

---

(١) المجتمع المدنى فى عهد النبوه ص٦٩.

(٢) رواه أبو داود وأخرجه الترمذى فى السنن ٢٠٢/٤.

حاجة لإقامتهم فى المدينة بل صار بقاؤهم فى قبائلهم أجدى لقيامهم بالدعوة إلى الإسلام خارج المدينة، وتوسيع انتشار الإسلام [١] ولكن ذلك لا يعتبر وقفا رسميا للهجرة، بل إن إعلان وقف الهجرة كان بعد فتح مكة، حيث قال رسول الله ـ ﷺ ـ:

«لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيّة، وإذا استنفرتم فانفروا» [٢].

وبهذا سقط فرض الهجرة إلى المدينة، وبقى فرض الجهاد والنية على من قام به، أو نزل به عدو، لكن الهجرة باقية الحكم فى حق من أسلم فى دار الكفر، ولم يأمن الفتنة على دينه، مع قدرته على الخروج منها.

لقد أدت الهجرة المستمرة إلى تنوع سكان المدينة المنورة، فلم يعودوا يقتصرون على الأوس والخزرج ويهود، بل نزل المهاجرون من قريش وقبائل العرب الأخرى، والمجتمع المدنى الجديد أرسيت قواعده، وشيد بنيانه على أساس روابط العقيدة، التى استعلت على ارتباطات القبيلة وعصبيتها وسائر الروابط الأخرى، وبرزت فكرة الأمة الواحدة، وتقسيمات السكان صار أساسها عقديا وصاروا يقسمون إلى ثلاث مجموعات هى: المؤمنون، والمنافقون، واليهود [٣].

---

(١) المجتمع المدنى فى عهد النبوة ص ٧٠.

(٢) أخرجه البخارى.

(٣) الدكتور أكرم العمرى، المجتمع المدنى فى عهد النبوة ص ٧٠.

— ٣ —

وحدة العقيدة هي أساس المجتمع المدني:

لا شك أن الروابط التى تربط بين الناس مختلفة، وهم يجتمعون بشكل قبائل وشعوب، وأوطان وقوميات، وتعتبر آصرة القربى أو الدم والانتماء إلى أصل عرقى — من أقدم الروابط التى كونت المجتمعات البشرية.

وعند ظهور الإسلام كانت التجمعات الإنسانية تظهر بشكل قبائل، كما فى جزيرة العرب، وأماكن أخرى، وقوميات كما فى فارس، ومجتمعات دينية كما فى الإمبراطورية البيزنطية.

وقد جعل الإسلام وحدة العقيدة هى الأساس الأول فى ارتباط الناس وتآلفهم، وإن أقرّ بعض الأواصر الأخرى، إذا انضوت تحت هذا الأصل، مثل الأرحام، التى حث الإسلام على وصلها، ورتب على ذلك الأحكام المتعلقة بالتكافل الاجتماعى والإرث. ومثل صلة الجوار، وما يترتب عليها من تضامن فى الديات، ومثل الصلة بين أبناء المدينة، وجعلهم أولى من سواهم بزكاة أغنيائهم.

لكن هذه الصلات ينبغى أن تنضوى تحت آصرة العقيدة، فإذا خالفتها، وأضرت بها، لم يبق لها أى اعتبار.

فأساس الارتباط فى الإسلام هو العقيدة، التى تقتضى مصلحتها التفريق

بين المرء وأبيه أو ابنه أو زوجه أو عشيرته. وهكذا قاتل أبوعبيدة ـ رضى الله عنه ـ أباه، وهو يمجّد الأصنام، فقتله عندما التقى به فى معركة بدر الكبرى، ورأى أبوحذيفة ـ رضى الله عنه ـ أباه المشرك يُسْحَبُ ليرمى فى القليب ببدر دون أن ينكر قلبه ذلك (١).

قال ابن إسحق (٢): وحدثنى ابن وهب أخو بنى عبد الدار، أن رسول الله ـ ﷺ ـ حين أقبل بالأسارى فرقهم بين أصحابه، وقال: استوصوا بهم خيراً، وكان أبو عزيز بن عمير بن هاشم أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه فى الأسرى، قال أبوعزيز: مرّ بى أخى مصعب بن عمير ورجل من الأنصار بأسرتى فقال: أشدد يديك به، فإن أمه ذات متاع لعلّها تفديه منك.

قال ابن هشام: وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين ببدر بعد النضر ابن الحارث، ولما قال أخوه مصعب لأبى اليسر، وهو الذى أسره ما قال: قال له أبوعزيز: يا أخى هذه وصاتك بى؟ فقال له مصعب: إنه أخى دونك؟».

* وقد أوضح القرآن أن مصلحة العقيدة هى المعتبرة، فى مناسبات جمة.. منها ما قصه عن نوح ـ عليه السلام ـ وابنه:

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ * قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٥، ٤٦]

وهكذا بيّن الحق سبحانه أن ابن نوح وإن كان من أهله باعتبار القرابة، لكنه لم يعد من أهله لما فارق الحق وكفر بالله، ولم يتّبع نوحاً نبى الله

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٧٥.

(٢) البداية والنهاية. ٣/٣٠٦ ـ ٣٠٧.

وصرّح القرآن الكريم بعلّة انقطاع الآصرة بين نوح وابنه بقوله : (إنّه عَمَلٌ غيرُ صَالح) ، فإذا كانت القرابة من الدرجة الأولى تنبتّ عندما تصطدم بالعقيدة، فالأحرى أن ينبتّ صلات الدم والعرق والوطن واللون ، إذا اصطدمت بمصلحة العقيدة (١) .

وقد حصر الإسلام الأخوة والمولاة بين المؤمنين فقط ، قال الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠]

وقطع الولاية بين المؤمنين والكافرين من المشركين واليهود والنصارى ، حتى لو كانوا آباءهم وإخوانهم أو أبناءهم ، ووصف من يفعل ذلك من المؤمنين بالظلم ، مما يدل على أن موالاة المؤمنين للكافرين من أعظم الذنوب . قال سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [التوبة : ٢٣]

وقد وضع القرآن الكريم مصالح المسلم ، وعلاقاته الدنيوية كلها فى كفة ، ووضع حب الله ورسوله والجهاد فى سبيل العقيدة فى كفة أخرى ، وحذر المؤمنين وتوعدهم إن هم غلّبوا مصالحهم وعلاقاتهم الاجتماعية على مصلحة العقيدة . قال الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٢٤]

---

(١) د . أكرم العمرى ص٨٣ .

وقد نزلت هذه الآيات فى الحض على الهجرة إلى المدينة المنورة، للدفاع عن الدولة الإسلامية التى نشأت فيها، وقد نجح الصحابة الكرام فى امتحان العقيدة، ففارقوا الأهل والأموال والمساكن التى يحبونها، وهاجروا إلى الله ورسوله، والجهاد فى سبيله.

وصفوة القول.. إن المجتمع الذى أقامه الإسلام ــ فى المدينة المنورة ــ كان مجتمعاً عقديا يرتبط بالإسلام، ولا يعرف الموالاة إلا لله ولرسوله وللمؤمنين، وهو أعلى أنواع الارتباط وأرقاها، إذ يتصل بوحدة العقيدة والفكر والروح، فالمؤمنون بعضهم أولياء بعض، تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم. وهذا المجتمع مفتوح لمن أراد أن ينتهى إليه. مهما كان لونه، أو جنسه، على أن ينخلع من صفاته الجاهلية، ويكتسب الشخصية الإسلامية ليتمتع بسائر حقوق المسلمين.

— ٤ —

موقف اليهود من الدولة الجديدة ..

وكما ابتلى الله المسلمين فى مكة بمشركى قريش، ابتلاهم فى المدينة بيهودها ، وهم كما ذكرنا — بنو قينقاع ، وبنو قريظة ، وبنو النضير، فإنهم أظهروا العداوة والبغضاء حسداً من عند أنفسهم من بعد أن تبين لهم أنه الحق ، وكانوا قبل مجىء الرسول — ﷺ — يستفتحون على المشركين من العرب ، إذا شبت الحرب بين الفريقين ، بنبىّ يُبعث قد قَرُب زمانه ، فلما جاءهم ما عرفوا ، استعظم رؤساؤهم أن تكون النبوّة فى ولد إسماعيل ، فكفروا بما أنزل الله بغياً ، مع أنهم يرون أن رسول الله محمداً لم يأت إلاّ مصّدّقاً لما بين يديه من كتب الله ، التى أنزلها على من سبقه من المرسلين ، مبيناً ما أفسده التأويل منها ، ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون .

ومما عابه اليهود على الإسلام نسخ الأحكام ، وما دروا أن الله سبحانه وتعالى يعلم ما يحتاج إليه الناس أكثر منهم . والرسول الكريم وُجد بادئ بدء بين جماعة من العرب أميين ، ليسوا على شىء من الاعتقادات الإلهية ، فكانت الحكمة داعية لأن يكون التشريع لهم على التدريج ، لأنه لو حرم الله عليهم الخمر ، وأكل الربا ، وأمرهم بالصلاة والزكاة .. وهكذا إلى آخر الأوامر والنواهى ، التى جاء بها الشرع ، لما أجابه أحد من هؤلاء النافرة قلوبهم ، المختلفة أهواؤهم ، الذين كانوا منغمسين فى كثير من الأضاليل ، فمهد الأمر لهم رسول الله شيئاً فشيئاً ، حتى روضت عقولهم ، وهذبت نفوسهم .

وكانت الأحكام الإلهية لا ينزلها الله عليه إلاّ عقب الحوادث التى تقتضيها، ليكون التأثير فى النفوس أشد، ولكن اليهود أرادوا غَلّ يد القدرة عن أن تفعل إلا ما يشتهون، وقد دمغهم القرآن الكريم بما يدل على أنهم يعلمون من نفوسهم البعد عن الحق، قال :

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : ٩٤]

ثم ختم رب العزّة عدم إجابتهم بقوله تعالى :

﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ٩٥]

فلو كانوا يعلمون من أنفسهم أنهم على الحق، لما تأخروا عما طلب منهم، مع سهولته وحرصهم على تكذيب الصادق الأمين، ولم ينقل لنا عن أحد منهم أنه تمنى ذلك، ولو نطقا باللسان، وقد تبين الهدى لأحد رؤساء بنى قينقاع، وهو عبد الله بن سلام ــ حبر اليهود وعالمهم، فترك هواه وأسلم بعد أن سمع القرآن، وبعد أن كان اليهود يعدونه من رؤسائهم، عدُّوه من سفهائهم، حينما بلغهم إسلامه، فبئسما اشتروا لأنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله من فضله، على من يشاء من عباده، ولما استحكمت فى قلوبهم العداوة للإسلام، صاروا يجهدون أنفسهم فى إطفاء نوره :

﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة : ٣٢]

وكان يساعدهم على مقاصدهم جماعة من عرب المدينة، أعمى الله بصائرهم، فأخفوا كُفرهم، خوفاً على حياتهم، وكان يرأس هذه الجماعة عبد الله بن أبى سلول الخزرجى، الذى كان مرشحاً لرياسة أهل المدينة قبل هجرة رسول الله ــ ﷺ ــ .

ولا شك أن ضرر المنافقين أشد على المسلمين من ضرر الكفار، لأن أولئك يدخلون بين المسلمين فيعلمون أسرارهم، ويشيعونها بين الأعداء من اليهود وغيرهم، كما حصل ذلك مراراً. والأساس الذى كان عليه رسول الله ـ ﷺ ـ أن يقبل ما ظهر، ويترك لله ما بطن، ولكنه مع ذلك كان لا يأمنهم فى عمل ما.

معالجة أمر اليهود:

وقد عالج رسول الله ـ ﷺ ـ أمر اليهود بمعاهدة عقدها معهم، وتنص هذه المعاهدة على ما يلى (١):

١ ـ إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٢ ـ وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلاّ من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ (أى يهلك) إلاّ نفسه وأهل بيته.

٣ ـ وإن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف.

٤ ـ وإن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف.

٥ ـ وإن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف.

٦ ـ وإن ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف.

٧ ـ وإن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف.

٨ ـ وإن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف، إلاّ من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلاّ نفسه وأهل بيته.

٩ ـ وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم.

١٠ ـ وإن لبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف، وإن البر دون الإثم.

١١ ـ وإن موالى ثعلبة كأنفسهم.

---

(١) سيرة ابن هشام ٥٠١/٢ وما بعدها.

١٢ ـ وإن بطانة يهود (أى خاصتهم وأهل بيتهم) كأنفسهم.
١٣ ـ وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد (ﷺ).
١٤ ـ وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم.
١٥ ـ وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.
١٦ ـ وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.
١٧ ـ وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.
١٨ ـ وإنه لا تجار حرمة إلاّ بإذن أهلها.
١٩ ـ وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد (ﷺ).
٢٠ ـ وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها.
٢١ ـ وإن بينهم النصر على من دهم يثرب.
٢٢ ـ وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنّه لهم على المؤمنين، إلاّ من حارب فى الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم.
٢٣ ـ وإن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة.
٢٤ ـ وإن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة.. وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلاّ من ظلم أو إثم، وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله (ﷺ).

وفى هذه المعاهدة تتضح خمسة أمور رئيسية:

الأمر الأول: اعتبار اليهود مواطنين فى الدولة الإسلامية، لهم حريتهم الدينية، تحميهم الدولة وتدافع عنهم.

الأمر الثانى: على اليهود أن يساندوا الدولة الإسلامية فى رد العدوان عنها.

الأمر الثالث: على اليهود النصح للدولة الإسلامية، فلا يتآمرون عليها، ولا يخفون نبأ من يعلمون منه الكيد للدولة الإسلامية.

الأمر الرابع: تفرض عليهم الإقامة الجبرية، ولا يجوز لهم مغادرة أماكنهم إلا بإذن من الدولة الإسلامية.

الأمر الخامس: السيادة للدولة الإسلامية، برئاسة رسول الله ـ ﷺ ـ وإليه يرجعون فى فصل الخصومات التى تنشب بينهم وبين المسلمين (١).

* تسوية الأوضاع الداخلية فى الدولة:

بعد أن أنهى رسول الله ـ ﷺ ـ الأمر مع اليهود، بتوقيع المعاهدة، أزمع على إقامة دولة الإسلام فى المدينة المنورة، وكان فيها أيضاً الأنصار، الذين قدموا من مكة فراراً بدينهم إلى الله. وقد استطاع الرسول ـ ﷺ ـ بحكمته وحنكته، ونظره الثاقب، وحسن تدبيره للأمور، أن يجمع الشمل ويؤلف بين القلوب.

* ففيما يتصل بالأنصار.. عالج الرسول أمرهم بتقسيمهم إلى خلايا متكافلة متضامنة فيما بينها على الخير، ومسئول بعضها تجاه بعض، وبذلك وضعها أمام مسئولياتها، فلم يفلت منهم أحدٌ، واعتبر هذه الخلايا كلها ـ التى يوحّد بينها الإيمان بالله تعالى، وتربط بينها الأخوة الإسلامية ـ مسئولة مسئولية تضامنية، عن درء العدوان الكافر، الواقع بالدولة الإسلامية.

---

(١) الدكتور محمد رواس قلعة جى.. التفسير السياسى للسيرة ص١٤٨ ط دار السلام للطباعة والنشر سنة ١٣٩٩هـ.

* وكتب رسول الله ــ ﷺ ــ وثيقة بين المهاجرين والأنصار، تنظم العلاقات العامة بينهم.. هذا نصها (١):

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي (ﷺ) بين المؤمنين والمسلمين، من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم.

١ - إنهم أمة واحدة من دون الناس.
٢ - المهاجرون من قريش على ربعتهم (أي حالهم التي جاء الإسلام وهم عليها) يتعاقلون (أي يدفعون ديّات القتلى المتوجبة عليهم) بينهم وهم يفدون عانيهم (أسيرهم) بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
٣ ــ وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم (ديّاتهم) الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
٤ ــ وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
٥ ــ وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
٦ ــ بنو جُشَم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
٧ ــ وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
٨ ــ وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٥٠١ وما بعدها.

٩ ـ وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

١٠ ـ وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

١١ ـ وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً (أى مثقلاً بالدَّيْن) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل .

١٢ ـ وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

١٣ ـ وإن المؤمنين المتقين على مَنْ بغى منهم ، أو ابتغى دسيعة (عظيمة) ظلم أو إثم أو فساد بين المؤمنين ، وإن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم .

١٤ ـ ولا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن .

١٥ ـ وإن ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم ، وإن المؤمنين بعضهم مولى بعض دون الناس .

١٦ ـ وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ، ولا متناصر عليهم .

١٧ ـ وإن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله ، إلا على سواء وعدل بينهم .

١٨ ـ وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا .

١٩ ـ وإن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله .

٢٠ ـ وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن .

٢١ ـ وإنه من اعتبط (قتل بلا جناية) مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به (أى يقتل القاتل تعويضاً عما جنت يداه) إلاّ أن يرضى ولى المقتول .

٢٢ ـ وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر

أن ينصر محدثا (أى مبتدعاً) ولا يؤويه، وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة. ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

٢٣- وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ.

* أما ما يتصل بأمر المهاجرين.. فمعلوم أنهم خرجوا من بلدهم مكة وقد تركوا فيها أموالهم، وحلوا بالمدينة المنورة، وليس لهم فيها بيت يأويهم، ولا مال ينهض بحوائجهم، فلابد من أن يتخذ الرسول تدبيراً اقتصاديا يحل مشكلتهم، إلى جانب التدبيرات السياسية والاجتماعية، ولذلك آخى الرسول - ﷺ - بينهم وبين الأنصار.

قال ابن اسحاق فى السيرة:

«وآخى رسول الله - ﷺ - بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، فقال - فيما بلغنا، ونعوذ بالله أن نقول عليه مالم يقل: «تآخوا فى الله أخوين أخوين». ثم أخذ بيد علىّ بن أبى طالب، فقال: هذا أخى، فكان رسول الله - ﷺ - سيد المرسلين، وإمام المتقين، ورسول رب العالمين، الذى ليس له خطير ولا نظير من العباد، وعلى بن أبى طالب - رضى الله عنه - أخوين.

* وكان حمزة بن عبد المطلب أسد الله، وأسد رسوله - ﷺ - وعم رسول الله وزيد بن حارثة، مولى رسول الله أخوين، وإليه أوصى حمزة يوم أحد حين حضره القتال، إن حدث به حادث الموت.

- وجعفر بن أبى طالب، ذو الجناحين الطيار فى الجنة، ومُعَاذ بن جَبَل أخو بنى سلمة أخوين.

- وكان أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - ابن أبى قحافة، وخاصة بن زهير أخوين.

ـ وعمر بن الخطاب وعتبان بن مالك أخوين، وأبو عبيدة الجراح وسعد بن معاذ أخوين.

ـ وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن الربيع أخوين، والزبير بن العوام وسلمة بن سلامة بن وَقْش أخوين، وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت بن المنذر أخوين، وطلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك أخوين، وسعيد بن زيد ابن عمرو بن نفيل وأُبَيّ بن كعب أخوين، ومصعب بن عمير وأبو أيوب خالد بن زيد أخوين، وأبو حذيفة بن عتبة، وعباد بن بشر أخوين، وعمار ابن ياسر وحذيفة بن اليمان أخوين، وأبو ذر الغفارى والمنذر بن عمرو أخوين وكان حاطب بن أبى تلعة وعُويم بن ساعدة أخوين، وسلمان الفارسى وأبو الدرداء أخوين، وبلال مولى أبى بكر وأبو رُويحة أخوين..

فهؤلاء من سمى لنا ممن كان رسول الله ـ ﷺ ـ آخى بينهم من أصحابه.

وانطلاقاً من هذا الإخاء، جعل الواحد من الأنصار يعطى أخاه المهاجر من ماله ماينهض بحاجته دون عدّ ولا حساب، وجعل الواحد منهم يرث الآخر، واستمر الأمر كذلك إلى أن نزل قول الحق سبحانه:

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ [الأنفال: ٧٥].

فنسخ التوارث بالأخوة الاسلامية، وجعل التوارث بالقرابة النَّسبِيّة، المشربة بالاسلام.

وبذلك فرغ رسول الله ـ ﷺ ـ من إصلاح الأوضاع الداخلية فى المدينة المنورة ونشر الأمن والسلام فى ربوع الدولة الإسلامية الناشئة.

الفصل الرابع

مشروعيّة القتال

— ١ —

نزول التشريع بالجهاد

ما أن استقر رسول الله — ﷺ — في المدينة المنورة، وأقام دولة الإسلام فيها، وكانت له الكلمة النافذة، وأصلح الأوضاع الداخلية، فأزال الضغائن، وقضى على العداوات التى كانت تأكل نفوس العرب، وربط اليهود كمواطنين فى دولة الإسلام بعجلة الدولة الإسلامية، وفرض عليهم رقابة شديدة حتى لايفلتوا من قبضته، لما اشتهروا به من الخبث والتآمر فى الخفاء، وإن أية دولة لاتجد الاستقرار فى الأوضاع الداخلية، لا تستطيع أن تحمل رسالة، ولا أن تبنى مجداً، ولذلك فقد انصب اهتمام رسول الله — ﷺ — أول ما انصبّ على البناء الداخلى..

وبعد أن تم له الاستقرار الداخلى عكف على دراسة الموقف الخارجى، وفى أثناء ذلك نزل تشريع الجهاد(١).

(١) الجهاد — فى اللغة — مصدر مأخوذ من جاْهَدَ يجاهد جهاداً ومجاهدة. جاء فى المعجم: جّاهَد فى سبيل الله مجاهدة وجهاداً، أى بذل مافى وُسعه، وهى فى الاستعمال العربى: المشقة وبذل الجهد.

والباحث المدقق فى سياسة التشريع الاسلامى للجهاد، يجد أن السمة البارزة فيه هى التدرج.

ــ فقد شرع الله فى مكة جهاد النفس والهوى والشيطان، كأساس أصيل لكل أنواع الجهاد.

ــ ثم شرع جهاد الكفار فى مكة ثانيا ــ بالصبر على أذاهم، وتوضيح الحجة لهم، والاستمرار فى دعوتهم إلى دين الحق، وبيان دين الاسلام بالأدلة، وبيان تفاهة معبودات الجاهلية، وضلال أهلها، وخسارتهم فى الدنيا والآخرة.

فقد نهى ــ ﷺ ــ أصحابه عن قتال مشركى مكة، فى هذه الفترة، فقال لمن قال له: (كُنّا فى عزّ ونحن مشركون، فلما آمنا صِرْنا أذِلّة): «إنى أُمِرْتُ بالعفو فلا تقاتلوا..» (١).

* وقد ذكر الله ــ سبحانه ــ هذا النهى فى القرآن، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ

قال الراغب الأصفانى: الجهاد هو استفراغ الوسع فى مدافعة العدو وقتاله. وقد ورد لفظ الجهاد فى نحو ثلاثين موضوعا فى القرآن، ورد أحيانا بلفظ الجهاد ومادته، وأحيانا بلفظ القتال ومشتقاته وقُرِن مراراً بعبارة «فى سبيل الله» وذكر أخرى بدونها، من مثل قوله تعالى:ــ

(والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله) [الأنفال ٧٤].

(كتب عليكم القِتالُ وهو كُرْهٌ لكم) ,أى الجهاد [البقرة: ٢١٦]

[انظر كتابنا دراسات فى القرآن والسنة ــ فصل تشريع الجهاد طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٢م.

(١) رواه النسائى ٣/٦، والبيهقى ٩/ ١١، والمستدرك ٣٠٧/٢ وقال على شرط البخارى.

يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء : ٧٧].

* وقال ﷺ : لما استأذنه أهل يثرب ليلة العقبة أن يميلوا على أهل مِنىً فيقتلوهم : «إنى لم أومر بهذا» (١).

قال ابن كثير، عند تفسير قوله تعالى :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾

[الجاثية : ١٤].

ـــ أى يصفحوا عنهم، ويحملوا الأذى منهم، وهذا كان فى ابتداء الاسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب ليكون ذلك لتأليف قلوبهم، ثم لمآ صاروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد. هكذا روى عن ابن عباس وقتادة (٢).

● وقال ابن حجر: «فأول ما شرع الجهاد بعد الهجرة النبوية إلى المدينة اتفاقاً» (٣).

● وقال الإمام الشافعي: «ثم أذن الله تبارك وتعالى لرسوله ـ ﷺ ـ بالهجرة إلى المدينة، ولم يأذن له بجهاد.. ثم أذن لهم بالجهاد» (٤).

● ويقول فى موضع آخر: «فأذن لهم بأحد الجهادين: الهجرة قبل أن

(١) مسند الإمام أحمد ٣/ ٤٦٢، وابن هشام ١/ ٤٤٠.
(٢) تفسير ابن كثير ٧/ ٢٥١.
(٣) فتح البارى ٦/٢٧.
(٤) كتاب الأم ٤/٨٤ طبعة دار الشعب بمصر.

يؤذن لهم بأن يبتدئوا مشركا بقتال، ثم أذن لهم بأن يبتدئوا المشركين بقتال». وفى هذا الجهاد نزل قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]

* وقال القرطبى: «ولم يؤذن للنبى ـ ﷺ ـ فى القتال مدة إقامته بمكة» (١).

● ويتحدث الشيخ سيد قطب ـ رحمه الله ـ عن حكمة الأمر بالكف عن القتال فى المرحلة المكية، بكلام أراه غاية فى الأدب مع الله، مع حسن استنباط وفهم لأهداف الإسلام وغاياته، هذا نصه (٢):

«فأما لماذا لم يأذن الله للمسلمين فى مكة بالانتصار من الظلم، والرد على العدوان، ودفع الأذى بالقوة، وكثيرون منهم كان يملك هذا فلم يكن ضعيفاً ولا مستضعفاً، ولم يكن عاجزاً عن رد الصاع صاعين مهما يكن المسلمون فى ذلك الوقت قِلّة.. أما حكمة هذا والأمر بالكف عن القتال، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والصبر والاحتمال حتى وبعض المسلمين يلقى من الأذى والعذاب مالا يطاق، وبعضهم يتجاوز العذاب طاقته فيفتن عن دينه، وبعضهم لا يحتمل الاستمرار فى العذاب فيموت تحت وطأته.. أما حكمة هذا، فلسنا فى حل من الجزم بها، لأننا حينئذ نتألى على الله ما لم يبين لنا من حكمه، ونفرض على أوامره أسباباً وعللاً قد لا تكون هى الأسباب والعلل الحقيقية، أو قد تكون ولكن يكون وراءها أسباب وعلل أخرى لم يكشف لنا عنها، ويعلم سبحانه أن فيها الخير والمصلحة، وهذا هو

---

(١) تفسير القرطبى ٣/ ٣٨.

(٢) فى ظلال القرآن ٢/ ٧١٣ وما بعدها.

شأن المؤمن أمام أى تكليف، أو أى حكم فى شريعة الله لم يبين الله سببه محدداً جازماً حاسماً، فمهما خطر له من الأسباب والعلل لهذا الحكم أو لذلك التكليف، أو لكيفية تنفيذ هذا الحكم، أو طريقة أداء ذلك التكليف مما يدركه عقله ويحسن فيه، فينبغى أن يعتبر هذا كله مجرد احتمال، ولا يجزم مهما بلغت ثقته بعلمه وعقله، وتدبره لأحكام الله، بأن ما رآه هو حكمة، هو الحكمة التى أرادها الله نصاً وليس وراءها شىء، وليس من دونها شىء، فذلك التحرج هو مقتضى الأدب الواجب مع الله، ومقتضى ما بين علم الله ومعرفة الإنسان من اختلاف فى الطبيعة والحقيقة. وبهذا الأدب الواجب نتناول حكمة عدم فرض الجهاد فى مكة، وفرضيته فى المدينة.. نذكر ما يتراءى لنا من حكمة وسبب على أنه مجرد احتمال، وندع ما وراءه لله، لا نفرض على أمره أسباباً أو عللاً لا يعلمها إلاّ هو، ولم يحددها هُوَ لنا، ويطلعنا عليها بنص صريح أنها أسباب اجتهادية، تخطىء وتصيب، وتنقص وتزيد، ولا نبغى بها إلا مجرد تدبر أحكام الله، وفق ما تظهره لنا الأحداث فى مجرى الزمان.

ربما كان ذلك لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد، فى بيئة معينة، لقوم معينين، وسط ظروف معينة، ومن أهداف التربية والإعداد فى مثل هذه البيئة بالذات تربية نفس الفرد العربى على الصبر، على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم، يقع على شخصه، أو على من يلوذون به، ليخلص من شخصه، ويتجرد من ذاته، ولا تعود ذاته، ولا من يلوذون به محور الحياة فى نظره، ودافع الحركة فى حياته وتربيته، كذلك على ضبط أعصابه فلا يندفع لأول مؤثر كما هى طبيعته، ولا يهتاج لأول مهيج، ليتم الاعتدال فى طبيعته وحركته، وتربيته على أن يتبع مجتمعاً منظماً له قيادة يرجع إليها فى كل أمر من أمور حياته، ولا يتصرف إلا وفق ما تأمره مهما يكن مخالفاً لمألوفه

وعادته، وقد كان هذا هو حجر الأساس فى إعداد شخصية العربى، لإنشاء المجتمع المسلم، الخاضع لقيادة موجّهة.

وربما كان ذلك أيضاً لأن الدعوة السلمية أشد أثراً وأنفذ فى مثل بيئة قريش، ذات العنجهية والشرف، والتى قد يدفعها القتال معها، فى مثل هذه الفترة إلى زيادة العناد وإلى نشأة ثارات دموية جديدة، كثارات العرب المعروفة، التى أثارت حرب داحس، والغبراء، وحرب البسوس، أعواماً طويلة تفانت فيها قبائل برمتها، وتكون هذه الثارات الجديدة مرتبطة فى أذهانهم وذكرياتهم بالإسلام، فلا تهدأ بعد ذلك أبداً، ويتحول الإسلام من دعوة إلى ثارات ودحول تنسى معها فكرته الأساسية، وهو فى مبدئه، فلا تذكر أبداً.

وربما كان ذلك اجتناباً لانشاء معركة ومقتلة فى داخل كل بيت، فلم يكن هناك سلطة نظامية عامة هى التى تعذب المؤمنين وتفتنهم، إنما كان ذلك موكولاً إلى أولياء كل فرد يعذبونه هم، ويفتنونه ويؤدبونه..

ومعنى الإذن بالقتال فى مثل هذه البيئة، أن تقع معركة ومقتلة فى كل بيت، ثم يقال: «هذا هو الإسلام» ــ ولقد قيلت ــ حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال، فقد كانت دعاية قريش فى الموسم، فى أوساط العرب القادمين للحج والتجارة.. أن محمداً يفرق بين الوالد وولده، فوق تفريقه لقومه وعشيرته، فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد، والمولى بقتل المولى، فى كل بيت وكل محلة.

• وربما كان ذلك أيضاً لما يعلمه الله، من أن كثيرين من المعاندين الذين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم ويعذبونهم ويؤذونهم هم أنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص، بل من قادته.. ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء.

● وربما كان ذلك أيضاً لأن النخوة العربية، فى بيئة قبلية، من عادتها أن تثور للمظلوم، الذى يحتمل الأذى ولا يتراجع، وبخاصة إذا كان الأذى واقعاً على كرام الناس فيهم، وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة فى هذه البيئة، فابن الدغنة لم يرض أن يترك أبا بكر — وهو رجل كريم — يهاجر ويخرج من مكة، ورأى فى ذلك عاراً على العرب، وعرض عليه جواره وحمايته.

وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبنى هاشم فى شعب أبى طالب، بعدما طال عليهم الجوع، واشتدت المحنة، بينما فى بيئة أخرى من البيئات ذات الحضارة القديمة التى مردت على الذل، قد يكون السكوت على الأذى مدعاة للهزء والسخرية والاحتقار من البيئة، وتعظيم المؤذى الظالم المعتدى.

● وربما كان ذلك أيضاً لقلة عدد المسلمين حينذاك، وانحصارهم فى مكة، حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة، أو بلغت أخبارها متناثرة، حيث كانت القبائل تقف على الحياد من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها حتى ترى ماذا يكون مصير الموقف. ففى مثل هذه الحالة قد تنتهى المعركة المحدودة إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة، حتى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم، ويبقى الشرك وتنمحى الجماعة المسلمة، ولم يقم فى الأرض للإسلام نظام، ولا وجد له كيان واقعى، وهو دين جاء ليكون منهج حياة، وليكون نظاماً واقعياً عملياً للحياة.

فى الوقت ذاته.. لم يكن هناك ضرورة قاهرة ملحة لتجاوز هذه الاعتبارات كلها والأمر بالقتال، ودفع الأذى، لأن الأمر الأساسى فى هذه الدعوة كان قائماً وقتها، ومحققاً. هذا الأمر الأساسى هو وجود الدعوة، وجودها فى شخص الداعية — ﷺ — وشخصه فى حماية سيوف بنى هاشم،

فلا تمتد إليه يدٌ إلاّ وهى مهددة بالقطع، والنظام القبلى السائد يجعل كل قبيلة تخشى أن تقع فى حرب مع بنى هاشم، إذا هى امتدت يدها إلى محمد، فكان شخص الداعية من ثم محمياً حماية كافية، وكان الداعية يبلغ دعوته إذن فى حماية سيوف بنى هاشم، ومقتضيات النظام القبلى، ولا يكتمها ولا يخفيها، ولا يجرؤ أحد على منعه من إبلاغها وإعلانها، فى ندوات قريش فى الكعبة، ومن فوق جبل الصفا، وفى اجتماعات عامة، ولا يجرؤ أحد على سد فمه، ولا يجرؤ أحد على أن يفرض عليه كلاماً بعينه يقوله، يعلن فيه بعض حقيقة دينه، ويسكت عن بعضها، وحين طلبوا إليه أن يكف عن سبّ آلهتهم وعيبها لم يكف، وحين طلبوا إليه أن يسكت عن عيب دين آبائهم وأجدادهم وكونهم فى جهنم لم يسكت، وحين طلبوا إليه أن يدهن فيدهنوا — أى يجاملهم فيجاملوه بأن يتبع بعض تقاليدهم، ليتبعوا هم بعض عبادته لم يدهن.

وعلى الجملة.. كان للدعوة وجودها الكامل فى شخص رسول الله — ﷺ — محروساً بسيوف بنى هاشم، وفى إبلاغه لدعوة ربه كاملة فى كل مكان، وفى كل صورة، ومن ثم لم تكن هناك الضرورة القاهرة لاستعجال المعركة، والتغاضى عن كل هذه الاعتبارات البيئية، التى هى فى مجموعها مساندة للدعوة، ومساعدة فى مثل هذه البيئة.

هذه الاعتبارات كلها — فيما نحسب — كانت بعض ما اقتضت حكمة الله معه أن يأمر المسلمين بكف أيديهم، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، لتتم تربيتهم وإعدادهم، ولينتفع بكل إمكانيات الخطة فى هذه البيئة، وليقف المسلمون فى انتظار أمر القيادة فى الوقت المناسب، وليخرجوا أنفسهم من المسألة كلها، فلا يكون لذواتهم فيها حظ، لتكون خالصة لله، وفى سبيل الله، والدعوة لها وجودها، وهى قائمة ومؤداة ومحمية ومحروسة».

ثم استكملت فى المدينة المنورة بقية أنواع الجهاد، جهاد الطلب والابتداء، وجهاد الدفاع.

— ٢ —

مراحل الجهاد:

مر الجهاد الإسلامى بمراحل إلى أن وصل إلى حكمه النهائى:

١ ــ إباحة القتال من غير فرض:

وقد ورد ذلك فى قول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ * ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]

• قال غير واحد من السلف: هذه أول آية نزلت فى الجهاد، واستدل بهذه الآية بعضهم على أن السورة مدنية. وقاله مجاهد والضحاك وقتادة وغير واحد.

قال ابن كثير: «وإنما شرع الله تعالى الجهاد فى الوقت الأليق به، لأنهم لما كانوا بمكة، كان المشركون أكثر عدداً، فلو أمر المسلمين ــ وهم أقل من العشر ــ بقتال الباقين لشق عليهم، ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ــ ﷺ ــ وكانوا نيفا وثمانين، قالوا يا رسول الله: ألا نميل على أهل الوادى ــ يعنون أهل منى ــ ليالى منى فنقتلهم، فقال رسول الله ــ ﷺ:

إنى لم أؤمر بهذا. فلما بغى المشركون وأخرجوا النبى ـ ﷺ ـ من بين أظهرهم، وهموا بقتله، وشرّدوا أصحابه شذر مذر، فذهب منهم طائفة إلى الحبشة، وآخرون إلى المدينة، فلما استقروا بالمدينة، ووافاهم رسول الله، ـ ﷺ ـ واجتمعوا عليه، وقاموا بنصره، وصارت لهم دار إسلام، ومعقلاً يلجؤون إليه، شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل فى ذلك » (١) .

٢ ـ فرض القتال على المسلمين لمن يقاتلهم فقط :

والدليل على ذلك، قول الحق سبحانه :

﴿ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا * سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ [النساء : ٩٠، ٩١]

* يقول ابن تيمية عن هذه المرحلة :

« .. ولم يؤمروا بقتال من طلب مسالمتهم بل قال: (فإن تولوا فخذوهم .. الآيات) وكذلك من هادنهم لم يكونوا مأمورين بقتاله، وإن كانت الهدنة عقداً جائزاً غير لازم » (٢) .

● ويستشهد ابن تيمية لرأيه، بسيرة النبى ـ ﷺ ، فيقول :

« فمن المعلوم من سيرة النبى ـ ﷺ ، الظاهر علمه عند كل من له علم بالسيرة، أنه ـ ﷺ ـ لما قدم المدينة لم يحارب أحداً من أهل المدينة، بل

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/٤٣٠ .

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ١/٧٣ط الجامعة الإسلامية .

وادعهم حتى اليهود خصوصاً بطون الأوس والخزرج، فإنه كان يسالمهم ويتألفهم بكل وجه، وكان الناس إذ قدمها على طبقات، منهم المؤمن وهم الأكثرون، ومنهم الباقي على دينه، وهو متروك لا يُحَارِب ولا يُحَارَب، وهو والمؤمنون من قبيلته وحلفائهم أهل سلم، لا أهل حرب، حتى حلفاء الأنصار أقَرَّهُم النبي ـ ﷺ ـ على حلفهم» (١).

٣ ـ والمرحلة الأخيرة ـ هي قتال جميع الكفار على اختلاف أديانهم وأجناسهم، ابتداءً وإن لم يبدأوا بقتال، حتى يُسْلموا أو يدفعوا الجزية ـ على خلاف بين العلماء فيمن تؤخذ منه الجزية.

وهذه المرحلة بدأت من انقضاء أربعة أشهر من بعد حج العام التاسع من الهجرة. ومن بعد انقضاء العهود المؤقتة، وتوفى الرسول ـ ﷺ ـ والعمل على هذه المرحلة الأخيرة، وعليها استقر حكم الجهاد. ومن أدلتها قول الحق سبحانه:

﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

[التوبة: ٥]

وقوله تعالى:

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾

[التوبة: ٢٩]

وقوله ﷺ:

(١) الصارم المسلول ص٩٩.

« .. اغزوا باسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا وليداً ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادْعُهم إلى ثلاث خصال أو خلال .. الحديث (١) .

وهذه المراحل اتفق عليها علماء الإسلام ، وذكروها فى مؤلفاتهم ..

١ ــ يقول السرخسى: « وقد كان رسول الله ــ ﷺ ــ مأموراً فى الابتداء بالصفح والإعراض عن المشركين، قال الله تعالى: (فاصْفَح الصَّفْح الجَمِيل) .

وقال تعالى :

(واعْرِض عَنِ المُشْرِكين)

ثم أمر بالدعاء إلى الدين بالوعظ والمجادلة بالأحسن، فقال تعالى :

(أدْعُ إلى سَبيلِ رَبِّكَ بالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنة وَجَادِلْهُم بالَّتِى هِىَ أحْسَن).

ثم أمر بالقتال إذا كانت البداية منهم ، فقال تعالى :

(أذِنَ للذِّينَ يُقَاتَلُون بأنَّهم ظُلِمُوا) أى أذن بهم فى الدفع .

وقال تعالى :

(فإنْ قَاتَلُوكُم فاقْتُلُوهم)

وقال تعالى :

(وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) .

ثم أمر بالبداية بالقتال: فقال تعالى :

(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) .

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ١٢/٣٨.

وقال تعالى :

(فاقْتُلوا المُشْرِكينَ حَيْثُ وَجَدتُمُوهُم) .

وقال رسول الله ـ ﷺ :

« أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلاّ الله ، فإذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم إلاّ بحقّها وحسابهم على الله » .

فاستقر الأمر على فرضية الجهاد مع المشركين ، وهو فرض قائم إلى قيام الساعة » (١) .

٢ ـ وقال الشافعي: « وأنزل الله عز وجل فيما يثبّته به إذا ضاق من أذاهم :

(ولَقَد نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُون فَسَبِّح بِحَمْدِ رَبِّكَ وكُنْ مِنَ السَّاجدِين ، واعْبُد رَبَّكَ حَتَّى يأتِيكَ اليَقِين)

ففرض عليه إبلاغهم وعبادته ، ولم يفرض عليه قتالهم ، وأبان ذلك فى غير آية من كتابه .. ثم أذن الله عز وجل لهم بالجهاد ، ثم أذن لهم بأن يبتدئوا المشركين بقتال . قال الله عز وجل :

(أذن للذين يقاتلون ..) الآية. وأباح لهم القتال بمعنى أبانه فى كتابه ، فقال :

(وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم) ...

ولما مضت لرسول الله ـ ﷺ ـ مدة من هجرته ، أنعم الله فيها على جماعات باتباعه ، حدثت لهم بها مع عون الله عز وجل ، قوة بالعدد لم يكن قبلها ، ففرض الله عز وجل عليهم الجهاد ، بعد إذ كان إباحة لا فرضاً ، فقال تبارك وتعالى :

(١) المبسوط ٢/١٠ .

(كُتب عليكم القتال.. الآية)(١).

٣ ـ وقال ابن رشد(٢): «وأول ما بعث الله نبيه ـ عليه السلام ـ بالدعاء إلى الإسلام من غير قتال أمره به، ولا أذن له فيه، ولا جزية أحلها له، فأقام رسول الله ـ ﷺ ـ على ذلك عشر سنين(٣)، وهى التى أقام بمكة، وحينئذ أنزل الله (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) وقوله: (فاعف عنهم واصفح) وقوله: (لا إكراه فى الدين) وما أشبه ذلك من الآيات، فلما هاجر إلى المدينة، أذن الله تعالى له وللمؤمنين بقتال من قاتله، وأمرهم بالكف عمّن لم يقاتلهم، فقال تعالى:

(أُذِنَ للذين يُقَاتَلُون بأنهم ظُلِموا وَإِنّ الله على نصرهم لقدير)

وقال تعالى:

(فإنْ قَاتَلُوكُم فاقْتُلُوهُم كَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِين)

وقال تعالى:

(فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا)..

فكانت هذه سيرة رسول الله ـ ﷺ ـ والمسلمين منذ هاجر إلى المدينة، إلى أن نزلت سورة براءة، وذلك بعد ثمان من الهجرة، قاموا لله تعالى فيها بقتال جميع المشركين من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صَاغِرُون.

---

(١) أحكام القرآن ٢/٩-١٩.

(٢) مقدمات ابن رشد ١/٣٧١.

(٣) هذا سهو من ابن رشد إذ إن المدة التى مكثها الرسول فى مكة ثلاث عشرة سنة.

وقال ــ ﷺ ــ فى المجوس: سنوا بهم سنة أهل الكتاب إلا من كان له عهد عند النبى ــ ﷺ ــ فإن الله أتمه له إلى مدته، فقال:

(إلاّ الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً، ولم يظاهروا عليكم أحداً، فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين).

وفرض الله عز وجل الجهاد حينئذ على جميع المسلمين كافة، فقال تعالى:

(وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين) ».

٤ ــ وقال ابن تيمية: « .. فكان النبى ــ ﷺ ــ فى أول الأمر مأموراً أن يجاهد الكفار بلسانه لا بيده، فيدعوهم ويعظهم ويجادلهم بالتى هى أحسن ويجاهدهم بالقرآن جهاداً كبيراً، قال تعالى فى سورة الفرقان وهى مكية:

(فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً).

وكان مأموراً بالكف عن قتالهم لعجزه وعجز المسلمين عن ذلك، ثم لما هاجر إلى المدينة وصار له بها أعوان، أذن له فى الجهاد، ثم لما قووا كتب عليهم القتال، ولم يكتب عليهم قتال من سالمهم لأنهم لم يكونوا يطيقون قتال جميع الكفار، فلما فتح الله مكة، وانقطع قتال قريش ملوك العرب، ووفدت إليه وفود العرب بالإسلام، أمره الله تعالى بقتال الكفار كلهم، إلاّ من كان له عهد مؤقت، وأمره بنبذ العهود المطلقة » (١).

٥ ــ وقال ابن القيم(٢): « فلما استقر رسول الله ــ ﷺ ــ بالمدينة وأيده الله بنصره بعبادة المؤمنين الأنصار، وألف بين قلوبهم بعد العداوة والإحن

---

(١) الجواب الصحيح ٧٤/١. (٢) زاد المعاد ٦٩/٣-٧١.

التى كانت بينهم ، فنعته أنصار الله وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر، وبذلوا نفوسهم دونه ، وقدموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج ، وكان أولى بهم من أنفسهم ، رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة ، وشمروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة ، وصاحوا بهم من كل جانب ، والله سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح ، حتى قويت الشوكة ، واشتد الجناح ، فأذن لهم حينئذ فى القتال ، ولم يفرض عليهم ، فقال تعالى :

﴿ أذِن للذين يُقَاتَلُون بأنَّهم ظُلِمُوا وإن الله على نصرهم لقدير﴾

ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلوهم ، فقال :

﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾

ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة ، وكان محرماً ، ثم مأذوناً به ، ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال . ثم مأموراً به لجميع المشركين إما فرض عين ــ على أحد القولين ، أو فرض كفاية على المشهور» .

قلت : وقد استقر أمر الجهاد على المرحلة الأخيرة ، التى ذكرت فى سورة التوبة ، وهى قتال المشركين حتى يسلموا ، وقتال أهل الكتاب والمجوس حتى يسلموا أو يدفعوا الجزية مع الذل والصغار . .

قال ابن القيم : «فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام : أقسام محاربين له ، وأهل عهد ، وأهل ذمة . ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام ، فصاروا معه قسمين : محاربين ، وأهل ذمة» (١) .

---

(١) زاد المعاد ٣/١٦٠ .

— ٣ —

مشروعية الجهاد:

يقرر العلماء أن الله سبحانه وتعالى فرض على المسلمين قتال الكافرين فرضين: فرضا عاما، وفرضا خاصاً، أو كما يحدده أهل الفقه والتشريع: فرض عين وفرض كفاية.

* أما فرض العين، فقد شرعه الله فى حالتين:

الأولى: إذا دهم الكفار بلداً إسلاميا ولم يسع أهله ردّهم وحدهم.

والثانية: إذا استنفر (الإمام) المسلمين لنشر دين الله، ورفع لواء التوحيد.

* وأما فرض الكفاية، فقد شرعه الله فى حالتين كذلك:

الأولى: إذا كان جيش المسلمين المعدّ للجهاد كافيا فى ردّ هجوم أعدائهم، وحماية أرضهم وعرضهم.

والثانية: إذا كان الجيش الإسلامى، المنافح عن دعوة الله، قادراً على حماية نشر الدعوة.

وهذا الغرض ثابت بالقرآن والسنة

يقول الإمام الشافعى: (١) «ولما مضت لرسول الله — ﷺ — مدة من

---

(١) الأم ٤/٨٥ ـوالآية من سورة البقرة ٢١٦.

الهجرة، أنعم الله تعالى فيها على جماعة باتباعه، حدثت لهم بها ــ مع عون الله ــ قوة العدد، لم تكن قبلها، ففرض الله تعالى عليهم القتال؛ بعد إذْ كان إباحة لا فرْضاً، فقال تبارك وتعالى:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦]

وقال ــ ﷺ ــ:

«الجهاد ماضٍ منذ بعثنى الله تعالى إلى يوم القيامة، حتى تقاتل عصابة من أمتى الدجال» (٢).

* وقال ــ ﷺ ــ:

«أمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، وإنى رسول الله، فإن قالوها عصموا منىِّ دماءهم وأموالهم إلاّ بحقِّها وحسابهم على الله» (١).

والتحقيق الذى رآه ابن القيم فى مشروعية الجهاد:

ــ أن جنس الجهاد فرض عين.. إما بالقلب، وإما باللسان، وإما باليد، فعلى كل مسلم أن يجاهد بنوع من هذه الأنواع.

ــ أما الجهاد بالنفس، فهو فرض كفاية..

ــ وأما الجهاد بالمال، ففى وجوبه قولان، والصحيح وجوبه، لأن الأمر بالجهاد بالمال وبالنفس فى القرآن سواء، كما قال الله سبحانه:

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٤١]

---

(٢) رواه صاحب الاختيار.

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ٢١٢/١.

* وذكر أبو داود فى سننه: «مَنْ لم يغز أو يجهز غازيا أو يَخْلُف غَازِياً فى أَهْلِهِ بخير، أصابه الله بقارعة يوم القيامة».

*وذكر أيضا: «إذَا ضَنَّ الناسُ بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعين، واتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهادَ فى سبيل الله، أنزل الله بهم بلاء فلم يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم» (١).

* وهنا سؤال يطرح نفسه.. لماذا قدم القرآن الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس، كما فى قوله عز وجل:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٧٢]

وقوله تعالى:

﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ [التوبة: ٨٨]

*فما سر تقديم المال على النفس فى آيات الجهاد:

إن السرّ فى ذلك.. هو منهج الإسلام نفسه، فى كل ما يتصل بالدعوة إلى الدين، فالإسلام باعتباره دين الفطره من جهة، ودين التقويم والإصلاح والتسامى بالإنسان إلى أعلى المراتب من جهة أخرى.. يبدأ بالإنسان من حيث هو، فيقر للإنسان بما عليه من قصور وخوف، وحرص على ما وجد عليه آباءه وأجداده، وكراهية للتغيير والتطور، وإشفاق من بذل المال، وفرار من مواطن التضحية بالنفس، فالإنسان هو كذلك بادئ ذى بدء، ولكن النفس الإنسانية أشبه بالمنجم العميق، الذى إن أحسنت التنقيب فيه،

---

(١) زاد المعاد ٢/٥٨.

والوصول إلى أعماقه، وجدت الجواهر والذخائر، وبهرك ما فى بطنه من نفائس و بدائع.

ـ يبدأ القرآن بتقرير الواقع البشرى، فيقول:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [آل عمران: ١٤]

هذه حقيقة ثابتة لا يمكن إنكارها. والحقيقة الثانية، المتفرعة عن الحقيقة الأولى، أن الإنسان حريص على المال أكثر من حرصه على البنين، لذلك قال القرآن:

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الكهف: ٤٦]

﴿ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ [الكهف: ٣٩]

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ [الشعراء: ٨٨]

حيث قدّم المالَ باستمرار على البنين، ومن هنا كان امتحان الله للناس بما ينزله بهم من الجوع، ونقص الأموال، قبل نقص الأنفس..

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [البقرة: ١٥٥]

هذا كله سبب لتقديم المال على النفس فى آيات الجهاد.

وسبب هام آخر يتصل بتاريخ الدعوة الإسلامية، وضح فيما عرضنا من قبل، ففى خلال ثلاثة عشر عاما قضاها المسلمون فى مكة، مهبط القرآن الأول، وموطن الدعوة فى أولى مراحلها، كان سبيلها فى معاملة الكافرين دفع السيئة بالحسنة:

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾
[فصلت : ٣٤]

لذلك كان الجهاد بالمال هو أول ما يدعى إليه المسلم، وكان المشركون وكفار قريش، يسلكون سبيل مقاطعة المسلمين الأوائل، ويقبضون أيديهم على المال، حتى لا يصل إلى أنصار محمد، مؤملين أن يصرفهم الجوع، وقلة الزاد عن البقاء معه فى صفوف المسلمين.

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ﴾

[المنافقون : ٧]

وسبب ثالث، فى تقديم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس فى آيات الجهاد.. هو سنة التطور والتدرج التى سلكها الإسلام فى كل ما فرضه على المسلمين، فكما تدرج فى تحريم الخمر، وفى تحريم الربا، وفى فرض العبادات على المسلمين ـ بما فيها من صلاة وزكاة، وحج، فقد أخر الإسلام فرض الجهاد بالسلاح، وردّ العدوان بالقوة، حتى اكتمل إيمان المسلمين، وأَلِفُوا الحرمان فى سبيل العقيدة وتدرّبوا على أداء تكاليف الدعوة الروحية، التى هى عصمة المقاتل المسلم، وسر ثباته، ومصدر قوته، فالذراع التى تحمل السيف هى التى تضرب، وليس حدّ سيفه، وقلب المقاتل هو عُدّته، وليس قوة بدنه (١).

* وهنا لابد لنا من وقفة لنحدد المقصود بموضوع القتال وشرعيته.. ونرد على تلك التخرصات التى أرادت أن تشوّه وجه الإسلام.

فهل كان جهاد المسلمين وقتالهم للمشركين بدافع حب الانتقام، وطلبا

---

(١) فتحى رضوان: الإسلام ومشكلات الفكر ص٣٧ ـ ط دار المعارف بمصر.

للغنيمة ، ولاسترداد بعض ما اغتصبته منهم قريش ! وبدافع الحنين إلى الوطن والمكان الذى نشأوا فيه ، ونبتت على أرضه أجسامهم ، وبدافع الحنين إلى بقية الأهل ، الذين لم يريموا مكة ، والقلوب متعلقة بهم ... ؟ .

ـ أم كانت الرغبة فى الجهاد حبا لله ورسوله ، والجهاد فى سبيله لإعلاء دينه ، وبيع النفس لله ، ابتغاء الثمن الغالى وهو نزول الجنة دار كرامة الله ، وحرصا على ما أعده الله للشهداء من الحياة الناعمة والرزق الضافى ؟ .

لقد كان المسلمون منذ أن وطئت أقدامهم دار الهجرة ، يتحيّنون الإذن من رسول الله ـ ﷺ ـ فى قتال أعدائهم . والكيل لهم بالصاع الذى كانوا يكيلون به ، ولكن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يقول لهم ـ كما ذكرنا سابقا : « إنّى لم أومر بقتالهم » .

أما كون القتال والرغبة فيه من قِبَل المسلمين ـ كان بدافع حب الانتقام ، وطلبا للغنيمة ، فليس ذلك بحجة ، إذ لا تنهض به حجة ، وإنما كانت الرغبة لجهاد الكفار طلبا للأجر ، وإيغالا فى التضحية بالنفس فى سبيل الله ، ورغبة فى اتساع رقعة الإسلام ، وانتشار دعوته ، واستجابة لأمر الله ، حيث دعا إليه فى غير ما آية من كتابه .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

[آل عمران : ١٤٢]

وأما أن القتال كان لاسترداد ما اغتصبه المشركون من المسلمين ، أو للحنين للوطن ، أو لغير ذلك من مزاعم بعضم المؤرخين المعاصرين .. فحجتنا فى دحض هذه المزاعم ..

* أن المهاجرين بهجرتهم إلى الله ، قد تركوا ما تركوه من مال ومتاع فى

مكة، تركوه دون أسف عليه، موقنين فى قرارة أنفسهم أن الله سوف يعوضهم خيرا منه، وقد احتسبوا أجره عند الله.

* وأما الحنين إلى الوطن ... فلم يقع لهم ذلك فى بال، بدليل أن أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ عندما نقلت لرسول الله ـ ﷺ ـ قول بلال ورفاقه، وهم فى أشد أدوار الحمى، مما يشعر بالحنين إلى الوطن، قال لها: «إنهم لَيَهْذُون وما يعقلون من شدة الحمى».

وبدهى أنه ـ ﷺ ـ يعلم من نفسياتهم أنهم بالهجرة قد قاموا بفريضة فرضها الله عليهم، لا مندوحة لهم عن الأخذ بها، وقد اندفعوا إليها طواعية استجابة لأمر الله، وحرصا على أجر الهجرة التى رغّب الله فيها بقوله:

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾

[النساء: ١٠٠]

* وأما كون القتال من أجل تعلّقهم بمن بقى من الأهل فى مكة، لم يهاجر معهم، بل لم يدخل فيما دخلوا فيه من الدين، وقد حفزهم الحنين إليهم ... فحجتنا فى دحض هذا الزعم أيضا ـ أن المسلمين كانوا يعلمون من جملة، بل فى مقدمة الدين الذى احتضنوه، وارتضاه الله لهم دينا، قطع الصلة بالمشركين أيًّا ما كانت هذه الصلة، والبراءة منها سواء كانت أبوة أو بنوة، أو مصاهرة وأخوّة، أو عشيرة وقرابة بعيدة، قال تعالى:

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

[المجادلة: ٢٢]

ولقد قص الله فى القرآن براءة إبراهيم خليل الله من أبيه لما تبين له محادته لله (١). وبراءة نوح من ابنه (٢) لما عصى ربه .

(١) انظر الآية ٢٧ من سورة الزخرف .

(٢) انظر الآية ٣٧ من سورة هود .

— ٤ —

أهداف الجهاد وغايته:

إن للجهاد أهدافا سامية، وأحكاما بالغة، لأن الذى شرعه هو اللطيف الخبير، فمادام أن الآمر به هو الحكيم، فالحكمة والمصلحة ثابتة فيه قطعا، وتلمس حكمة الجهاد لايتوقف القيام به على معرفتها عند المسلم الصادق، فإن مقتضى العبودية أن ينفذ العبد أمر ربه، عرف حكمته أم لم يعرف، ولكن معرفة الحكمة تشحذ الهمم، وتقوى العزائم، وتيسر أمر التكاليف على المكلفين.

* إن الباحث المطلع على الكتاب والسنة، يستطيع أن يدرك أن أهداف الجهاد — كما شرعها الحق سبحانه — هى ما يلى:

١ — الهدف الأول: هو تعبيد الناس لله وحده..

وإخراجهم من العبودية للعباد، إلى العبودية لرب العباد، وإزالة الطواغيت كلها من الأرض جميعاً، وإخلاء العالم من الفساد، وذلك لأن خضوع البشر لبشر مثلهم، وتقديم أنواع العبادة لهم من الدعاء والنذر، والذبح والتعظيم، والتشريع والتحكيم هو أساس فساد الأجيال المتعاقبة من لدن نوح — عليه السلام — إلى يومنا هذا، وهو انحراف بالفطرة السوية عما خلقها الله عليه من التوحيد، كما قال — ﷺ — عن الله سبحانه وتعالى: قال:

(إنى خلقت عبادى حنفاء كلهم، وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به.

سلطانا ... الحديث)(١).

فهدف الجهاد الإسلامى الأكبر، هو إرجاع البشر إلى الأصل وهو الملة الحنيفية، التى تخضعهم لرب العالمين، وتجعلهم يستمدون منه سبحانه منهج حياتهم الدنيا، ويعبدونه كما أمر، ولا يعبدون أحداً غيره، وهذا الخضوع لله هو الذى يحقق لهم السعادة والفلاح فى الدنيا والآخرة.

والأدلة على أن هدف الجهاد الأكبر.. تعبيد الناس لله وحده، وإخراجهم من العبودية للعباد، وإزالة الطواغيت كلها من الأرض، وإخلاء العالم من الفساد، كثيرة.. من مثل قول الحق سبحانه:

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٣]

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٣٩]

* قال ابن كثير: «ثم أمر تعالى بقتال الكفار حتى لا تكون فتنة، أى شرك». قاله ابن عباس وأبو العالية، ومجاهد والحسن وقتادة والربيع ومقاتل ابن حيان والسدى وزيد بن أسلم. (ويكون الدين لله) أى يكون دين الله هو الظاهر على سائر الأديان(٢).

* وقال ابن الجوزى: (ويكون الدين لله) قال ابن عباس: أى يخلص له التوحيد(٣).

أى «فقاتلوهم حتى لا يكون شرك، ولا يُعبد إلا الله وحده لا شريك له، فيرتفع البلاء عن عباد الله من الأرض، وهو الفتنة، ويكون الدين كله لله،

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ١٧ /١٩٨. وانظر ما كتبه الدكتور على بن نفيع فى بحثه أهمية الجهاد ص١٥٨ طبع دار طيبة بالرياض سنة ١٩٨٥م.

(٢) تفسير ابن كثير ١/٣٢٩ (٣) زاد المسير ١/٢٠٠.

وحتى تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره » (١) .

* وقال الشوكانى : (وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة) فيه الأمر بمقاتلة المشركين إلى غاية هى ألا تكون فتنة ، وأن يكون الدين لله ، وهو الدخول فى الإسلام ، والخروج عن سائر الأديان المخالفة له ، فمن دخل فى الإسلام وأقلع عن الشرك لم يحل قتاله (٢) .

ـ ويقول الرسول ـ ﷺ ـ :
«من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله» (٣) .

ـ ويقول ـ ﷺ ـ :
«بعثت بين يدى الساعة بالسيف حتى يعبد الله تعالى وحده لا شريك له » (٤)
« وجعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعل الذل والصغار على من خالف أمرى » .

وقد كان هذا الهدف العظيم للجهاد حاضرا فى حسّ الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أثناء معاركهم مع أعداء الله .

روى البخارى (٥) عن جبير بن حية ، قال : فندبنا عمر واستعمل علينا النعمان بن مقرن ، حتى إذا كنا بأرض العدو ، خرج علينا عامل كسرى

---

(١) تفسير الطبرى ١٣/٥٣٧ .

(٢) فتح القدير ١/١٩١ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ١٣/٤٩ .

(٤) مجمع الزوائد ٦/٤٩ ، وقال رواه أحمد وفيه عبدالرحمن بن ثابت ، وثّقه المدينى وغيره ، وضعّفه أحمد وغيره وبقية رجاله ثقات ، وصححه الألبانى .

(٥) صحيح البخارى مع الفتح ٦/١٩٠ .

فى أربعين ألفا ، فقام ترجمان فقال : ليكلمنى رجل منكم ، فقال المغيرة. سَلْ عما شئت ، قال : ما أنتم ؟ قال : نحن أناس من العرب كنا فى شقاء شديد ، وبلاء شديد نمص الجلد والنوى من الجوع ، ونلبس الوبر والشعر ، ونعبد الشجر والحجر ، فبينا نحن كذلك إذ بعث رب السموات ورب الأرضين ـ تعالى ذكره وجَلّت عظمته ـ إلينا نبيا من أنفسنا ، نعرف أباه وأمه ، فأمرنا نبينا ـ ﷺ ـ أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده ، أو تؤدوا الجزية ، وأخبرنا نبينا ـ ﷺ ـ عن رسالة ربنا أنه من قُتل منا صار إلى الجنة فى نعيم لم ير مثلها قط ، ومن بقى منا مَلَك رقابكم » .

وهذا الهدف السامى ، المتضمن لإعلاء كلمة الله ، وهى الإسلام ، وإقامة سلطان الله فى الأرض ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وإخلاء العالم من الفساد الأكبر الذى هو الشرك وماينتج عنه ، وإزالة الطواغيت الذين يحولون بين الناس وبين الإسلام ، ويعبدونهم لغير الله ـ موضع اتفاق بين علماء الإسلام .

* يقول الشافعى : «فدلّ كتاب الله وسنة نبيّه ـ ﷺ ـ أن فرض الجهاد إنما هو على أن يقوم به من فيه كفاية للقيام به حتى يجتمع أمران : أحدهما : أن يكون بإزاء العدو المخوف على المسلمين من يمنعه . والآخر : أن يجاهد من المسلمين من فى جهاده كفاية حتى يسلم أهل الأوثان أو يعطى أهل الكتاب الجزية » (١) .

* ويقول محمد بن الحسن : «فرضية القتال المقصود منها إعزاز الدين وقهر المشركين» (٢) .

---

(١) الأم ٤/١٦٧ .

(٢) السير الكبير للشيبانى ١/١٨٨ .

ويقول ابن القيم(١): «والمقصود من الجهاد إنما هو أن تكون كلمة الله هي العليا، ويكون الدين كله لله.. فإن من كون الدين كله لله إذلال الكفر وأهله وصغاره، وضرب الجزية على رؤوس أهله والرق على رقابهم، فهذا من دين الله، ولا يناقض هذا إلاّ ترك الكفار على عزهم، وإقامة دينهم كما يحبون بحيث تكون لهم الشوكة والكلمة.

ويقول سيد قطب(٢):

«إن بواعث الجهاد فى الإسلام ينبغى تلمسها فى طبيعة الإسلام ذاته، ودوره فى هذه الأرض، وأهدافه العليا التى قررها الله، وذكر الله أنه أرسل من أجلها هذا الرسول بهذه الرسالة، وجعله خاتم النبيين وجعلها خاتمة الرسالات، إن هذا الدين إعلان عام لتحرير الإنسان فى الأرض من العبودية للعباد، ومن العبودية لهواه أيضا، وهى من العبودية للعباد، وذلك بإعلان ألوهية الله وحده سبحانه، وربوبيته للعالمين. إن إعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها الثورة الشاملة على حاكمية البشر فى كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها، والتمرد الكامل على كل وضع فى أرجاء الأرض الحكم فيه للبشر صورة من الصور، أو بتعبير آخر ــ مرادف الألوهية فيه للبشر فى صورة من الصور، ذلك أن الحكم الذى مرد الأمر فيه إلى البشر، ومصدر السلطات فيه هم البشر، هو تأليه للبشر يجعل بعضهم لبعض أربابا من دون الله».

* وهناك أهداف وحكم للجهاد، كلها تابعة للهدف الرئيسى الذى تقدم، منها.

---

(١) أحكام أهل الذمة، لابن القيم ١٨/١.

(٢) فى ظلال القرآن ١٤٣٣/٣ وما بعدها، وأهمية الجهاد ص١٧٢ ومابعدها.

١ ــ رد اعتداء المعتدين على المسلمين:

قال الله تعالى:

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠]

وقال سبحانه:

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٣]

وقال ــ ﷺ ــ عن ربه، إنه قال:

(إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك، وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء، تقرؤه نائما ويقظان، وإن الله أمرنى أن أحرق قريشا، فقلت: ربى إذا يثلغوا رأسى فيدعوه خبزة، قال استخرجهم كما استخرجوك، واغزهم نغزك، وانفق فَسَنُنفق عليك، وابعث جيشا نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك ... الحديث) (١).

* وقد تقدم ــ إجماع علماء الإسلام على أن رد اعتداء الكفار عن المسلمين فرض عين على كل قادر.

٢ ــ إزالة الفتنة عن الناس حتى يستمعوا إلى دلائل التوحيد، من غير عائق، وحتى يروا نظام الإسلام مطبقا ليعرفوا ما فيه من عدل وإصلاح للبشر، وما فيه من سمو فى شتى المجالات.

ــ والمقصود بالفتنة ... .

---

(١) صحيح مسلم مع شرح النووى ١٧/١٩٨.

أ ــ ما يمارسه الكفار من أشكال التعذيب والتضييق على المسلمين ليرتدوا عن دينهم .

وقد ندب الله المسلمين للجهاد ، لإنقاذ المستضعفين ، قال تعالى :

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾
[النساء : ٧٥]

ب ــ الأوضاع والأنظمة الشركية ومايتتج عنها من فساد فى شتى مجالات الحياة .

فإن هذه الأوضاع من شأنها أنها تفتن المسلم عن دينه ، لذلك صارت إزالتها هى الهدف الرئيسى للجهاد ــ كما سبق أن بينا أن أكثر علماء الإسلام يفسرون الفتنة فى قوله تعالى :
(وَقَاتِلُوهُم حَتَّى لا تكُون فِتْنَة) بالشرك .

ومن إزالة الفتنة عن المسلمين : فك أسراهم ، فإن من شأن الكفار أنهم يفتنون الأسرى عن دينهم ، لذلك قال الفقهاء : إن فك الأسير فرض عين على المسلمين ، ويتعين عليهم الجهاد حتى يستنقذوا أسرى المسلمين جميعاً (١) .

وقال ابن بطال : «فكاك الأسير واجب على الكفاية ، وبه قال الجمهور» (٢) .

ومن المعلوم أن فرض الكفاية إذا لم يقم به من يكفى صار فرض عين على القادر حتى تحصل الكفاية ، فإزالة الفتنة عن المسلمين ، وإعزاز المسلمين ، وإذلال الكافرين كلها من مقصود الجهاد ، فقد روى عن عمر بن

(١) انظر القوانين الفقهية ، لابن جزى المالكى ص ١٢٦ .
(٢) فتح البارى لابن حجر ١١٦/٦ .

الخطاب ــ رضى الله عنه ــ أنه رُفع إليه ذمىّ نخّس دابة عليها امرأة مسلمة فرمحت، فأسقطتها فانكشف بعض عورتها، فأمر بصَلْبه فى الموضع (١).

وقول الله تعالى:

﴿حَتَّىٰ يعطوا الجِزْيَة عَنْ يَدٍ وهُمْ صَاغِرُون﴾

دليل على أن إلزام الكفار الذلة والصغار من أهداف الجهاد الإسلامى، وكذلك إعزاز المسلمين، ورفع المهانة عنهم.. فقد كان من أسباب طرد الرسول ــ ﷺ ــ ليهود بنى قينقاع، أن منهم رجلاً كشف عورة امرأة مسلمة ليضحك الناس عليها، فقتله رجل من المسلمين كان حاضراً، فلم ينكر النبى ــ ﷺ ــ قتل ذلك اليهودى، الذى رام إذلال المسلمة، بل كاد أن يقتل بقية يهود بنى قينقاع حتى شفع فيهم رأس النفاق بالمدينة ــ لعنه الله وأخزاه ــ فترك الرسول ــ ﷺ ــ قتلهم لمقاصد شرعية، وأجلاهم عن المدينة (٢).

حـ ــ فتنة الكفار أنفسهم وصدُّهم عن استماع الحق أوقبوله..

وذلك أن الأنظمة الشركية تقيم حاجزاً بين الناس، واستماع الحق أو قبوله بتخريبها لفطر الناس بما تشرّعه لهم من مناهج فى شتى مجالات الحياة، فإذا فسدت فطر الناس وعقولهم، قلّ أن يستجيبوا للهدى، وإذا تربى جيل على الذلة والمهانة والعبودية للخلق من دون الخالق، وتربى على الإدمان على الخمر، والمرغ فى وحل الجنس، والتحلل من الأخلاق الفاضلة، قلّ أن يرتفع إلى مستوى النفس البشرية السوّية، التى تعرف المعروف من المنكر، وتحب الخير، وتبغض الشر إلاّ أن يتداركه الله برحمة منه، لذا كان من

---

(١) تفسير القرطبى ٨/٨٣.

(٢) البداية والنهاية ٤/٣.

أهداف الجهاد إزالة الفتنة عن الكفار أنفسهم ،بالإضافة إلى إزالتها عن المسلمين من باب أولى.

٣ــ حماية الدولة الإسلامية من شر الكفار:

ومن الأدلة على هذا الهدف العظيم ، ماروواه الإمام أحمد بسنده ، عن ابن عبد الله بن أنيس عن أبيه ، قال: دعاني رسول الله ــ ﷺ ــ فقال: إنه قد بلغنى أن خالد بن سنان بن نبيح ، يجمع لى الناس ليغزونى ، وهو بعرنة ، فأْتِهِ فاقتله ، قال: قلت يارسول الله ، انعته لى حتى أعرفه ، قال: إذا رأيته وجدت له أقشعريرة ، قال: فخرجت متوشحا بسيفى حتى وقعت عليه وهو بعرنة ــ مع ظعن يرتاد لهن منزلا ، وحين كان وقت العصر ، فلما رأيته وجدت ما وصف لى رسول الله ــ ﷺ ــ من الأقشعريرة ، فأقبلت نحوه وخشيت أن يكون بينى وبينه محاولة تشغلنى عن الصلاة ، فصليت وأنا أمشى نحوه ، أومئ برأسى الركوع والسجود ، فلما أنتهيت له قال: من الرجل؟ قلت: رجل من العرب ، سمع بك وبجمعك لهذا الرجل ، فجاءك لهذا ، قال: أجل أنا فى ذلك ، قال: فمشيت معه شيئا حتى إذا أمكننى حملت عليه السيف حتى قتلته ، ثم خرجت وتركت ظعائنه مكبات عليه ، فلما قدمت على رسول الله ــ ﷺ ــ فرآنى ، فقال: أفلح الوجه ، قال: قلت: قتلته يا رسول الله ، قال: صدقت ، قال: ثم قام معى رسول الله ، فدخل فى بيته فأعطانى عصا ، فقال: أمسك هذه عندك ياعبد الله بن أنيس ، قال: فخرجت بها على الناس فقالوا: ماهذه العصا؟ قال: قلت أعطانيها رسول الله ــ ﷺ ــ وأمرنى أن أمسكها ، قالوا: أو لا ترجع إلى رسول الله ــ ﷺ ــ فتسأله عن ذلك ، قال: فرجعت إلى رسول الله ــ ﷺ ــ فقلت: يارسول الله .. لم أعطيتنى هذه العصا؟ قال: آية بينى وبينك يوم القيامة ، إن أقلّ الناس المنحصرون يومئذ يوم القيامة ، فقرنها عبد الله بسيفه فلم تزل معه حتى إذا مات

أمر بها فصبت معه فى كفنه ثم دفنا جميعاً» (١).

ومن ذلك أمر الرسول ـ ﷺ ـ بقتل كعب بن الأشرف اليهودى (٢) وسلام بن أبى الحقيق اليهودى (٣)، فإنهما كانا مصدر خطر على الدولة الإسلامية، فأرسل لهما الرسول ـ ﷺ ـ من يقتلهما.

٤ ـ قتل الكافرين وإبادتهم ومحقهم:

وذلك لأن الكفر كالسرطان بل أشد، فإذا لم يُسْلِم الكافر، أو يخضع للحكم الإسلامى، فلابد من استئصاله حتى لا يفسد المجتمع الذى يوجد فيه. يقول الحق سبحانه:

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ﴾ [محمد: ٤]

ومن ترغيب الرسول ـ ﷺ ـ فى قتل الكافرين، قوله: «لا يجتمعُ فى النار كافر وقاتله أبداً» (٤).

ويدل على هذا أيضا حرص رسول الله ـ ﷺ ـ على قتل أبى جهل وغيره من صناديد الكفر. يقول عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ عن مقتل أبى جهل:

«فجعلت أتناوله بسيف لى غير طائل، فأصبت يده فندر سيفه، فأخذته فضربته حتى قتلته، قال: ثم خرجت حتى أتيت النبى ـ ﷺ ـ فكأنما أقل من الأرض، فأخبرته، فقال: آلله الذى لا إله إلا هو، فرددها ثلاثا، قال: قلت: آلله الذى لا إله إلا هو، قال: فخرج يمشى معى حتى قام

(١) مسند أحمد بن حنبل ٣/٤٩٦.

(٢) انظر قصة مقتله فى صحيح البخارى ٥/٢٥.

(٣) انظر قصة مقتله فى البداية والنهاية لابن كثير ٤/١٣٧.

(٤) سنن أبى داود مع عون المعبود ٧/١٧٢.

عليه، فقال: الحمد لله الذى قد أخزاك الله ياعدو الله، هذا كان فرعون هذه الأمة (١).

٥ ــ إرهاب الكفار واخزاؤهم وإذلالهم وإيهان كيدهم وإغاظتهم:

قال الله عز وجل:

﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنفال: ١٨]

وقال تعالى: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۞ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]

ومما يدل على أن إخافة العدو من مقاصد الجهاد، ماروواه الإمام أحمد، عن أم مالك البهزية، رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله ــ ﷺ ــ خير الناس فى الفتنة رجل معتزل فى ماله، يعبد ربه، ويؤدى حقه، ورجل آخذ برأس فرسه فى سبيل الله يُخيفهم ويخيفونه» (٢).

ويقول ابن القيم: «... ولا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليّه لعدوّه وإغاظته له، وقد أشار سبحانه إلى هذه العبودية فى مواضع من كتابه، أحدها قوله تعالى: (ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيراً وسعه).

سمى المهاجر الذى يهاجر إلى عبادة الله مراغما يراغم به عدوِ الله وعدوه، والله يحب من وليه مراغمة عدوه وإغاظته، كما قال تعالى:
(ذلك بأنهم لايصيبهم ظمأ ولا نَصَب ولا مخمصة فى سبيل الله، ولا يطأون موطئا

---

(١) البداية والنهاية ٢٧٩/٣، ومسند أحمد ٤٤٤/١.

(٢) المسند ٤١٩/٦.

يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين).

* وللجهاد أيضاً أهداف سامية، ومصالح كريمة، وفوائد عظيمة تتحقق للمسلمين فى ذوات أنفسهم، منها(١):

١ــ كشف المنافقين.

فإن المسلمين فى حال الرخاء والسعة ينضاف إليهم غيرهم ممن يطمعون فى تحقيق مكاسب مادية، وهم لا يريدون رفع كلمة الله على كلمة الكفر، وقد يتصنّعون الإخلاص فيخفى أمرهم على كثير من المسلمين، وأكبر كاشف لهم هو الجهاد، لأن فى الجهاد بذلاً لأغلى ما يملك الإنسان غير عقيدته ــ وهو روحه. والمنافق ما نافق إلا ليحفظ روحه، وليوفر لنفسه ملذاتها، فإذا دعا داعى الجهاد، الذى قد يعرضه لفقد روحه، انكشف نفاقه للناس.

يقول الله تعالى:

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾
[آل عمران: ١٧٩]

ويقول سبحانه:

﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ [محمد: ١٩]

ومعرفة المؤمنين للمنافقين فيها فوائد لا تحصى، فإنهم العدو الداخلى، وخطرهم يفوق خطر العدو الخارجى أحيانا، فإذا عُرفوا منعوا من الغزو مع

---

(١) أهمية الجهاد ص١٧٤ وما بعدها.

المسلمين ، ولا يستمع المؤمنون لما يعرضونه عليهم من أراجيف وتثبيط ، ومن أقاويل يلبسونها ثياب النصح والإصلاح وجاهدهم المؤمنون بما أمرهم الله به .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ٧٣]

٢ ــ تمحيص المؤمنين من ذنوبهم :

فإن المجاهد المسلم إذا أخلص النيّة لله ، إذا حضر المعركة فقتل الكفار نال ثوابا عظيما ، كما جاء فى الحديث (لا يجتمع كافر وقاتله فى النار أبداً)(١) ، وإذا خالط قلبه الرهج والخوف فى سبيل الله تحاتت عنه خطاياه ، وأما إذا قتله الكفار ، فذلك الفوز الذى لا يعدله فوز ، الشهادة وما أدراك ما الشهادة . يقول ــ ﷺ ــ :

«ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد ، يتمنى أن يرجع فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة » (٢) .

إن الشهادة فى سبيل الله هدف رفيع ، وفائدة عظيمة تعود على المسلمين من جهادهم ، يقول تعالى :

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٠ ــ ١٤٢]

وقد أدرك الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ هذا الهدف الرفيع ــ وهو

(١) سنن أبى داود مع عون المعبود ١٧٢/٧ .

(٢) صحيح البخارى مع الفتح ٣٢/٦ .

تمحيص الذنوب، وهذه الفائدة العظيمة، والمنزلة الرفيعة وهى الشهادة، فشمروا وتسابقوا للفوز بذلك.

يقول ابن اسحاق:

لما صاف رسول الله ـ ﷺ ـ أصحابه ـ فى بدر ـ قال لهم: قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض، قال عمير بن الحمام الأنصارى: يارسول الله جنة عرضها السموات والأرض، قال: نعم، قال: بخ بخ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ ما يحملك على قول بخ بخ، قال: لا والله يارسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: فإنك من أهلها، فأخرج تمرات من قرنه، ثم جعل يأكل منهم، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه.. إنها لحياة طويلة، فرمى ما كان معه من التمر، ثم قاتلهم وهو يقول:

رَكْضاً إلىَ اللّهِ بِغَيْرِ زَاد ... إلاَّ التُّقَى وعَمَلِ المِيعَاد
والصَّبْر فى اللّهِ علَى الجهادِ ... وكُل زَادٍ عرضة النَفَاد
غير التُّقَى والبرّ والرَّشَاد

وقاتلهم حتى استشهد.(١)

٣ ـ تربية المؤمنين على الصبر والثبات والطاعة وبذل النفس:

فإن الركون إلى الراحة والدعة وعدم ممارسة الشدائد والصعاب تورث العبد ذلاً وخمولا، وتشبثا بمتاع الحياة الدنيا، وخوض المعارك ومقارعة الأعداء، والتعرض لنيل رضا الله فى ساحات الوغى يصقل النفوس ويهذبهما ويذكرها بمصيرها، ويوجب لها استعداداً للرحيل، حتى تصبح ممارسة الجهاد عادة لها تشتاق لها كما يشتاق الخاملون للقعود والراحة، وتربى فى النفس

(١) البداية والنهاية ٣/٢٧٧

البشرية من الجهاد صفات كثيرة ، كالشجاعة والنجدة والصبر والأخوة والعفو، ونحو ذلك من الصفات المحمودة ، ويزول من النفس مايقابلها من الصفات المذمومة ، كالجبن والشح والأنانية .

٤ ــ الحصول على الغنائم والسَّبْى:

وإن لها لموقعا فى النفس البشرية ، ولذلك كان رسول الله ــ ﷺ ــ يعطى المجاهد القاتل سلب المقتول ، وينفل جزءاً من الغنيمة لبعض الجيش إذا قاموا بعمل حربى بمفردهم ، وقال بعض الصحابة : لما بلغه خبر عير أبى سفيان راجعة من الشام قال : «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها » (١) .

وقال ــ ﷺ ــ حين خروجه من المدينة قاصداً التعرض لعير قريش : «اللهم إنهم حفاة فاحملهم ، اللهم إنهم عراة فاكسهم ، اللهم إنهم جياع فأشبعهم (٢) » .

قال القرطبى:

«ودل خروج النبى ــ ﷺ ــ ليلقى العير على جواز النفير للغنيمة ، لأنها كسب حلال ، وهو يرد ما كره «مالك» من ذلك ، إذ قال ذلك قتال على الدنيا » .

وإذا كانت هذه هى معظم أهداف الجهاد ومقاصده ، فما الغاية التى يتوقف عندها الجهاد ؟

إن الغاية التى يتوقف عندها الجهاد الإسلامى إسلام أهل الأرض كلهم ، واعتناقهم عقيدة التوحيد من غير أهل الكتاب والمجوس .

(١) البداية والنهاية ٣/٢٥٦.

(٢) الأحاديث الصحيحة للألبانى ، الحديث رقم ١٠٠٣.

أما أهل الكتاب والمجوس فإذا دفعوا الجزية ملتزمين لأحكام الإسلام القضائية ، حال كونهم فى ذل وصغار، فإن المسلمين يوقفون جهادهم ، ويكفون عنهم ، ويحمونهم من عدوهم ، ولن يتوقف الجهاد الإسلامى مدى الحياة ، لأن الشيطان مستمر فى إغواء بعض البشر، والصراع بين الحق والباطل سنة إلهية ، لا تنتهى حتى ينتهى وجود البشر فى هذه الأرض .

الفصل الخامس

التشريعات القرآنية بشأن الحرب والسلم

يقرر القرآن أن الإنسانية كلها أمة واحدة، فيقول فى ذلك :

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

[البقرة : ٢١٣]

ويقرر أيضاً أن الإنسانية وحدة فى خلقها وأصلها، فيقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١]

فالرحم بين بنى الإنسان موصولة، وإذا كانت الألوان مختلفة، والألسنة مختلفة، والأجناس متباينة، فإن الأصل واحد، ويجب أن تكون العلاقات مبنية على الأصل الموحد، لا ــ على التخالف الظاهر، يجب أن تبنى الأمور على الجذع، لا على الغصون المتفرعة.

ولقد حدَّ الله سبحانه وتعالى، حدود العلاقات الإنسانية، فقال عز وجل :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣]

فبهذا النص يبين القرآن الكريم أن العلاقة التى يجب أن تكون السائدة التعارف، والتعارف تكون معه المودة، والتعاون وإقرار السلام، وإحياء التراحم.

وإذا كان التعارف هو الأصل الجامع للشعوب والقبائل والأجناس، فالسلام لازم من لوازمه، وهو الأساس لكل تعارف، فلا تعارف يوجب المودة مع الخصام والتناحر والتحارب. ولذلك كان الأصل فى علاقات الشعوب والدول، بعضها مع بعض، أو بعبارة أدق ــ العلاقة بين المسلمين وغيرهم السلم لا الحرب.

فالمسلم ينظر إلى من يخالفه نظرة الود الراحم، لا العداوة القاطعة، ولذلك يقول تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ * فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٠٨، ٢٠٩]

وقد ربَّى الرسول المصطفى ــ ﷺ ــ المؤمنين على المحبة، فكانوا يكرهون القتل إلاّ أن يكون جهاداً، ولذلك قال تعالى:

﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦]

وكان القتال بالجهاد ــ كما ذكرنا ــ لدفع الشر، وتعميم الخير، لأن الإسلام يدعو إلى الخير، وإلى الفضيلة، وفضيلةِ الإسلام إيجابية، وليست سلبية، فهى تدافع الرذيلة ولا تستسلم.

وإذا كان الوجود يتنازع فيه الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، فإنه لابد

من دفاع الخير، لقد أراد الإسلام للناس المحبة ولكن أراد إبليس لهم البغضاء، فكان لابد من النزاع بين مبدأ المحبة والبغضاء، وإلاّ يدفع الشر ساد الفساد، وعمت الرذائل، لذلك شرع مبدأ الجهاد لدفع الشر، ومنع الفساد.
ولقد قال الحق سبحانه:

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١]

فشرع ــ سبحانه ــ الجهاد فى الإسلام.

إن أول تشريعات القرآن بشأن الحرب ــ كان عقب الاعتداء وفتنة المسلمين وإيذائهم ليرجعوا عن دينهم، عندئذ أذن الله تعالى بالجهاد، وأوجبه، فقال سبحانه:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ﴾ [الحج: ٣٩]

ولقد قال تعالى آمراً المؤمنين بالقتال:

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ * وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ * فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠ــ١٩٣]

ويقرر القرآن فى تشريعه للحرب، أن القتال لأجل دفع الاعتداء، وأنه ينتهى بنهايته:

فما كان السبب ليستبيح دماء المخالفين لأجل المخالفة. بل يستبيحها لأنهم استباحوا دم المسلمين، ولأنهم أرادوا حمل المؤمنين على تغيير ملتهم،

وفتنوهم فى ذلك، والفتنة ــ كما قال الحق سبحانه ــ أشد من القتل.

ولأن هدف الإسلام ــ فى تشريعه للحرب ــ هو دفع الاعتداء، فإن الإسلام أباح الهدنة إذا أرادها المخالفون، وحسّنها ودعا إليها، وفى ذلك يقول تعالى وقد أذن بالقتال العام:

﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٣، ٤]

وفرض الإسلام هدنة إجبارية إن التزم بها المخالفون، وهى ألا يكون قتال فى الأشهر الحرم، وهى: المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة.

وأوجب ألا يبتدىء فيها المسلمون قتالاً، إلا أن يكون امتداداً لقتال، والسكوت يضر،

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٣٦]

* ولا قتال فى الأشهر الحرم ما دام المخالفون يحترمونها، فإن انتهكوها فلا يصح لأهل الإيمان أن يظلموا فيهن أنفسهم. يقول الحق سبحانه فى ذلك:

﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٤]

* والقرآن إذ يقر الهدنة والعهود والمواثيق.. يحترم هذه المواثيق ما احترمها المخالفون المناوئون واستقاموا عليها..

* والقرآن لا يبيح القتل والقتال لمن يريد السلام. وفى ذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ٩٤]

* ولقد أمر القرآن الكريم أن يحترم الميثاق بالنسبة لأهله ولمن هم به صلة. ولذا قال تعالى:

﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا * سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ٨٩–٩١]

فهذا النص الكريم يدل على عدة أمور:

أولها: على ضرورة احترام المواثيق، وكف القتال عن أهل الميثاق، والذين له بهم صلة قومية، ويكون سلمهم سلماً لهم، وحربهم حرباً.

وثانيها: على أن الذين يكونون ذوى صلة بقوم بينكم وبينهم عداوة، وحصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ــ أى إنهم لم يريدوا أن يكونوا مع المؤمنين على قومهم، ومع قومهم على المؤمنين، فهؤلاء لا يقاتلون.

وثالثها: على أن الذين يترددون فى موقفهم، فهم يريدون السلامة لأنفسهم بمداهنة قومهم الذين يقاتلونهم ومداهنة المؤمنين، فهؤلاء يحكم عليهم بالواقع، فإن لم يقاتلوا المؤمنين فلا سبيل عليهم، وإلا كان قتالهم حقاً بذلك الموقف البادى.

* إن هذا التقسيم يدل على أن القرآن الكريم يقرر نظرية الحياد ويحترم المحايدين، فلا يرفع عليهم سيفاً، فالناس على ذلك فى نظر القرآن الكريم ثلاثة أقسام:

القسم الأول: محاربون للمسلمين، وهؤلاء يجب قتالهم لرد اعتدائهم، والأخذ بالنواصى والأقدام من غير هوادة، وهؤلاء هم المعتدون بالقتال، أو بفتنة المؤمنين، كما قال تعالى:

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٤]

القسم الثانى: أهل الميثاق، وهؤلاء هم الذين بينهم وبين المؤمنين ميثاق عدم الاعتداء، وهؤلاء يحترم ميثاقهم، بل يمتد احترام الميثاق إلى الذين لهم به صلة، بحيث يكون سلمهم واحدة، وحربهم واحدة.

القسم الثالث: المحايدون، وهم الذين لا يكونون مع المؤمنين، ولا مع أعدائهم واقعاً، لأنه ما دام الأصل فى العلاقات هو السلم، إلا إذا حدث ما يوجب القتال، فمن لم يكن منهم ما يوجبه، فإنه لا سبيل لأحد عليهم.

وقد فهم بعض الذين لا يدرسون المسائل دراسة فاحصة مستقرية، أنه لا موضع للحياد فى الفقه الإسلامى، وذلك كلام من لم يمحص الحقائق، لأن

القران الكريم ــ كما نرى ــ جعل للحياد موضعاً ، وهم الذين يعتزلون الحرب مع المسلمين ، أو ضدهم ، فقال : لا سبيل عليهم ، فكان الحياد ثابتاً بنص القرآن الكريم (١) .

وإذا تمعنا النظر فى آيات القرآن الكريم ، التى فتحت باب القتال جهاداً فى سبيل الله ، نجدها صرحت بأن القتال كان للاعتداء من غيرنا بطريقين :

الأول : قتل المؤمنين ، والاعتداء عليهم ، وإخراجهم من ديارهم .

والثانى : بفتنتهم فى دينهم . كما قال تعالى : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) أى كل إنسان يعتنق ما يعتنق ، لا رقيب على قلبه إلاّ الله تعالى ، فلا إكراه فى الدين ، ولا فتنة فيه .

* وهنا سؤال يطرح نفسه .. ألم يُبح القرآن القتال إلا دفاعاً أو ردًّا للاعتداء .. ولم يبح الهجوم ؟

نقول : إن القرآن صريح فى أنه لا يباح القتال مع من ألقى السلام ، وبذلك يكون من المؤكد أن الإسلام لا يبيح الهجوم على الآمنين الذين يلقون السلام ، وإن ذلك حق لا ريب فيه ، لأنه لا يباح الهجوم على من لا يعلن العداوة على المؤمنين ، ولكن هل يمنع الهجوم مطلقاً ؟

وللجواب عن ذلك نقول : إن الذى استنبط من صريح الآيات التى تلوناها أننا لا نحارب إلا من اعتدى علينا أو فتننا عن ديننا ، ومن الفتنة فى الدين أن يمنع المتدين من إقامة شعائر دينه ، وأن يحال بين الحق والدعوة إليه ــ إنه فى هذه الحال يكون القتال . ولكن يزاد عليها إذا قامت العداوة التى ابتدأها غير المؤمنين بالاعتداء على المؤمنين ، ومحاولة غزوهم فى ديارهم ، أو فتنتهم

(١) الشيخ محمد أبو زهرة : المعجزة الكبرى ص٥٣٧ .

فى دينهم ، فإنه عندئذ قتال يتعين العدو المترصد ، الذى لا يألو المؤمنين إلا خبالا ، ويود عنتهم وإرهاقهم ، فلا يكون الإقتصار فى الحرب على الدفاع بأن ينتظر المؤمنون حتى يهاجمهم الأعداء ، وقد بدت عداوتهم وأعلنوها صريحة. لا إبهام فيها ، إنه كما قال بطل الجهاد ، على بن أبى طالب : «ما غُزى قومٌ فى عُقر دارهم إلاّ ذلوا». وبذلك نفسر قولنا : إن المؤمنين ما قاتلوا إلاّ رداً للاعتداء بمثله وتوقفه . ولقد ذكرنا الآيات التى تنهى عن قتل من لا يعتدى علينا ، ومن يعتزل قتالنا ، ومن يلقى علينا السلام .

* وإذا ظهر الاعتداء ، وما يسكت عنه إلا للاستعداد لمثله ، كان القتال مشروعاً بكل ضروبه لهؤلاء الأعداء بالهجوم على مآمنهم ، وبالقصد إلى مكامنهم . هكذا يقرر القرآن الكريم .

﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة : ٥]

٢ ـ ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ * كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ * اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾
[التوبة : ٦ ـ ١٠]

٣ ـ ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ ﴾ [التوبة : ١٣ ـ ١٤]

* إن هذا النص القرآنى يؤكد أن الأساس هو الابتداء بالاعتداء، فإن ابتدأ الاعتداء وجب القتال بكل ضروبه دفاعاً وهجوماً، بل إن خير الدفاع ما كان هجوماً.

* ولا سبيل لإنهاء القتال مع المعتدين إلا بإحدى خصال ثلاث:

-إما الإسلام، وأن يتوبوا ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويكونوا إخواناً.

-وإما العهد. يعاهدونه ويوفون به، فما استقاموا فالعهد قائم، وإلا فإنه ينطبق عليهم قول الله عز وجل:

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ [الأنفال: ٥٨]

-وإما الاستسلام، وأن يخضعوا لأهل الإيمان.

وقد قال الله تعالى فى ذلك:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٧،٨]

وقال عز شأنه:

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾

[محمد: ٤]

* ونصل من هذا التتبع للتشريعات القرآنية بشأن الحرب والسلم إلى حقيقتين ثابتتين:

إحداهما: أن محاربة المؤمنين لأى قوم لا يكون إلا عند اعتدائهم بإخراج

المسلمين من ديارهم، أو إيذائهم فى دينهم. ومن الإيذاء أن يمنع الدعاة إلى الإيمان من أن يلاقوا الشعوب، ويعرفوهم بالحق، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، لأنه لا إكراه فى الدين، ولكن بعد أن يتبين الحق من الباطل، والغى من الرشد، وذلك لقول الحق سبحانه:

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]

الحقيقة الثانية: أنه إذا كان الاعتداء بأى ضرب من ضروبه، فإن باب **الجهاد يفتح دفاعاً وهجوماً وغزواً والتقاء، لايمنع مانع إلا ما توجبه الفضيلة.**

وقد فهم بعض الناس، أن القتال فى الإسلام لا يكون إلاّ دفاعاً، ولا يكون هجوماً، وذلك خطأ، والحق أن القتال لا يكون لقوم إلا إذا اعتدوا، فإن كان الاعتداء حلّ قتالهم دفاعاً وهجوماً، وهم فى الحالين المعتدون، إلاّ أن يتوبوا أو يعاهدوا ويستقيموا (١).

وليس قتال المؤمنين ليكون باب الدعوة إلى الإسلام مفتوحاً بعد اعتداء من المؤمنين، بل هو رد للاعتداء، لأن القتال لأجل الدعوة لا يكون إلا بعد أن يرسل المؤمنون دعاة للإيمان، فإن أجاب بعضهم ولم يضطهد فى اعتقاده، فإنه لا قتال، ومن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه، ومن ضل فإنما يضلّ عليها.

وإن اضطهد كان الاعتداء فتنة، فوجب القتال رداً للاعتداء بمثله.

* وقد جاء الإسلام فى عصر الملوك المتجبرين، الذين كانوا يؤذون رعاياهم، فكان منهم الاضطهاد لكل من تبلغه الدعوة ويؤمن، وما أرسل النبى ـ ﷺ ـ الجيوش إلى الشام إلا بعد أن اضطهد الروم المسيطرون المسلمين، الذين أسلموا فى الشام وقتلوهم، وما حارب الذين جاءوا من

---

(١) الشيخ محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى ص ٥٤١.

بعده الفرس إلاّ لأن كسرى حاول أن يرسل من يقتل النبى - ﷺ .

* ويلاحظ من يدرس آيات الأمر بالقتال، أن فيها النهى عن الاعتداء. فالله تعالى يقول :

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾

[البقرة : ١٩٠]

* ولقد قرر القرآن الحكيم أن الاعتداء المنهى عنه قسمان:

أحدهما : الاعتداء بالقتال على قوم لم يعتدوا على المؤمنين ، وهم الذين ما جعل الله عليهم سبيلا .

ثانيها : الاعتداء فى القتال ، فيقتل من لا يقاتل ، فيقتل مثلاً الشيوخ والنساء والذرية فإن هذا اعتداء فى القتال منهى عنه ، ولذلك يقول رب العزة :

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

[البقرة : ١٩٤]

وإن مقتضى هذه التقوى ألا يُقاتلوا من لا يقاتل ، وألا يقطعوا الأشجار، وألا ينتهكوا الأعراض ، وألا يستبيحوا الأموال بغير حقها . إنما القتال لمن يحادون الله ورسوله ، إذ يقول الله تعالى :

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾

[المجادلة : ٢٢]

وأولئك الذين يحادون الله ورسوله هم الذين حاربوا المسلمين ، وأعلنوا العداوة ، وأخذوا يتربصون بهم الدوائر لا يرقبون فيهم إلاً ولا ذمة . وما عدا هؤلاء فإن السّلم هى العلاقة الدائمة ، والمودة إن وجدت مقتضياتها . وقد نصّ

القرآن الكريم على ذلك :

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾
[الممتحنة : ٨، ٧]

فالمودة موصولة ما لم يكن الاعتداء، إذ عسى الصلة أن تعود حتى بين الأعداء، كما يقول الله تعالى :

﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾
[الممتحنة : ٧]

بقى أن نذكر ــ أن القرآن الكريم فى تشريعاته للحرب والسلام، يقرر أن العدالة أساس العلاقات الإنسانية، كما قال رب العزة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء : ١٣٥]

ويقول سبحانه فى تحديد العلاقات الإنسانية العامة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾
[المائدة : ٨]

والأمر بالعدالة عام فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ [النحل : ٩٠]

وإن العدالة توجب المعاملة بالمثل، فإن اعتدوا قاومنا الاعتداء، كما قال سبحانه في ذلك:

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴾
[النحل: ١٢٦]

ومع أن الله تعالى أمرنا برد الاعتداء بمثله، في قوله تعالى:
(فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُم فاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ ما اعْتَدَى عَلَيْكُم).
أمرنا بالتقوى، فقال سبحانه:

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٤].

ولذلك يجب علينا عند المعاملة بالمثل، أن نستمسك بالفضيلة، فإن الفضيلة هي القانون العام في كل معاملة إنسانية، فإذا كان العدو يقتل الذرّية لا نقتلها، وإن كان ينتهك الأعراض لا ننتهكها، وإن كان يخرب ديار الآمنين لا نخربها ما وسعنا ذلك.

وإن القرآن العظيم، ليقرر مبدأ الوفاء بالعهد، ويشدد عليه، في قوله تعالى:

﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤]

لأن الوفاء بالعهد في ذاته قوة، وفي ذلك يقول رب العزة والجلال:

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾
[النحل: ٩١ : ٩٤].

وإن هذا النص الكريم يدل على أربعة أمور:

أولها: أن نقض العهد يؤدي إلى الزلل، ومع الزلل الضياع، فهو ليس حكمة، ولا تدبيراً ولكنه خطل.

وثانيها : إن العهد الذى يوثق بيمين الله أو بإشهاد الله تعالى عليه ، هو عهد الله إذ اتخذ الله كفيلاً ، فمن ينقضه فإنما ينقض عهد الله تعالى ، الذى وثقه بكفالته .

وثالثها : أن العهد فى ذاته قوة ، والتزامه قوة ، ولذا شبه من ينقضه ــ فى الآيات ــ بحال الحمقاء التى تغزل غزلاً وتفتله ثم تنقضه أنكاثاً ــ أى أجزاء صغيرة ، فالعهد يثبت السلم ، وفى السلم قوة وقرار ، والنقض إزالة له .

ورابعها : أنه لا يصح أن تكون سعة الأرض ، وزيادة السلطان سبباً فى الغدر ، ولذلك قال سبحانه فى بواعث الغدر ، أن تكون أمة هى أربى من أمة ، أى أوسع أرضاً ، وأكثر عدداً وأقوى سلاحاً ، فلا يصح أن يكون التوسع باعثاً للغدر ، لأنه يؤدى لا محالة إلى الضعف .

وهذا التشدد فى الوفاء بالعهد لأنه فى ذاته عدالة ، ولأن العهد فيه حد للحقوق ، وخصوصاً إذا كان بين متكافئين ، ولا يصح أن يكون الاستعداد ، وأخذ الأهبة سبباً فى ذاته للنقض ، ولكن إذا قامت أمارات تدل على أن استعداد المعاهد وأهبته نذير خيانة ، فعلى المؤمنين أن يأخذوا حذرهم ، كما قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ [النساء : ٧١]

وفى هذه الحال يطبق قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾

[الأنفال : ٥٨]

وإذا كان هناك ما يجب الاحتياط له ، فإنه يكون عند عقد العهد ، فلا يصح الاطمئنان إلى عهد من عرفوا بالخيانة ، فإن العهد معهم نوع من الاغترار .

الفصل السادس

مخططات الرسول السياسية والجهادية

— ١ —

١ — المخطط السياسى لرسول الله (ﷺ):

بعد أن تم لرسول الله — ﷺ — الاستقرار فى المدينة المنورة، وتنظيم الدولة داخلياً، عكف على دراسة الموقف الخارجى، وفى هذه الدراسة كان عليه — ﷺ — أن يحدد العدو والصديق، ومدى ما يمكن أن يقدمه الصديق حين تقع الواقعة.

* أما الصديق، فكان فى حكم المعدوم، لأن النجاشى، امبراطور الحبشة، رغم إيمانه بالله وبالرسول — ﷺ — كان لا يستطيع أن يقدم للرسول أية معونة مادية أو عسكرية، نظرا لبعد المسافة بينهما، ولأن شعبه على خلافه فى قضية الإيمان بمحمد — ﷺ — كرسول من عند الله، أضف إلى ذلك أن بطارقته قد نخروا عندما قال ما قال مثنياً على رسول الله ودعوته، فصداقة النجاشى لا تعدو أن تكون صداقة شخصية، لا تجدى فى وقت الشدة.

* أما العدو.. فهم اليهود، فى المدينة وما حولها، لأن رسول الله حوّل عصا القيادة عنهم إلى غيرهم من المسلمين، ولأن دينه نسخ دينهم، فهم عدو، ولكنهم عدو ذكى داهية، ولذلك رأى النبى — ﷺ — أن قرار تصفية هذا العدو يتطلب تخطيطاً خاصاً، وهذا ما فعله الرسول — ﷺ — فقد جعل

تصفيتهم على مراحل، على خلاف ما رسمه فى تصفيته للعرب المشركين ــ كما سنرى ــ وقد استطاع ــ ﷺ ــ بفكره الثاقب ونظره السياسى البعيد، أن يجمد عداءهم للدولة الإسلامية، واحتمل ما ظهر منهم من محاولات خبيثة، انتظاراً منه لليوم الموعود، لأن كل شىء عند رسول الله ــ ﷺ ــ يتم بقدر.

* **ومن الأعداء أيضاً: المشركون** المنتشرون فى أنحاء الجزيرة العربية، ومن تحالف معهم، وقد ظهرت عداوة هؤلاء ــ كما ذكرنا ــ منذ أن دعا رسول الله إلى عبادة الله الواحد الأحد، ونبذ عبادة الأصنام.

* **ومن الأعداء أيضاً.. المنافقون**، وهم أفراد لا يحملون السيف فى وجه رسول الله ــ ﷺ ــ ولكنهم يعملون خلف الكواليس، ويدفعون من يحمل السيف فى وجهه.

* **ومن الأعداء** كذلك: وكما توقع رسول الله ــ ﷺ ــ **فارس والروم**، وهؤلاء رغم أنهم لم تظهر عداوتهم بعد، ولكن لابد وأن تظهر، لأنهم لن يسرّهم أن تقوم بجوارهم دولة حديثة قوية يسودها العدل والإنصاف، لأنها تشكل خطراً عليهم، وعلى أنظمتهم الظالمة الجائرة.

وبالفعل ــ وكما قدر الرسول ــ ﷺ ــ ما إن شعر الروم بقوة دولة الإسلام حتى جمعوا لها الجموع فى مؤتة، ثم فى تبوك، ثم حشدوا لها الجيوش ونازلوها فى أماكن عدة.

وقد أشعر رسول الله ــ ﷺ ــ أصحابه بعداوة هؤلاء، وأن الواقعة بينهم وبين المسلمين لابد واقعة عندما ضرب بمعوله صخرة أثناء مساعدته فى حفر الخندق حول المدينة، فتطاير الشرر منه، فقال ــ ﷺ ــ:

«فتحت عليكم بلاد فارس».. «فتحت عليكم بلاد الروم»..

ولم يكن المسلمون آنذاك يتوقعون ذلك ، ولكن الرسول ـ ﷺ ـ بنظره السياسى العميق النافذ، أدرك هذا كله منذ أن أخذ فى التخطيط لدولة الإسلام ، فى المدينة المنورة .

اتخاذ القرار:

وانطلاقاً من هذا التقدير الدقيق للموقف ، اتخذ رسول الله قراراً مؤلفاً من ثلاث نقاط : ومن الطبيعى أن لا يعلن رسول الله ـ ﷺ ـ عن قراره هذا ، لأنه يعتبر سراً من الأسرار العسكرية والسياسية ، التى لا يجوز أن يُطلع عليها أحداً ، ثم أخذ ينفذه بدقة متناهية ، وقد انكشف لنا هذا المخطط العسكرى من دراسة سيرة الرسول ـ ﷺ ـ ودراسة الحركة التى كان يحركها فى دولة الإسلام بجميع اتجاهاتها .

* وهذه النقاط الثلاث التى اشتمل عليها مخطط رسول الله هى :

أولاً : المراقبة المستمرة لتحركات العدو:

فقد كان ـ ﷺ ـ دائم الاستطلاع لأخبار العدو. فكان يجهز السرايا الخاصة لهذه الغاية ، ولم تكن مهمة هذه السرايا وأمثالها مهمة قتالية ، بدليل أنها لم تقاتل عندما اصطدمت بعضها بقوات قريش ، وإنما كانت مهمتها استطلاعية بحتة .

وبهذا الاستطلاع النشيط والدائم ، وبما كان يبثه ـ ﷺ ـ من العيون السرية هنا وهناك ، استطاع رسول الله أن يحيط علما بأخبار العدو، ويتصرف على ضوء ما يتجمع لديه من المعلومات .

ثانياً : تثبيت وتجميد أكبر عدد ممكن من أطراف العدو بعقد موادعات ـ أى اتفاقات هدنة معها :

وبذلك تتقلص قوة العدو، ويسهل عليه فى الوقت المعلوم . وقد عقد الرسول ـ ﷺ ـ الكثير من هذه الموادعات ، ومن ذلك ـ كما ذكرنا ـ

موادعة جميع طوائف اليهود فى المدينة وما جاورها، وموادعة بنى صخرة عندما خرج فى غزوة ودّان، وموادعة بنى مدلج عندما خرج فى غزوة العشيرة وموادعة غيرهم.

ثالثاً: القيام ببعض المناوشات الجانبية:

والغاية من ذلك إرباك العدو من جهة، وإثبات الذات وتقوية معنويات المسلمين من جهة أخرى، وفى اعتقادى أن غزوة بدر رغم ما تمخّضت عنه من نتائج خطيرة هى من هذا القبيل. ولو أن رسول الله - ﷺ - لم يقم بمثل هذه المناوشات الجانبية، التى تظهر قوة دولة الإسلام فى المدينة، لنهشت القبائل المدينة المنورة، وتقاسمتها مزعاً.

إن هذه الانتصارات الجزئية، التى كان يحققها المسلمون، كانت تقوى معنويات المسلمين، وتعدهم نفسياً للوقائع الحاسمة التى يخطط لها الرسول بدقة وسرية فائقتين. وخلال ذلك كان رسول الله - ﷺ - مضطراً لصدّ الكثير من الهجمات التى توجه لدولة الإسلام.

رابعاً: تصفية الذين يعملون فى الخفاء، ويؤججون نار الفتنة إفراديا:

وقد تم ذلك بسلسلة من الاغتيالات - أو الإعدام الفردى، فقد أرسل رسول الله - ﷺ - من يغتال كعب بن الأشرف، وسلام بن أبى الحقيق، وخالد بن سفيان، وقتل باعزّة الشاعر عندما وقع فى يده، وغيرهم.

وخلال ذلك أيضاً، كان من مخطط رسول الله - ﷺ - إعداد قواته المسلحة إعداداً يضمن لها الثبات والنصر فى المعارك المتوقعة. وقد تناول هذا الإعداد ثلاثة ميادين:

الأول: إعداد القوة البشرية لجيش الجهاد.

الثانى : الاعداد المعنوى .

النالث : تدبير السلاح والعتاد .

أولاً : ميدان إعداد القوة البشرية :

وفى هذا الميدان عمل رسول الله ـ ﷺ ـ على تحقيق شعار وحدة الأمة. وأن المسلمين جميعاً هم الجيش، فنجح فى ذلك نجاحاً يعتبر أسطورة التاريخ ، فقد كان الرجال والنساء والأولاد فى دولة الإسلام الفتية محاربين من الطراز الأول ، وتذكر لنا كتب السيرة أنه ـ ﷺ ـ عندما كان يعلن الاستنفار العام لم يتخلف عنه أحد ، وهذا يدل على ان الشعب جيش كله ، وأجدنى فى غنى عن ذكر تسابق الأطفال للالتحاق بالجيش السائر إلى الجهاد ، لأن أمرهم صار معروفاً .

ثانياً : ميدان الإعداد المعنوى :

وقد أقامه رسول الله ـ ﷺ ـ على ثلاث دعائم :

الأولى : إيمان المؤمنين بالقضية التى يجاهدون من أجلها ، وقد نجح ـ ﷺ ـ فى غرس الإيمان فى القلوب ، حتى كان النغم الشادى ، الذى تعزفه أوتار قلب كل مؤمن ..

فقد آمن الصحابة بالله ربًّا ، وبالإسلام ديناً ونظاماً منقذاً للبشرية من الظلم الواقع عليها ، الظلم السياسى ، والظلم الاجتماعى ، والظلم الاقتصادى ، ومن الظلمات التى أحاطت بالبشرية ، ظلمات فى العقيدة ، وظلمات فى العقل ، من أجل ذلك عمق إيمانهم ، وضحوا فى سبيل هذا الإيمان بكل غال ونفيس .

والدعامة التانية : هى تحقيق كرامة الفرد المؤمن فى دولة الإسلام ، فلا مظلوم ولا مشرد ، ولا جائع ولا عارى ، ومن مات وترك مالاً فلورثته ، ومن ترك

كلاً أو عيالاً فعلى الدولة الإسلامية، والمسلمون سواء كأسنان المشط يسعى بذمتهم أدناهم، ولا فضل لواحد على آخر إلا بمقدار ما يكنه من إخلاص، وما يحقق من عمل صالح.

إن دولة تقدم كل هذا للفرد المسلم، وفى ذلك العصر بالذات، يفديها هذا المواطن بدمه وماله وولده، ويدافع عن كيانها، ويبذل لامتداد ظلالها على المعمورة كل ما يملك.

والدعامة الثالثة: تقوى الله، والإقبال على الله، وهجر الفواحش ما ظهر منها وما بطن فالله وحده بيده النصر وتثبيت القلوب والأقدام.

ثالثاً: ميدان إعداد السلاح والعتاد الحربى:

وفى هذا الميدان عمل رسول الله ـ ﷺ ـ على تصنيع السلاح محلياً، لئلا يتحكم به أحد فى الساعة الحرجة، وقد أرسل عروة بن مسعود. وغيلان ابن سلمة إلى جرش بالأردن، ليتعلما صنعة العرادات والمنجنيقات، وهى أضخم الالآت الحربية آنذاك.

وكان يحشد للعدو السلاح المؤثر الفعال. وكانت الخيل من أهم أدوات الجهاد، ولذلك فقد شجع الرسول ـ ﷺ ـ على اقتنائها وجعلها من أفضل ما يكسب الإنسان، وجعل الخير معقوداً فى نواصيها، فقال ـ ﷺ:

«الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة» [متفق عليه]

هذا هو جيش الجهاد. الذى أعده رسول الله ـ ﷺ ـ تنفيذاً لأمر ربّه بالجهاد، ليكون أداة طيعة لتنفيذ مخططه الجهادى لتدعيم دولة الإسلام.

من كل ما تقدم ندرك أن التحرك السياسى الذى كان يقوم به رسول الله، لم يكن تحركاً عشوائياً، ولكنه كان تحركاً خاضعاً لمخطط دقيق،

وبرنامج واضح ، وضعه رسول الله ــ ﷺ ــ فى المدينة المنورة ، بعد أن أذن له ربه بالقتال ، ثم مضى فى تنفيذه بدقة وحذر بغية إقامة دولة الإسلام ، التى جعلت لها هدفاً هو نشر عقيدة التوحيد ، وتخليص الناس من الظلم والظلمات .

وقد بدأ رسول الله بتنفيذ أمر ربه بالقتال بارسال مجموعة من سرايا الإرباك ، لإخلال توازن العدو الأول ممثلاً فى قريش ومن حالفها ، وقد كانت هذه السرايا ــ كما سنذكر ــ بمعدل سرية كل شهر تقريباً حتى كانت الواقعة الكبرى فى بدر .

— ٢ —

المخطط الجهادى لرسول الله

أولاً : سرايا الاستطلاع :

بدأ الرسول — ﷺ — فور تثبيت أسس دولة الإسلام الجديدة فى المدينة ، وفور الإذن له بالقتال ، صراعاً مرحلياً ضد الوثنية العربية وزعيمتها قريش ، تمثل بشن حروب صغيرة متقطعة ضد القوافل ، والمواقع الوثنية ، أطلق عليها المؤرخون اسم « السرايا » .

استهدفت أولاً الاستطلاع ، كما استهدفت إرباك قريش وحلفائها ، وإضعافهم وتحطيم معنوياتهم ، وضرب نشاطهم التجارى ، الذى يمثل عصب حياتهم ، وشريان وجودهم ، والحصول على مورد للتموين والتسليح ، فى أعقاب الأزمة الاقتصادية والمالية ، التى كان يعانى منها المسلمون فى مطلع عهدهم بالهجرة .

واستهدفت سرايا رسول الله أيضاً إنذار أعداء الدولة الناشئة من غير قريش وحلفائها ، كاليهود فى الداخل ، وجماعات البدو فى الخارج ، بأن المسلمين قد أصبحوا قادرين على الرد ، ومستعدين للتصدى لأى عدوان يستهدف منجزاتهم التى حققوها بالصبر طيلة أربعة عشر عاماً من الجهد والعناء .

ومن جهة أخرى جاءت هذه الهجمات أشبه بمناورات حيّة ، كان المجاهد المسلم يجسّ بها نبض أعدائه ، ويختبر مقدرتهم الحربية ، مادياً ومعنوياً ،

ويمارس مزيداً من التدريب ، وتنمية قدراته وطاقته على الصمود .

* انطلقت المجموعة الأولى من السرايا منذ منتصف السنة الأولى للهجرة. وكان ترتيبها كالتالى:

١ ــ سرية حمزة بن عبد المطلب ..

* ففى شهر رمضان أرسل الرسول ــ ﷺ ــ عمه حمزة بن عبد المطلب، فى سرية من ثلاثين رجلاً من المهاجرين، وعقد له لواء أبيض حمله أبومرثد حليف حمزة، ليعترض عيراً لقريش آيبة من الشام فيها أبوجهل وثلثمائة. من أصحابه المشركين، فسار حمزة حتى وصل ساحل البحر من ناحية العيص، فصادف العير هناك، فلما تصادفوا للقتال، حجز بين الفريقين مجدى بن عمرو الجهنى، فأطاعوه وانصرفوا(١) دون قتال.

= وفى ذلك يقول حمزة :

ألاَ يا لقَوْمى للتحلّم والجَهْلِ ... وللنَّقْصِ مِنْ رأيِ الرِّجَالِ وللعَقْلِ
وللراكِبينَا بالمَظَالِمِ لَمْ نَطَأْ ... لَهُم حُرُماتٍ مِنْ سَوَامٍ وَلاَ أهْلِ
كأنَّا تَبَلْنَاهُم وَلاَ تُبل عندَنَا ... لَهُم غيرَ أمرٍ بالعَفَافِ وبالعَدْلِ
وأمر بإسلام فلاَ يَقْبَلُونَه ... ويَنْزِلُ منهُم مثل منزلَةِ الهَزْلِ
فما بَرَحُوا حتى انْتدِبتُ لغَارةٍ ... لَهُم حَيْثُ حَلُّوا ابتغى رَاحَةَ الفَضْلِ
بأمر رسولُ اللهِ، أوّل خافِقٍ ... عَلَيْهِ لوَاءٌ لم يكُنْ لاَحَ مِنْ قَبلْي
لِوَاءُ لدَيْه النَّصْرُ من ذِى كَرَامَةٍ ... إلهٍ عَزِيز فعلُه أفْضَلُ الفِعْلِ
عَشِيّة سَارُوا حَاشِدِينَ وكلّنا ... مراجِلِه فى غيظِ أصْحَابِهِ تَغْلِي
فلمَّا تَرَاءيْنَا أنَاخُوا فعَقَلوا ... مَطَايَا وعَقّلْنَا مدَى غَرضِ النَّبْلِ

---

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ص٢٣٠.

فقلنا لهم: حَبْلُ الالهِ نَصيرُنا ... وما لكُمْ إلاّ الضَّلالةُ مِن حَبْلِ
فثارَ أبو جَهلٍ هُنالِكَ بَاغِياً ... فَخَابَ ورَدّ الله كَيْدَ أَبِى جَهْلِ
وما نَحنُ إلاّ فى ثلاثين راكباً ... وَهُمْ مِئتانِ بَعْدَ وَاحدة فَضْلِ
فيَا لَلُؤَىّ لا تُطيعُوا غُوَاتكُمْ ... وفِيئُوا إلى الإسلام والمَنْهَجِ السَّهْلِ
فإنّى أخافُ أنْ يُصَبُّ عليكمْ ... عذَابٌ فتَدْعُوا بالنَّدامَةِ والثُّكْلِ

٢ ــ سرية عبيدة بن الحارث:

وفى الشهر التالى، فى شوال، جهّز الرسول ــ ﷺ ــ سرية لعبيدة بن الحارث فى ستين رجلاً من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد، ليعترض عيراً لقريش، تحمل تجارتها، بقصد إرباك العدو، وإيقاع الاضطراب فى صفوفه، فسار بهم عبيدة حتى بلغ ماء بأسفل ثنية المرة ببطن رابغ، فلقى بها جمعاً عظيماً من قريش، يقدر بمائتى رجل، على رأسهم أبوسفيان، وتراشقوا بالنبال، ولم يتهيئوا لقتال، ثم انصرف الفريقان كل منهما تحميه حامية (١)، إلا أن سعد بن أبى وقاص ــ رضى الله عنه ــ قد رُمى بسهم يومئذ، فكان أول من رُمِىَ بسهم فى الإسلام.

قال ابن إسحق: وقال سعد بن أبى وقاص فى رميته تلك فيما يذكرون (٢):

ألاَ هَلْ أَتَى رسُول الله أنّى ... حَمَيْتُ صَحَابَتِى بصُدُورِ نِبْلِي
أذُودُ بها أوائِلَهُم ذِيَاداً ... بكلّ حُزُونَةٍ وبكُلّ سَهْلِ
فمَا يَعْتَدّ رَامٍ فِى عَدو ... بسَهْمٍ يا رَسُولَ اللّهِ قَبْلِي
وذَلِكَ أنّ دِينَكَ دِينُ صِدقٍ ... وذُو حَقٍّ أتَيتَ بِهِ وَعَدْلِ

---

(١) عيون الأثر ج١ ص٢٢٤.
(٢) الروض الأنف ١٩/٢.

يـنـحـى المـؤمـنـونَ بـهِ، ويَـجْـزى ... بـهِ الـكُـفَّـارَ عـنـدَ مَـقَـامِ مـهـلِ
فـمَـهْـلاً قَـدْ غـويـت فَلاَ تَـعِـبْنِـي ... غـوىَّ الـحَـىِّ وَيْـحَـكَ يـابـنَ جَـهْـلِ

٣ ــ سرية سعد بن أبى وقاص:

وفى الشهر الثانى، فى ذى القعدة، جهز رسول الله ــ ﷺ ــ سرية لسعد بن أبى وقاص فى عشرين رجلاً مشياً على الأقدام، فكانوا يكمنون نهاراً ويسيرون ليلاً، وفى اليوم الخامس بلغوا الخرّار (وادى بالحجاز) حيث أمرهم رسول الله ــ ﷺ ــ ألا يجاوزوها، وكانت القافلة القرشية قد سبقت سرية المسلمين بيوم كامل، فلم يدركوها، فرجع سعد ولم يلق كيداً (١).

٤ ــ غزوة ودّان (٢):

وفى صفر من السنة الثانية، خرج رسول الله ــ ﷺ ــ بنفسه على رأس قوة قوامها مائتا مقاتل، ما بين فارس وراجل، وهدف هذه الغزوة الوصول إلى ودّان، لتهديد طريق قريش التجارية بين مكة ودمشق. والعمل على التحالف مع القبائل المسيطرة على هذه الطريق، وكان يحمل لواءه عمه حمزة. ولم يلق هناك حرباً، لأن العير كانت قد سبقته. وهذه الغزوة حققت هدفين.

الأول: إرباك قريش.

والثانى: عقد معاهدة مع بنى ضمرة، أنهم لا يغزونه، ولا يكثرون عليه جمعاً، ولا يُعينون عليه عدواً (٣)، وأن لهم النصر على من رامهم، وأنه إذا

---

(١) الروض الأنف ٢/٢٢.

(٢) أجمع المؤرخون وكتاب السيرة على تسمية العمليات العسكرية التى قادها الرسول بنفسه (غزوة) ولم يشذ عن هذه التسمية سوى (فتح مكة) تكريماً للبيت العتيق، وودّان قرية بين مكة والمدينة بينها وبين الأبواء ستة أميال تقريباً.

(٣) عيون الأثر ١/٢٢٦ والروض الأنف ٣/١٨.

دعاهم لنصر أجابوه، وكتب لهم كتاباً بذلك، ثم عاد إلى المدينة.

٥ ــ غزوة بواط (١):

وفى شهر ربيع الأول، سمع رسول الله ــ ﷺ ــ بعير لقريش تحمل تجارتها، فجهز سرية قتال قوامها مائتا مقاتل، قادها الرسول ــ ﷺ ــ بنفسه، إلى منطقة بواطــ على الطريق المؤدية من مكة إلى دمشق، وكان هدف هذه السرية، تنفيذ المخطط الذى وضعه ــ ﷺ ــ لإرباك قريش، والإيقاع بالقافلة التجارية التي يحرسها أمية بن خلف، وعندما علمت القافلة بخروج الرسول أسرعت بحركتها، وسلكت طريقاً آخر غير الطريق المعتاد، وعندما وصلت قوات المجاهدين إلى بواط، لم تلق بالقافلة، لأن عيون قريش كانت ترصد طريق القوافل المعبدة، وتمكنت من الإفلات والتملّص من لقاء المسلمين، وقد بقى رسول الله ــ ﷺ ــ ورجاله فى بواط ما يقارب الشهر الواحد، ثم رجع إلى المدينة المنورة.

٦ ــ غزوة العشيرة(٢):

وفى جمادى الأولى، جهز الرسول ــ ﷺ ــ سرية قوامها مائة وخمسون مجاهداً من المهاجرين، حين علم بخروج قريش بأعظم عير لها، فقد جمعوا فيها أموالهم حتى لم يبق بمكة قرشى أو قرشية لها مثقال فصاعداً إلا بعث به فى تلك العير، وكان يرأسها أبوسفيان ومعه بضعة وعشرون رجلاً.

فخرج لها رسول الله ــ ﷺ ــ بنفسه، واستخلف على المدينة أباسلمة ابن عبدالأسد، وحمل لواءه عمه حمزة، ولم يزل سائراً حتى بلغ العشيرة قريباً من ينبع فوجد العير قد مضت، فأقام بالعشيرة أياماً.

---

(١) الروض الأنف ٢١/٣.
(٢) الروض الأنف ٢١/٣.

وفى هذه الغزوة عقد ـ ﷺ ـ معاهدة عدم اعتداء مع بنى مدلج وحلفائهم من بنى ضمرة، ثم رجع ـ ﷺ ـ إلى المدينة ينتظر هذه العير حتى ترجع.

٧ ـ غزوة سفوان (وهى غزوة بدر الأولى):

لم يقم رسول الله ـ ﷺ ـ بالمدينة المنورة، حين قدم من غزوة العشيرة إلا ليالى قلائل لا تبلغ العشر، حتى أغار كُرز بن جابر الفهرى على مواشى المدينة وإبلها، التى كانت تسرح فى أطرافها، فاستاقها، فلاحقه الرسول ـ ﷺ ـ بنفسه، حتى بلغ وادى سفوان، قريباً من بدر، وفاته كُرز ولم يدركه، فرجع إلى المدينة، وسميت هذه المطاردة باسم بدر الأولى(١).

٨ ـ سرية عبد الله بن جحش:

ما إن قفل الرسول ـ ﷺ ـ عائداً إلى المدينة، حتى جرد ثمانية مقاتلين (وقيل اثنى عشر) بقيادة عبد الله بن جحش، وجميعهم من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد..

تحركت السرية ومع قائدها رسالة مكتوبة، أمره الرسول ـ ﷺ ـ أن لا يفتحها إلا بعد يومين من مسيره، فإذا فتحها وتفهم المهمة، مضى فى تنفيذها غير مستكره أحدًا من رجاله على مرافقته.

كان مضمون الرسالة: «إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة(٢) فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم».

---

(١) ابن هشام ٢/ ١٤٢، تاريخ الطبرى ٢/٤٠٢، وابن سعد ٢/١/١-٥ والواقدى ١/٩، والمسعودى: التنبيه والاشراف ص٢٠٠، والبلاذرى، أنساب ١/٢٨٧، تاريخ اليعقوبى ٢/٥٧، تاريخ خليفة بن خياط ١/١٣، ابن حزم: جوامع السيرة ١٠٠، الكامل لابن الأثير ٢/١١١. والبداية والنهاية ٣/٢٤٤.

(٢) هى نخلة اليمانية: وهو الوادى المسمى باسم اليمانية المعروف بين مكة والمدينة والطائف.

وفى نخلة ـــ وهى المكان المحدد لتنفيذ المهمة ، فتح الخطاب ، فلما نظر عبدالله بن جحش فى الكتاب ، قال : « سمعاً وطاعة » ، ثم قال لأصحابه : قد أمرنى رسول الله ـ ﷺ ـ أن أمضى إلى نخلة أرصد بها قريشاً حتى آتيه منهم بخبر، وقد نهانى أن أستكره أحداً منكم ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فماض لأمر رسول الله ـ ﷺ ـ فمضى ومضى معه أصحابه ، ولم يتخلف منهم أحد ، ومضوا حتى نزلوا بنخلة ، فمرت بهم قافلة لقريش ، تحمل تجارة لمكة ، فهاجموها ، وكان فيها عمرو بن الحضرمى ، وعثمان بن عبدالله بن المغيرة ، وأخوه نوفل ، والحكم بن كيسان ، فلما رآهم القوم هابوهم ، وقد نزلوا قريباً منهم ، فأشرف لهم عُكاشة ابن محصن ، وكان قد حلق رأسه ، فلما رأوه أمنوا وقالوا : « عُمّار، لا بأس عليكم منهم » ، وتشاور القوم فيهم ـــ وذلك فى آخر يوم من رجب ، فقال القوم : والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعنّ منكم به ، ولئن قتلتموهم لتقتلنّهم فى الشهر الحرام ، فتردد القوم ، وهابوا الإقدام عليهم ، ثم شجعوا أنفسهم عليهم ، وأجمعوا على قتل من قدروا عيه منهم ، وأخذ ما معهم ، فرمى واقدُ بن عبدالله التميمى عمروَ بن الحضرمى بسهم فقتله ، واستأسر عثمان بن عبدالله ، والحكم بن كيسان ، وأفلت نوفل بن عبدالله فأعجزهم ، وأقبل عبدالله بن جحش بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ـ ﷺ ـ المدينة .

وعندما أبلغوا الرسول ـ ﷺ ـ تفاصيل الحادث ، قال :

« ما أمرتكم بقتال فى الأشهر الحرم » .

وأوقف التصرف بالأموال والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً ، فأسقط فى أيدى القوم ، وعنّفهم إخوانهم فيما صنعوا ..

وقد استغلت قريش هذا الحادث أبشع استغلال ، فقامت بحمله تشهير

ضد المسلمين، وقالوا لقد استغل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا الرجال..

لكن آيات القرآن الكريم سرعان ما تنزلت لتحدد الموقف الحازم إزاء قريش الوثنية، التى كانت قد سبقت إلى انتهاك الأشهر الحرم، فقاتلت المسلمين الجدد فيها، وعذبتهم واضطهدتهم وفتنتهم عن دينهم، وأنه قد آن للمسلمين أن يردّوا على هذا الانتهاك الصريح، لأن التشبث بحرمة الشكليات هزيمة لا مبرر لها فى ساعة الصراع العنيف بين المعسكرين..

نزل قول الله تعالى(١):

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ [البقرة: ٢١٧]

أى إن كنتم قتلتم فى الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام، وإخراجكم منه. وأنتم أهله ــ أكبر عند الله من قتل من قتلتم منه.

(والفِتْنَةُ أكبرُ من القتل) أى قد كانوا يفتنون المسلم فى دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه، فذلك أكبر عند الله من القتل.

(وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُم حَتَّى يَرُدُّوكُم عَن دِينِكُم إِنِ اسْتَطَاعُوا).

أى ثم هم مقيمون على أخبث من ذلك وأعظمه، غير تائبين ولا نازعين.

---

(١) تاريخ الطبرى ٤١٠/٢، ابن سعد ٥/١/٢، الواقدى ١٣/١، البلاذرى ٣٧١/١ تاريخ اليعقوبى ٥٨/٢، الروض الأنف ٢٤/٣، ابن هشام ٦٠٢/٢.

فلما نزل القرآن بهذا الأمر، وفرّج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الخوف، قبض رسول الله ـ ﷺ ـ العير والأسيرين. وبعثت إليه قريش فى فداء عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، فقال رسول الله ـ ﷺ :

«لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا ـ يعنى سعد بن أبى وقاص، وعتبة ابن غزوان، فإنا نخشاكم عليهما، فإنْ تقتلوهما، نقتل صاحبيكم، فقدم سعد وعتبة فأفداهما رسول الله ـ ﷺ ـ منهم.

وهذا يدل على مشروعية المعاملة بالمثل فى القتال والأسرى، فإن قتلوا أسرى المسلمين، قتل المسلمون أسراهم، وإن فادوهم بالمال، فَدَى المسلمون بالمال، وإن استرقّوا المسلمين، ضرب عليهم المسلمون الرّق، ومن هنا كان نظام الرق فى الإسلام، إذ لا يعقل أن يسترق العدو أسرى المسلمين ويُفادى أسرى المشركين، فإذا ما توقف العدو عن الاسترقاق توقف المسلمون عنه، ومن هنا لم يكن الرق من الأنظمة الأصيلة فى الإسلام، بل هو تابع لقاعدة المعاملة بالمثل(١).

فلما تجلّى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه حين نزل القرآن، طمعوا فى الأجر، فقالوا: يا رسول الله: أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين؟ فأنزل الله عز وجل فيهم:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٨]

فوضعهم الله عز وجل من ذلك على أعظم الرجاء(٢).

---

(١) انظر نظام الرق فى الإسلام ـ لعبد الله علوان ط دار السلام بحلب سنة ١٤٠٠ هـ.
(٢) الروض الأنف ٣/ ٢٤.

* وفى هذه الغزوة قال عبد الله بن جحش:

تـعـدون قـتـلا فـى الحرام عظـيـمة ... وأعـظَـمُ مـنـهُ لَـو يـرَى الرُّشدَ رَاشِدُ
صُـدُودُكُـمَ عـمّـا يَـقُـولُ محـمـدٌ ... وكُـفـرٌ بـهِ واللّـهُ رَاءٍ وشَـاهِـدُ
وإخراجُكُم من مَسْجِدِ اللّهِ أهْلَه ... لِـئَـلاّ يُـرَى لله فِـى البَيْتِ سَاجِدُ
فـإنَّـا وَإنْ عـيـرتـمـونـا بـقـتـلَـةٍ ... وأرجـف بـالإسْـلاَمِ بـاغٍ وحَـاسِـدُ
سَقَيْنَا من ابن الحَضْرَمِيِّ رماحَنَا ... بـنـخْـلَـةَ لمـا أوْقَـدَ الحـرب وَاقِـدُ
دما وابن عبد اللّهِ عثمان بَيْنَنَا ... يُـنَـازِعـه غـلٌّ مـن الـقـدّ عَـانِـدُ

وبعد هذا التطور التشريعى الذى أحلّ قتال العدو فى أى زمان، دخل الصراع بين المسلمين والمشركين فى مراحل أشد حسماً، واتسعت الهوة بين المعسكرين، وصمم المسلمون على أن لا يتركوا فرصة تسنح لهم للإيقاع بعدّوهم إلا اغتنموها.

كما أدرك المشركون وقادتهم — فى مكة — أن المسلمين بقيادة رسول الله — ﷺ — مصممون على معاقبتهم عسكرياً على ما ارتكبوه فى حقهم من سيئات.

وليس من غرضنا فى هذا البحث، أن نؤرخ لغزوات الرسول ومواقعها وعدد السرايا وأفرادها، وإنما الغرض إبراز السياسة الحكيمة التى اتخذها رسول الله — ﷺ — مع قريش، بعد أن أذن الله له فى القتال، والوقوف منها موقف المهاجم.

وقد ذهب بعض المؤرخين المعاصرين، إلى أن الغرض من هذه السرايا شيء آخر غير الحرب، ذلك أن قوافل قريش كان يحميها من أهل مكة من تصلهم بالكثير من المهاجرين أواصر القربى، فلم يكن يسيراً عليهم أن يقتل بعضهم بعضا، وأن يعرّضوا مكة والمدينة جميعاً لحرب أهلية، استطاع المسلمون والوثنيون جميعاً اتقاءها بمكة ثلاث عشرة سنة».

وهذا الرأى يحتاج إلى شيء من التمحيص ، ذلك لأن قريشاً لم تكن تتورع أن تشن حرباً عواناً على الرسول وصحبه ، لا تبقى ولا تذر ، ولم تفكر إن هى نازلت الرسول وصحبه أن يجر ذلك إلى حرب أهلية ، فقد نُشّئت على الحروب والغزوات والثارات لأتفه الأسباب . ولكن الواقع أن قريشاً بعد أن هاجر الرسول - ﷺ - إلى المدينة ، وبعد أن صار له فيها صحابة ومؤيدون ، وتكونت بها جبهة قوية ، وبعد أن أخذ الرسول - ﷺ - فى محالفة القبائل القريبة منه ، بعد ذلك أصبحت ترهب جانبه ، وتخشى بأسه ، وأدركت باستقراء الحوادث أن هذه التضييقات ، التى كان يعمد إليها رسول الله ، بترصد عيرها ، وإرهاب حماتها ، هذه التضييقات لها ما بعدها من الخطوات الإيجابية ، التى لابد أن تحسب لها حساباً ، فكانت تكتفى مؤقتاً بالتهرب من وجه سرايا الرسول وبعوثه ، وكان يعجبها أن تسلم عيرها ، وتفلت من الكيد المدبر لها ، ثم لا تفكر بعدئذ فى حرب ونضال ، ولا تحاول بدورها أن تقوم بأدوار المضايقة للرسول - ﷺ ، كأن تجهز مثلاً جيشاً لحصار المدينة ، وإقلاق راحة سكانها ، وتؤلب عليه العرب واليهود من قريب وبعيد - كما فعلت فيما بعد فى غزوة الأحزاب ، واستسلام المسلمين فى مكة ثلاث عشرة سنة ، لم يكن لاتقاء الحرب الأهلية المزعومة ، بل لأنهم كانوا مستضعفين ، فلم يكونوا يقوون على تكوين جبهة معارضة ، وهم قلة تحت السيطرة والنفوذ الجائر ، والاستبداد الأعمى - أما بعد أن صار لهم دار وأنصار ، وغدوا فى منعة وقوة سلطان ، فلم يعد للقلة أو الكثرة فى نظرهم أى حساب ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة ، وإنما تكثر الجيوش بالنصر وتقل بالخذلان .

وعلى هذا الأساس يفسر خروج حمزة - رضى الله عنه - فى ثلاثين من أصحابه ، وخروج عبيدة بن الحارث فى ستين رجلاً ، وخروج سعد بن أبى وقاص فى عشرين رجلاً ، وخروج رسول الله - ﷺ - نفسه إلى ودّان أو

الأبواء فى ستين مجاهداً ، وخروجه ـ ﷺ ـ أيضاً إلى بواط فى مائتى رجل من أصحابه . ولو فُرض أن كان بين المسلمين والمشركين فى هذه السرايا نزال وجلاد بدل المناوشات والمحاجزة ، لما توانى المسلمون عن خوض غمار المعارك دون تريث أو وجل (١) .

هذا ويمكن اعتبار سرية عبد الله بن جحش الجسر الذى اجتازه صراع المناوشات بين الإسلام والوثنية صوب القتال المنظم المكشوف ، الذى بدأته معركة بدر، ذلك أن هذه السرية كشفت بسبب توغل مقاتليها بعيداً إلى طريق التجارة المكية ـ اليمنية ، مدى خطورة الدولة الناشئة على تجارة مكة خاصة ، ووجودها الوثنى عامة ، كما أن الاشتباك الذى وقع بين الطرفين ، وأدى إلى قتل وثنى ، وأسر آخرين ، أبان عن رغبة المقاتلين المسلمين برفع السلاح بوجه الوثنية ، دونما تردد أو مساومة . هذا فضلاً عن المنطلق المبدئى الجديد الذى حددته الآيات السالفة ، والذى ضربت فيه شكليات التقاليد القديمة ، ونفخت فى المقاتل المسلم روحاً جديدة ، دفعته إلى مزيد من المجابهة والصراع والتحدى للقيادة الوثنية المكية ، التى كانت قد سبقت المسلمين ، كما بيّن القرآن ـ إلى تجاوز الحرمات ، والاستهتار بالأعراف .

*** وهكذا يمكننا القول بأن معركة بدر الكبرى لو لم تحدث بسبب غياب شروطها الواقعية ، لحدثت معركة أخرى بديلة عنها بسبب توافر الشروط الموضوعية للقتال الحاسم بين المعسكرين(٢).**

---

(١) عبد الله خياط ، حكم وأحكام من غزوات النبى ص٣٢ طبع الرياض سنة ١٤٠٢ هـ.

(٢) الدكتور عماد الدين خليل : دراسة فى السيرة ص١٧٤ طبع مؤسسة الرسالة سنة ١٤٠١ هـ.

* ولقد حقق الرسول ـ ﷺ ـ بسراياه الأولى عدداً من المنجزات الهامة، يمكن حصرها فيما يلى:

١ ـ الاستطلاع:

استطاع المسلمون التعرف على الطرق المحيطة بالمدينة والمؤدية إلى مكة، خاصة الطرق التجارية الحيوية لقريش بين مكة والشام، كما استطاعوا التعرف على قبائل المنطقة، وموادعة بعضها، والتحالف مع بعضها الآخر.

٢ ـ القتال:

أثبت المسلمون أنهم أقوياء ويستطيعون الدفاع عن أنفسهم وعقيدتهم تجاه المشركين، من قريش والقبائل المجاورة، وأهل المدينة، وتجاه اليهود، وقد أراد المسلمون من ذلك أن تترك لهم الحرية الكاملة لنشر دعوتهم، دون تدخل من أعدائهم.

٣ ـ الكتمان:

ابتكر الرسول ـ ﷺ ـ أسلوب الرسائل المكتومة، للمحافظة على الكتمان، وحرمان العدو من الحصول على المعلومات التى تفيده من حركات المسلمين، والكتمان أكبر عامل من عوامل مبدأ المباغتة، التى هى إحداث موقف لا يكون العدو مستعداً له، والكتمان من جملة الوسائل المهمة التى تؤدى إلى المباغتة، وهى أهم مبدأ من مبادىء الحرب، وقد سبق المسلمون غيرهم فى ابتكار هذا الأسلوب الدقيق.

٤ ـ الحصار الاقتصادى:

هدد المسلمون أهم طريق تجارية، بين مكة والشام، فأصبحت قوافل قريش غير آمنة حين تسلك هذا الطريق، مما أثر أسوأ الأثر على تجارة

قريش، التى تعيش عليها، وهدد مكة بالحصار الاقتصادى، لمحاولة حرمانها من سلوك طريق مكة ـ الشام بأمان (١).

وكما حرص النبى ـ ﷺ ـ على أن يوجد فى داخل المدينة أداة للحكم، وأن ينظم شئونها الداخلية، كذلك حرص عن طريق السرايا على أن يضم إلى المدينة ما حولها من ريف وقبائل، وأن يخطط لها مجالها، ويقرر لها حدودها، ويعقد لها أحلافاً مع القبائل النازلة حولها، لأن الحاضرة لا تستطيع أن تعيش بنفسها، ولا تستغنى عن ريف يمدها بالمؤن، ويكون مجالاً لنشاطها، وكان هذا أحد أسباب قيام النبى ـ ﷺ ـ بقيادة عدة سرايا، ابتدأت من المدينة، واتجهت إلى جميع الجهات، فأمنت هذا الريف، وعقدت فى أثناء تحرك هذه السرايا أحلافاً مع القبائل المجاورة، إذ أنه لا بد لسكان المدن، التى تقوم فى وسط جو بدوى، أن تعمل حساباً كبيراً لغزوات البدو، ولا يكون ذلك إلاّ عن طريق محالفة البدو، ثم كسر شوكتهم بالضرب على أيديهم عند اللزوم، وإشعارهم دائماً بقوة المدينة، وقدرتها على الضرب(٢).

وكانت استراتيجية الرسول ـ ﷺ ـ فى توجيه سراياه وكذلك غزواته ـ تعتمد على الحذر الدائم، والحرص على أن يعرف من أخبار القبائل ما يمكنه من تدبير أمره، لإقرار هيبة الدولة فى نفوس البدو، فكان لا يترك فرصة لهم للتجمع لغزوه ومهاجمته، بل كان يقظاً سريع الحركة، ما يكاد يسمع بتجمع أعدائه حتى يفاجئهم قبل أن يستكملوا أمرهم، فيشتت شملهم، ويلقى الرعب فى قلوبهم، فالهجوم عنده أقوى وسائل الدفاع، وتحطيم

---

(١) محمود شيت خطاب: الرسول القائد ص٦٠.
(٢) أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة ص٤٠٠.

قوة العدو قبل أن تكتمل أفضل من تركها تتجمع ثم الصمود لها .

ولقد أتاحت هذه الاستراتيجية للدولة الإسلامية فى المدينة فرصة الاستقرار[١].

---

(١) المرجع السابق ص٤٥١ .

— ٣ —

ثانياً : معركة بدر الكبرى

الموقف العسكرى ـ السياسى قبل المعركة :

بعد سرية نخلة ، التى قادها عبد الله بن جحش ، مرت فترة قصيرة من الجمود فى العلاقات بين مسلمى المدينة ، وعلى رأسهم رسول الله ـ ﷺ ـ ، وبين مشركى مكة ، وعلى رأسهم أبو سفيان . وفى هذه الفترة بدأ المسلمون يفكرون ويخططون للقضاء على نفوذ المشركين ، حتى يتيسر لهم نشر الدعوة الإسلامية فى ربوع الجزيرة العربية ، ووضع حد للمعارضة التى تقودها قريش ضدهم بين القبائل الأخرى .

أما المشركون المقيمون فى مكة ، فقد أيقنوا أن وجود المسلمين فى المدينة ، خطر عظيم على تجارتهم ، سواء فى الذهاب إلى الشام ، أو الإياب منها ، يضاف إلى ذلك شعورهم بالخطر المتزايد على مقدساتهم الدينية ، وما تمثله هذه المقدسات (فى نظرهم) من رمز لسيادتهم على قبائل الحجاز بشكل خاص ، ومركزهم فى الجزيرة العربية بشكل عام .

ولهذا كله ، كان كل من الطرفين يستعد ويخطط من أجل القضاء على خصمه والإيقاع به ، ونشبت بين الطرفين سلسلة من الاشتباكات الحربية الهامة ، كانت معركة بدر الكبرى فاتحتها .

وقد بدأت الأسباب الواقعية التاريخية، التى قادت إلى المعركة الحاسمة، تتجمع إلى بعضها منذ اللحظة التى أُبلغ فيها الرسول ـ ﷺ ـ أن قافلة كبيرة لقريش تضم ألف بعير، قادمة من الشام صوب مكة، يقودها أبو سفيان، فى ثلاثين أو أربعين تاجراً مكيا (١)، وبمبادرة لا تردد فيها، قال ـ ﷺ ـ لأصحابه: «هذه عير قريش، فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل آلله يُنفِلكُموها» (٢).

ونظرا إلى أن نداء الرسول ـ ﷺ ـ لم يكن أمراً ملزما بل كان ندباً، ونظرا إلى أن أحداً لم يكن يتوقع أن لقاءً مسلحاً حاسما سيتمخض عن التحدى الجديد هذا.. فقد خرج بعض المسلمين بقيادة رسولهم الكريم ـ ﷺ ـ لمهاجمة القافلة، وتخلّف بعضهم الآخر، كما أن هؤلاء الذين خرجوا لم يأخذوا أهبتهم الكاملة للسلاح والتأهب(٣).

وكانت أموال هذه القافلة مشتركة بين جميع رجالات قريش البارزين، وكانت سلامتها تهمّ كل رجل فى مكة لصلته بها بشكل أو بآخر، ويبدو أنها كانت تجمع قوافل صغيرة، خشيت أن تعود منفردة فتتعرض لدوريات الاستطلاع القتالية، التى كان يوجهها رسول الله ـ ﷺ ـ لذلك تجمعت لتكون فى منجاة من خطر السرايا الإسلامية.

وقد أدرك أبو سفيان ـ كما يبدو ـ أن قافلته قد تتعرض لهجوم إسلامى عليها، حين تمر فى الأراضى القريبة من المدينة.. لذلك، وقبل أن يصل

---

(١) وقيل سبعين من قبائل قريش كلها». ابن هشام ٢/٦٠٧، وتاريخ الطبرى ٢/٤٢١، وعن حجم القافلة انظر: الواقدى ١/٢٢٧ وابن حزم: جوامع السيرة ص١٠٤، وابن الأثير: الكامل ٢/١١٣، وابن كثير ٢/٢٤٨.

(٢) ابن هشام ٢/٦٠٧، والطبرى ٢/٤٢١، وابن سعد ٢/١/٦، والواقدى ١/٢٠.

(٣) ابن سعد ٢/١/٦، والواقدى ١/٢٠-٢١، البلاذرى: الأنساب ١/٢٨٨.

إلى موقع الخطر، وجّه ضمضم بن عمرو الغفارى، وأمره أن يأتى قريشا فى مكة، فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد تعرض لها فى الطريق.

وما أن وصل ضمضم إلى مكة حتى جدع بعيره، وحوّل رحله، وشق قميصه، وراح يصرخ .. يامعشر قريش ..!! اللّطيمة .. اللطيمة، أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه، لا أرى أن تدركوها .. الغوث، الغوث .. وسرعان ما استجاب الناس لندائه وهرعوا إلى الكعبة، وهم يقولون: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمى (الذى قتل فى سرية ابن جحش) كلا والله ليعلمن ذلك، فكانوا بين رجلين، إما خارج، وإما باعث مكانه رجلا، وتجمعت قريش كلها تسعمائة وخمسين مقاتلا، تصحبهم مائة فرس، ولم يتخلف من أشرافها أحد خلا أبو لهب، الذى يبدو أن مرضه وكبره أقعده عن اللحاق بالمستنفرين (١).

واستطاع أبو سفيان خلال ذلك أن يفلت من قبضة المسلمين، بإسراعه وتجنبه الطريق الداخلى صوب الساحل، وما أن أطمأن على قافلته حتى أسرع إلى رفاقه فى مكة قائلا: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم وأموالكم ورجالكم، فقد نجاها الله، فارجعوا. إلا أن أبا جهل كان أبعد نظرا منه عندما أصرّ على الخروج، والنزول فى بدر، حيث كان للعرب هناك سوق يجتمعون له كل عام ثلاثة أيام «ننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها» (٢).

فما دامت سرايا المسلمين قد حققت للدولة الجديدة، طيلة الأشهر السابقة نصرًا عسكريا وإعلاميا ونفسياً ضد قريش، وثبتت كلمة الإسلام

---

(١) ابن هشام ٦٠٧/٢، الطبرى ٤٢٢/٢، ابن سعد ٧/١/٢، الواقدى ٢٨/١.

(٢) ابن هشام ٦٠٨/٢، الطبرى ٤٢٤/٢، ابن سعد ٧/١/٢، الواقدى ٤٣/١.

ورايته فى أعماق الصحراء، فإنه لابد لقريش أن ترد بنفس الإسلوب، وتعلم العرب الذين ينتمون إليها، أن الكلمة كلمتها، وأن الصحراء ستظل موطئ أقدامها دون منازع.

خرج رسول الله ـ ﷺ ـ فى الثامن من رمضان من السنة الثانية للهجرة، بعد أن أمر بقطع الأجراس من أعناق الإبل(١) وندب أصحابه للخروج إلى ملاقاة أبى سفيان وحربه، وحدثهم بما معه من الأموال، وبقلة رجاله «فخرجوا لا يريدون إلاّ أبا سفيان والركب معه، لا يرونها إلا غنيمة لهم، لا يظنون أن يكون كبير قتال إذا لقوهم» ـ كمايقول الطبرى(٢).

وهذا القول يفسر ضآلة عدد الذين خرجوا مع الرسول ـ ﷺ ـ إذا ما قارنّاهم بالعدد الذى استطاع أبو جهل أن يجمعه من المكيين، إذ إن جماعة الرسول ـ ﷺ ـ كانوا لا يتجاوزون ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، بينهم ٨٣ من المهاجرين، و٦١ من الأوس و١٧٠ من الخزرج، كما أن هناك أمراً آخر قد يفسر ضآلة عدد جنود المسلمين، الذين توجهوا للقاء القافلة إذا ما قورن بعدد المشركين، وهو ما يذكره عروة بن الزبير فى رسالته إلى عبد الملك بن مروان، من أن الرسول ـ ﷺ ـ وأصحابه كانوا حين خرجوا لا يعرفون أن قريشا جاءت لحماية القافلة، أو أنها وجهت نجدة لأبى سفيان(٣).

ويبدو أن أبا جهل أراد من تجميع عدد كبير من الرجال لحماية القافلة، والذود عنها، أن يرهب رسول الله ـ ﷺ ـ وصحبه بكثرة الرجال، ويظهر لهم مقدرة قريش على حماية قوافلها حتى يمتنعوا عن التفكير بمهاجمتها فى المستقبل.

---

(١) البداية والنهاية ٣/٢٦١.
(٢) تاريخ الطبرى ٢/٤٢٢.
(٣) تاريخ الطبرى ٢/٤٢٢.

تحركت قوات الجهاد الإسلامية بالترتيبات التالية :

١ ـ دورية استطلاع أمامية (حرس المقدمة) للحصول على المعلومات عن اتجاهات القافلة .

٢ ـ الكتلة الرئيسية للقوات الإسلامية ، وتتألف من كتيبتين :
أ ـ كتيبة المهاجرين ، ورايتها مع على بن أبى طالب
ب ـ كتيبة الأنصار، ورايتها مع سعد بن معاذ

وكانت رايتا الكتيبتين سوداوين ، أما راية المسلمين العامة فقد كانت بيضاء ، وكان يحملها مصعب بن عمير بن هاشم القرشى ، كما أعطى الرسول ـ ﷺ ـ قيادة ميمنة الجيش للزبير بن العوام ، والميسرة للمقداد بن عمرو الكندى ، وهما الفارسان الوحيدان فى جيش المسلمين ، كما أعطى قيادة المؤخرة لقيس بن أبى صعصعة .

سلك الرتل القتالى المسلم طريق القوافل التجارية بين المدينة وبدر ، البالغ طوله قرابة « ١٦٠ كيلو مترا » . وقد قسم الرسول ـ ﷺ ـ الإبل المتيسرة فى الرتل وعددها سبعون بعيرا على رجاله ، وكان نصيبه مع على بن أبى طالب ، ومرثد بن أبى مرثد الغنوى ، بعيرا واحداً يعتقبونه ، كما يفعل أى فرد من قواته .

قال شريكا رسول الله ـ ﷺ ـ فى البعير : «نحن نمشى عنك يا رسول الله » فقال : « ما أنتما بأقوى منى ، ولا أنا باغنى من الأجر منكما» .

وضرب الرسول ـ ﷺ ـ بذلك المثل الناصع لكل القادة العسكريين ، الذين جاؤوا بعده ، لكى يقاسموا جنودهم التعب والسهر ، من أجل تنفيذ المهمة القتالية بنجاح ، إذ لا شىء أحب على قلب الجندى من رؤية قائده يشاركه السراء والضراء .

انطلق الرتل الإسلامي مسرعا، فلما وصلوا قريبا من «الصفراء»، بعث الرسول - ﷺ - بدورية استطلاعية قوامها رجلان إلى بدر للحصول على المعلومات عن قريش وقافلتها(١) فلما وصل المسلمون «وادى ذفران» جاءهم الخبر بخروج قريش من مكة بخيلها وخيلائها للتحدى والنجدة.

أدرك النبى - ﷺ - أن وجه الأمر قد تغير بعد أن خرجت قريش فى خيلها وكامل قواتها، فلم يعد الأمر مقصوراً على اللحاق بالعير، بل أضحى القتال والمناجزة راجحة الكفة، فلم يكن بد للنبى - ﷺ - من أن يستشير أصحابه، فقال: «أشيروا علىّ أيها الناس».

وقد كانت هذه الاستشارة بمثابة اختبار لإيمان المسلمين، ومبلغ استعدادهم للجهاد الحقيقى، والتضحية فى سبيل الدعوة. فقام أبو بكر الصدّيق فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب. فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال:

«يارسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ههنا قاعدون»، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد - يعنى مدينة الحبشة - لجالدنا معك من دونه، حتى تبلغه»(٢).

وبدا السرور على وجه الرسول - ﷺ - من هذه الإجابة وتلك الحماسة، فقال له - ﷺ - خيراً، ودعا له به.

ولكنه عاد مرة أخرى ليقول: «أشيروا علىّ أيها الناس»....

لقد سمع النبى - ﷺ - كلمة المهاجرين، سمعها صريحة جريئة

(١) ابن سعد ٦/١/٢، وابن هشام ٦٠٩/٢، الواقدى ٢٣/١.
(٢) الروض الأنف ٣٣/٣.

مدوية ، ولكنه أراد أن يسمع كلمة الأنصار. وكان حريصا على أن يسمع هذه الكلمة ، لأن المعاهدة التى عقدها مع الأنصار، فى بيعة العقبة قبل الهجرة ، كانت تفيد أن ينصره الأنصار إذا هوجم داخل المدينة ، فخاف الرسول — ﷺ — أن يظن الأنصار أنه يسوقهم إلى حرب لم يتفقوا عليها ، لأنها خارج المدينة ، وهم قد عاهدوه من قبل على أن ينصروه ويمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم ، ولم يبايعوه على نضال أو كفاح خارج المدينة ، ولذلك أراد الرسول أن يستوثق من موقفهم ، ويتأكد أنهم حين يخرجون إلى الغزوة يخرجون باختيارهم وموافقتهم ، وإنها لمشورة حقه ممن كان أصدق الناس بالوعد ، وأوفاهم بالعهود ، وأبعدهم عن التوريط والخداع — فلما أحسّ الأنصار أن الرسول — ﷺ — يريد سماع رأيهم ، قام «سعد بن معاذ» سيد الأنصار ، وقال : .

« والله لكأنك تريدنا يارسول الله ؟ فقال الرسول — ﷺ — «أجل» . قال سعد: لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ماجئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا ، على السمع والطاعة ، فامضِ يا رسول الله لما أردت ، فوالذى بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ماتخلّف منا رجل واحد ، ومانكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصُبُرٌ فى الحرب ، صُدُقٌ فى اللقاء ، لعل الله يريك مناّ ماتقرّ به عينك ، فسرْ بنا على بركة الله (١) .

فانشرح صدر رسول الله — ﷺ — وأشرق وجهه من قول سعد ، وزاد ثقة برجاله ، وتصميمهم على خوض المعركة ، ثم بشر أصحابه بالنصر قائلا :

---

(١) تاريخ الطبرى ٢/٤٣٥ ، الروض الأنف ٣/٣٤

«سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين، فوالله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم»(١).

ثم ارتحل رسول الله - ﷺ - من «ذفران»، فسلك على ثنايا يقال لها «الأصافر» ثم هَبَط منها على بلد يقال له «الدبة» وترك «الحنان» بيمين - وهو كثيب عظيم كالجبل العظيم، ثم تقدم بأصحابه حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به، فسأله الحباب بن المنذر - وكان معروفا بجودة الرأى والدربة فى الحروب:

«يارسول الله أرأيت هذا المنزل؟ أمنزلا أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال - ﷺ -: بل هو الرأى والحرب والمكيدة. فقال الحباب: يارسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نغوّر ما وراءه من القلب، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله - ﷺ -: لقد أشرت بالرأى، ثم أمر بتنفيذ خطته، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقلب فغورت، وبنى حوضا على القليب الذى نزل عليه، فملئ ماء ثم قذفوا فيه الآنية(٢).

وفى قصة الحباب هذه مايدل على أن مايتعلق بالحرب والغزوات ليس كله باجتهاد، فقد يكون بوحى وإلهام للرسول وذلك لقول الحباب: أرأيت هذا المنزل.. أمنزلا أنزلكه الله..». وقد دل النبى - ﷺ - بهذا على تأصل

---

(١) تاريخ الطبرى ٤٣٤/٢، الروض الأنف ٣٤/٣. ابن سعد ٨/١/٢، الواقدى ٤٨/١، وانظر البخارى ٧٦/٢.

(٢) تاريخ الطبرى ٤٢٥/٢، الروض الأنف ٣٦/٣ الواقدى ٥٣/١ -٥٤، ابن سعد ٩/١/٢.

روح الشورى فى نفسه الشريفة ، فيما لم ينزل عليه فيه وحى ، وأنه على جلالة قدره ، ووفور عقله ، وبعد نظره ، لا يستبد برأيه ، ولا يأنف من الرجوع إلى صحابته ومستشاريه .

ثم ركب هو ورجل من أصحابه حتى وقف على شيخ من العرب ، يقال إنه سفيان الضمرى — كما يقول ابن هشام — فسأله الرسول — ﷺ — عن قريش ، وعن محمد وأصحابه ،

فقال الشيخ : لا أخبركما حتى تخبرانى ممن أنتما ؟ .

فقال الرسول — ﷺ — : «إذا أخبرتنا أخبرناك»

فقال الشيخ : وذاك بذاك ؟ قال : نعم

قال الضمرى : فإنه بلغنى أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فهو اليوم بمكان كذا وكذا — وقد أشار فعلا إلى المكان الذى بلغه رتل المسلمين — وبلغنى أن قريشا خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان الذى أخبرنى أصدقنى ، فهم اليوم بمكان كذا وكذا — المكان الذى فيه قريش . فلما فرغ من خبره ، قال : ممن أنتما ؟ .

فقال له رسول الله — ﷺ — «نحن من ماء» ثم انصرف عنه .

رجع الرسول — ﷺ — إلى معسكره ، ولما أمسى الليل بعث بدوريتين استطلاعيتين مهمتها الحصول على معلومات عن قوة قريش ومواضعها . .

* وقد كانت الدورية الأولى مؤلفة من : على بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، ونفر من رجال الرسول — ﷺ — وقد استطاعت هذه الدورية أن تصل إلى ماء بدر ، وتصيب راوية لقريش ، فيها أسلم غلام بن الحجاج ، وعريض أبو يسار غلام بنى العاص بن سعيد ، فاقتادتها إلى معسكر المسلمين ، وكان الرسول — ﷺ — إذ ذاك يصلى ، فسألوهما ، فقالا : نحن سقاة قريش و بعثونا لنسقيهم من الماء ، فكره القوم

خبرهما، ورجو أن يكونا لأبى سفيان، فضربوهما فلما أذلقوهما (أى بالغوا فى ضربهما) قالا: نحن لأبى سفيان، فتركوهما وركع الرسول وسجد سجدتين، ثم سلم، فقال: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما؟ صدقا والله، إنهما لقريش، أخبرانى عن قريش؟

قالا: هم وراء الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى..

فقال الرسول ــ ﷺ ــ كم القوم؟ قالا: كثير.

قال: ما عدتهم؟ ... قالا: لا ندرى.

قال: كم ينحرون كل يوم؟ قال: يوما تسعاً ويوماً عشراً

فقال الرسول ــ ﷺ ــ القوم ما بين التسعمائة والألف».

ثم قال لهما الرسول ــ ﷺ ــ «فمن فيهم من أشراف قريش؟»

قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البخترى بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدى بن نوفل، والنضر بن الحارث بن مكدة، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ودّ...

فأقبل الرسول ــ ﷺ ــ على الناس، فقال: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها (١).

* أما الدورية الثانية: فكان فيها بسبس بن عمرو، وعدى بن أبى الزغباء، حيث مضيا حتى نزلا بدراً فأناخا إلى تل قريب من الماء، ثم أخذاً شَناً ــ أى قِرْبة ــ يستقيان، ومجدى بن عمرو الجهنى على الماء، فسمع عدى وبسبس جاريتين من جوارى القوم النازلين على الماء وهما تتلازمان على

---

(١) ابن هشام ٢/٦٠٩، الروض الأنف ٣/٣٤، تاريخ الطبرى ٢/٤٣٦، ابن سعد ٢/١/٩ الواقدى ١/٥٢ ـ ٥٣.

الماء ، والملزومة تقول لصاحبتها ، إنما تأتى العير غداً ، أو بعد غد ، فأعمل لهم ثم أقضيك الذى لك ، قال مجدى : صدقت ، ثم خلص بينهما ، وسمع ذلك عدى وبسبس ، فجلسا على بعيرهما ، ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبراه بما سمعاه .

بعد أن اطمأن الرسول ـ ﷺ ـ إلى متانة صفّه ، وتماسك قواته ، وأصبحت لديه المعلومات الكافية عن الخصم ، توجه برجاله إلى الجهة الشرقية من الوادى ، الذى تقع فيه بدر حيث نزل المسلمون ، وناموا ليلة هادئه مما جعلهم يشعرون بنشاط ــ فى اليوم التالى حين بدأت المعركة .

* وقبل أن ندخل فى سير الأعمال القتالية ... لابد من الإشارة إلى أن الجبهة المكية لم تكن كلها مؤيدة لأبى جهل ، فى موقفه المتصلب ، الذى اتخذه بعد أن علموا بنجاة القافلة ..

والدليل على ذلك : أن الأخنس بن شريق الثقفى ، حليف بنى زهرة ، حين رأى تشدد أبى جهل الذى لا مبرر له ، أشار على حلفائه من بنى زهرة أن يرجعوا فاتبعوا مشورته ، وعادوا ولم يشهد بدراً زهرى واحد .

كما أن بنى عدى اتخذوا موقفا مشابها ، وانسحبوا من الجماعة المكية ، التى كان يترأسها أبو جهل ، وفى هذا مافيه من إضعاف لوحدة الصف المكية .

وناحية أخرى ، لابد من ذكرها ، هى أن قريشا خشيت أن يستغل أعداؤها غياب رجالها المحاربين عن مكة ، فيهاجمونها سيما وأنه كان بينها وبين فرع من كنانة ــ هو بنو بكر ثارات ودماء ، ولكن المشكلة حلّت حين تعهد زعيم من زعماء كنانة هو سراقة بن مالك ، بأن يمنح جواره لمكة فى غياب رجالها ، وأن يمنع عنها كل خطر قد يأتيها من كنانة .

* نزلت قريش فى ثنايا التلال الغربية من الوادى الذى تقع فيه بدر ــ بالعدوة القصوى من الوادى، خلف العقنقل (١) ــ وبعد أن اطمأنت فى معسكرها أرسلت دورية استطلاع إلى مكان تجمع المسلمين بقيادة عمير بن وهب الجمحى، ليعرف قوة المسلمين وأوضاعهم وبعد أن دار بفرسه حول المعسكر، رجع إليهم فقال: ثلاثمائة رجل، يزيدون قليلا أو ينقصون، ولكن أمهلونى حتى أنظر، أللقوم كمين أم مدد؟.. فضرب فى الوادى حتى أبعد، فلم ير شيئا، فرجع إليهم فقال: «مارأيت شيئاً»، ولكنى قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح (٢) يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يُقتل رجل منهم حتى يقتل رجل منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك!.. فرووا رأيكم».

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى فى الناس، فأتى عتبة بن ربيعة، فقال: يا أبا الوليد: إنك كبير قريش الليلة وسيدها، والمطاع فيها، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟ قال: وماذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمى، قال: قد فعلت، أنت على بذلك، إنما هو حليفى فعلى عقله، وما أصيب من ماله، فأتِ ابن الحنظلية (٣) فإنى لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره، يعنى أبا جهل بن هشام.

* ثم قام عتبة بن ربيعة (٤) خطيبا، فقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدًا وأصحابه شيئا، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل

(١) تاريخ الطبرى ٢/٤٣٩.

(٢) النواضح: الإبل التى يستقى عليها الماء.

(٣) الروض الأنف ٣/٣٧.

(٤) لقد جاءت محاولة عتبة السلمية مصداقاً لقول رسول الله ـ ﷺ ـ الذى قال عندما رأى =

ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه أو ابن خاله ، أو رجلا من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون .

قال حكيم : فانطلقت حتى جئت أبا جهل ، فوجدته قد نثل درعاً له من جرابها ، فهو يهْنَؤها ــ أى يطليها بعكر الزيت ، فقلت له : يا أبا الحكم .. إن عتبة قد أرسلنى إليك بكذا وكذا ، فقال : انتفخ والله سحره(١)، حين رأى محمدًا وأصحابه ، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد وأصحابه ، وما بعتبة ما قال ، ولكنه رأى محمداً وأصحابه أكلة جزور ، وفيهم ابنه ، فقد تخوفكم عليه ، ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي ، فقال له : هذا حليفك ، يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت ثأرك بعينك ، فقم فأنشد خفرتك ، ومقتل أخيك ــ أى اطلب من قريش الوفاء بعهدهم ، لأنه كان حليفا لهم وجارًا . فقام عامر بن الحضرمى ، فاكتشف ، ثم صرخ : واعمراه ، واعمراه ، فحميت الحرب ، واشتد أمر الناس ، واستوسقوا على ما هم عليه من الشر ، وأفسد على الناس الرأى .، الذى دعاهم إليه عتبة .

فلما بلغ عتبة قول أبى جهل «انتفخ والله سحره» قال : سيعلم المصغّر استه من انتفخ سحره ، أنا أم هو؟ ثم التمس بيضة يدخلها فى رأسه ، فما وجد فى الجيش بيضة تسعه من عظم هامته ، فلما رأى ذلك اعتجر ــ أى لف رأسه بعمامة له (٢) وهكذا أصبحت الحرب بين الطرفين أمراً لابد منه (٣) .

= جيش مكة ، إن يكن فى أحد من القوم خير ففى راكب الجمل الأحمر ، إن يطيعوه يرشدوا ، وكان راكب الجمل الأحمر هذا هو عتبة بن ربيعة [السيرة النبوية ٦٠٩/٢] .

(١) انتفخ سحره : أى رئته ، يقال ذلك للجبان .

(٢) الروض الأنف ٣٧/٣ .

(٣) كانت نسبة القوى بين المسلمين والمشركين قبل نشوب المعركة كالتالى : القوات =

* بعد أن تمركز المسلمون فى المكان الذى اختاره الحباب بن المنذر، اقترح حامل لواء الأنصار «سعد بن معاذ» على الرسول ـ ﷺ ـ أن يبنى المسلمون مقراً لقيادته، واقترح القائد الأنصارى ـ استعداداً للطوارئ والمفاجآت، وتقديراً للهزيمة قبل النصر، أن يكون مقر القيادة هذا بمثابة خط رجعة يستطيع الرسول ـ ﷺ ـ الانسحاب منه، واللحاق بالمدينة بسلام، إذ ما قدر للقوات الاسلامية أن تخسر المعركة..

* قال سعد بن معاذ: يا رسول الله، ألا نبنى لك عريشا تكون فيه، ونعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا؟ .. فإنى أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى، جلست إلى ركائبك، فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك قوم، يا نبى الله، ما نحن بأشد لك حباً منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحون ويجاهدون معك»(١).

فوافق الرسول ـ ﷺ ـ على هذا الاقتراح، وأثنى عليه، ودعا له بخير، وتم بناء مقر القيادة، عريشا بناه المسلمون فى مكان مناسب، وهو مرتفع يقع فى الشمال الشرقى لميدان القتال، ويشرف على ساحة المعركة.

كما تم إنشاء حرس لمقر القيادة وهو عبارة عن فصيلة من المقاتلين، تم انتخابها من فتيان الأنصار، وقفوا بقيادة سعد بن معاذ نفسه يحرسون رسول الله ـ ﷺ ـ فى مقر قيادته.

تهيأت قريش للمعركة، وخرج أبو جهل يحث الناس على القتال، وقد روى ابن اسحق، أن أبا جهل ـ قبيل نشوب المعركة ـ دعا الله قائلا:

= الإسلامية ٣١٤ رجلاً إلى ٩٥٠ رجلاً فى قوات المشركين، وكانت الإبل فى القوات الإسلامية ٧٠ إلى قرابة ٣٥٠ لدى المشركين، وكانت الخيل ٢ عند المسلمين مقابل ٢٠٠ عند المشركين.

(١) أيام العرب فى الإسلام ص١٢، الروض الأنف ٣٧/٣.

«اللهم اقطعنا للرحم، وآتانا بما لا يعرف، فأحِنه الغداة»(١)

* خرج الرسول - ﷺ - يحض أصحابه على القتال، وألقى عليهم كلمة قبيل المعركة، قال فيها: «والذى نفس محمد بيده لايقاتلهم اليوم رجل فيُقْتَل صابرًا محتسبا، مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة».

وبعد أن عدّل - ﷺ - الصفوف، وهيأها للقتال، أصدر توجيهاته العملياتية إلى قادة جيشه بأن لا يبدأوا القتال حتى يتلقوا منه الأوامر الأخيرة، وقال لهم:

«إذا اكتنفكم العدو (أى أحاط بكم) فانضحوهم بالنبل».

وبعد ذلك رجع إلى مقر قيادته، ومعه أبو بكر الصديق، وعندما صعد الرسول - ﷺ - إلى العريش، ونظر إلى المشركين وعدتهم، ونظر إلى أصحابه نيفا على ثلاثمائة، استقبل القبلة وأخذ يناشد ربه ما وعده من النصر، ويقول فيما يقول:

«اللهم انجز لى ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد».

فلم يزل كذلك حتى سقط رداؤه، فأخذ أبو بكر فوضع رداءه عليه، ثم التزمه من ورائه، وهو يقول: كفاك يا نبى الله، بأبى أنت وأمى، بعض مناشدتك ربك فإن الله منجز لك ما وعدك. وقد خفق رسول الله - ﷺ - خفقه وهو فى العريش، ثم انتبه فقال:

«أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده، على ثنايا النقع» (٢).

---

(١) أى اجعل حَيْنه الغداة، والحَيق هو الموت، ووقت الغداة يقع فى الصباح.

(٢) الروض الأنف ٣٨/٣ - وعن دور الملائكة انظر تاريخ الطبرى ٤٥٣/٢ - ٤٥٤، والواقدى ٧٠/١ - ٨٠.

وقد أنزل الله تعالى بهذه المناسبة، الآية الكريمة:

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾

[الأنفال: ٩]

— ٤ —

سير الأعمال القتالية يوم بدر:

كان أول وقود المعركة أحد فدائيي المشركين، الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وكان رجلا شرسا، قد عاهد الله ليشربن من حوض المسلمين، أو ليهدمنه، أو ليموتن دونه، لذلك انقض من صفوف المشركين متحديا المسلمين، متجها نحو الحوض ليبرَّ بقسمه، ولكن حمزة بن عبد المطلب، أسرع من صوف المسلمين، فاعترضه وعاجله قبل أن يصل إلى الحوض، بضربة من سيفه بترت قدمه مع نصف ساقه، فجثا في إصرار وعناد، وزحف نحو الحوض حبوًا ليبرّ بقسمه، ولكن حمزة ثنى عليه بضربة أخرى، أجهزت عليه وهو داخل الحوض.

كان هذا المخزومي أول قتيل في معركة بدر، وكان مقتله بمثابة الشرارة التي أشعلت نار المعركة. فقد خرج بعد ذلك من صفوف المشركين ثلاثة من فرسان قريش، وخيرة محاربيهم، ومن أسرة واحدة، وهم: شيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وابنه الوليد، وكلهم من أبناء عبد مناف، جد الرسول — ﷺ —.

بعد أن وقف هؤلاء بين الصفين، دعوا المسلمين إلى المبارزة، فسارع بالخروج إليهم ثلاثة من فتيان الأنصار، وهم عوف، ومعوذ ابنا عفراء، وعبد الله ابن رواحة، وكما هي عادة المبارزة، سأل القرشيون هؤلاء الثلاثة من أية

قبيلة هم ؟.. فانتسبوا لهم ، وعندما علموا أنهم من الأنصار، أثنوا عليهم وقالوا : أكفاء كرام ، ولكنهم رفضوا مبارزتهم ، وطلبوا منهم العودة إلى صفوفهم قائلين.. إنما نريد أكفاءنا من قومنا ، ونادى مناديهم : يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا ، فرجع الأنصار الثلاثة إلى صفوفهم دونما قتال .

ولما علم الرسول - ﷺ - برغبة فرسان المشركين الثلاثة ، أصدر أمره إلى ثلاثة من أسرته ، هم حمزة بن عبد المطلب ، وعبيدة بن الحارث ، وعلى بن أبى طالب ، وكلهم من بنى عبد مناف ، وطلب إليهم الخروج إلى أقربائهم لمبارزتهم حسب طلبهم ، فخرجوا إليهم فى الحال ، وبعد أن انتسبوا لهم ، وتأكدوا أنهم من أسرتهم ، قالوا . أكفاء كرام ، ثم بدأت المبارزة بين الفرسان المتبارزين ، فانفرد كل واحد منهم بصاحبه الذى اختاره ، فبارز الوليد علياً ، وكان أصغر المتبارزين ، وبارز عبيدة شيبة ، أما حمزة فقد بارز عتبة .

أما على بن أبى طالب فلم يمهل صاحبه فقتله ، وكذلك فعل حمزة ، فقد قضى على خصمه عتبة فى الحال ، أما عبيدة - وكان أسن القوم - وشيبة ، قد ضرب كل منهما صاحبه ضربة مميتة لم يقو على التحرك بعدها من مكانه ، وكرَّ حمزة وعلىٌّ بأسيافهما على شيبة فقتلاه ، واحتملا صاحبهما عبيدة إلى معسكر المسلمين ، ومخ فخذه المبتور ينزف ، وما لبث طويلاً أن لفظ أنفاسه الطاهرة بين يدى الرسول - ﷺ (١) .

- وبينما كان يجود بنفسه ورأسه على قدمى الرسول ، التفت إلى النبى ، وقال : « أَلَسْتُ شهيداً يا رسول الله ؟ قال : بلى ، فقال عبيدة : لو كان أبوطالب حياً لعلم أنى أحق منه بما قال » ، حيث يقول :

ونسلمه حتَّى نُصَرَّع حَوْلَه ونُذْهَل عَنْ أَبْنَائِنَا والحَلاَئِلُ

(١) الروض الأنف ٣٨/٣.

كانت نتيجة المبارزة بداية سيئة للمشركين، إذ فقدوا ثلاثة من خيرة رجالهم، لذلك استشاطوا غضباً، وشدوا على المسلمين شدة رجل واحد، بعد أن مهدوا لهجومهم برشقات كثيفة من سهامهم، صبوها على صفوف المسلمين..

* تلقى المسلمون هجوم المشركين، وهم مرابطون فى مواقعهم — كما أمرهم الرسول — ﷺ — وكانوا يصوبون سهامهم على المشركين عندما يقتربون منهم، وبقوا فى صفوف متراصة، يقاتلون فى جبهة متماسكة، وقد ألحق المسلمون بتكتيكهم هذا خسائر فادحة فى صفوف المشركين، الذين عاودوا الهجوم فى أكثر من مرة، فلم يفلحوا فى زحزحة المسلمين عن مواقعهم، وعندما خفت حدة هجمات المشركين، وفترت حماسة جندهم، أصدر الرسول — ﷺ — أوامره إلى كتائب جيشه بشن الهجوم المعاكس، وقال لهم: «شدّوا»، فاندفع المسلمون فى صفوف منظمة متراصة، على جموع المشركين، التى بعثرها تكرار الهجمات الفاشلة.

وعندما استعر لهيب المعركة نزل الرسول — ﷺ — من مقر قيادته، مع فصيلة الحراسة، وعامة أصحابه، وخاض المعركة بنفسه، وكان فى مقدمة القوات المهاجمة، يثب فى درعه. وهو يقول:

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾
[القمر: ٤٥، ٤٦]

ثم ما لبث أن أخذ حفنة من الحصباء، واستقبل بها قريشاً وصاح:

«شاهت الوجوه، وضربها بوجوههم»

ونادى أصحابه: «شدّوا»، فحمل المسلمون حملة صادقة تسوقهم إلى أعدائهم موجة من الإيمان العارم، ورغبة عميقة فى الاستشهاد، وراحوا يحصدون صناديد قريش حصداً.

وبعد قتال مرير، ظهرت علامات الاضطراب والفوضى فى صفوف المشركين، وأخذت تتلاشى أمام قوات المجاهدين الظافرة، وهكذا اقتربت المعركة من نهايتها، فدبّ الهلع فى نفوس قريش، ثم أخذت جموعها فى الفرار، فعمّت الهزيمة، وركب المسلمون ظهور المشركين، يأسرون ويقتلون.. وعندما رأى رسول الله ـ ﷺ ـ صرح الطغيان يتحطم، وكبرياء الجاهلية تتمرغ فى وحل الهزيمة، كبّر لله حمداً وشكراً.

وفى هذه اللحظات الحرجة، رأى بلال الحبشى أمية بن خلف وابنه، ورأى بعض المسلمين الذين عرفوا بمكة حوله، وكان أميّة هو الذى عذب بلالاً، إذ كان يخرجه إلى رمضاء مكة، فيضجعه على ظهره، ويأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ليفتنه عن الإسلام، فيقول بلال: أَحَدٌ أَحَدٌ.. رأى بلال أميةَ فصاح به: أمية رأس الكفر.. لا نجوتُ إن نجا، وحاول بعض المسلمين من حول أمية، أن يحولوا دون قتله، وأن يأخذوه أسيراً، فصرخ بلال بأعلى صوت فى الناس: «يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا، واجتمع الناس، ولم ينصرف بلال حتى قتل أمية.

وقد حاول أبو جهل فى عناد ومكابرة فريدين، أن يمنع بصموده مع نفر من رجاله هذه الهزيمة المنكرة لقريش، وعلى الرغم من أن نتائج المعركة أصبحت معروفة ـ إلا أنه ظل يقاتل بشراسة وعناد يفوقان الوصف وهو يقول:

ما تنقمُ الحربُ الشَّمُوسُ منِّى   بازل عَامَيْن حَديث سِنِّى
لمثلِ هَذَا وَلَدَتْنِى أُمِّى

وثبت معه جماعة من رجاله، فيهم ابنه عكرمة، وأخذوا يذبون عنه،

وضربوا حوله سياجاً من سيوفهم، ورماحهم، ولكن العاصفة كانت أقوى(١)، فقد مزقت رياح النصر العاتية، السياج الذى ضُرب حول أبى جهل، وتخلى حرس الشرك عن قائده أمام ضغط المسلمين المتزايد، الذى سد هتافهم أجواء المعركة، وهم يرددون: أَحَدٌ.. أَحَدٌ. وكانت هذه الكلمة.. كلمة التعارف بين المسلمين، وخرّ أبوجهل صريعاً يتخبط فى دمه(٢)، بعد أن قاتل قتالاً ضارياً.

وبعد مقتل أبى جهل، تفرق المشركون من صناديد مكة وفرسانها، منهزمين لا يلوون على شيء. وبدأت مطاردة المسلمين فلولَ المشركين، وأخذوا يجمعون الغنائم والأسرى، بعد أن ترك المشركون فى ساحة المعركة ما يربو على سبعين قتيلاً، ومثلهم أسرى(٣).

* أما خسائر المسلمين، فقد بلغت أربعة عشر شهيداً، ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار(٤).

وقد أمر الرسول القائد ـ ﷺ ـ بضرب عنقى اثنين من الأسرى، هما: النضر بن الحارث، وعقبة بن أبى معيط، على اعتبار أنهما مجرما حرب.

والتمس الرسول ـ ﷺ ـ رأس أبى جهل، فجاءه بها عبدالله بن مسعود، فحمد الله، ثم أمر بالقتلى، فنقلوا من مصارعهم، التى كان الرسول ـ ﷺ ـ أخبر بها قبل حصول المعركة، إلى قُلَيب بدر، إلا ما كان من أمية

---

(١) الروض الأنف ٤١/٣.

(٢) تاريخ الطبرى ٢٥٤/٢ -٢٥٦، الواقدى ٨٦/١ -٩١.

(٣) تاريخ الطبرى ٤٧٤/٢، ابن سعد ١١/١/٢، الواقدى ١٣٨/١، تاريخ اليعقوبى ٣٧/٢.

(٤) تاريخ الطبرى ٤٧٧/٢، ابن سعد ١١/١/٢، الواقدى ١٠٢/١، ١٤٥، البداية والنهاية ٣١٥/٣ -٣٢٥.

ابن خلف، فإنه انتفخ في درعه فملأها، فذهبوا ليحركوه فتزايل لحمه، فأقروه، وألقوا عليه ما غيّبَهُ من التراب والحجارة، لأنه ـ ﷺ ـ كان من سننه في مغازيه ـ إذا مر بجيفة إنسان أمر بها فدفنت، لا يسأل عنه مؤمناً أو كافراً.

ولما أُلقى عُتبة والد أبي حذيفة، أحد السابقين إلى الإسلام، توجّه وجه ابنه، ففطن رسول الله ـ ﷺ ـ لذلك، وقال:

«لعلك دخلك من شأن أبيك شيء؟»

فقال: لا والله، ولكني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه الله للإسلام، فلما رأيت ما مات عليه أجزنني ذلك، فدعا له الرسول ـ ﷺ ـ بخير.

ثم أمر الرسول ـ ﷺ ـ براحلته، فشد عليها، حتى قام على شفة القليب، الذي دفن فيه المشركون، فجعل يناديهم بأسمائهم، وأسماء آبائهم:

«يا أهل القليب، يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا أمية بن خلف، ويا أبا جهل، فعدّد من كان منهم في القليب، أيسركم أنكم كنتم أطعتم الله ورسوله، فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً».

فقال عمر: يا رسول الله.. ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها.. فقال ـ ﷺ:

«والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع ما أقول منهم».

قالت عائشة ـ رضي الله عنها: إنما قال إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق، ثم قرأت:

﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ [النمل: ٨٠]

تقول: يعلمون ذلك حينما تبوأوا مقاعدهم من النار(١).

ثم أرسل النبي ـ ﷺ ـ المبشرين، فأرسل عبدالله بن رواحة لأهل العالية (٢) وأرسل زيد بن حارثة لأهل السافلة، راكباً على ناقة رسول الله، وكان المنافقون من اليهود، قد أرجفوا بالرسول ـ ﷺ ـ والمسلمين، أى أشاعوا عنه السوء، عادة الأعداء فى إذاعة الضراء، يقصدون بذلك فتنة المسلمين، فجاء أولئك المبشرون بما سرَّ أهل المدينة.

* ثم قفل رسول الله ـ ﷺ ـ راجعاً، وهنا وقع خُلف بين بعض المسلمين فى قسمة الغنائم.

= فقال من جمعها: الأنفال لنا، وقال الذين كانوا يقاتلون المشركين: والله لولا نحن ما أصبتموها، لنحن شغلنا عنكم القوم حتى أصبتم ما أصبتم، وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله ـ ﷺ ـ مخافة أن يخالف إليه العدو: والله ما أنتم بأحق منا، والله لقد رأينا أن نقتل العدو إذ منحنا الله أكتافه، ولقد رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه، ولكنا خِفنا على رسول الله ـ ﷺ ـ كرَّة العدو، فقمنا دونه، فما أنتم بأحق منه منا.

وليس غريباً أن يبدو من بعض فقراء الصحابة هذا الحرص علي تملك الغنائم، وهم قد بلغ منهم الفقر مبلغاً رق منه لهم رسول الله ـ ﷺ ـ ودعا لهم فقال:

«اللهم إنهم حفاة فاحملهم، اللهم إنهم عراة فاكسهم». ثم إن كل واحد منهم يعتقد أنه يطلب حقاً لا باطلاً».

---

(١) رواه البخارى.

(٢) قرى بظاهر المدينة وهى منطقة العوالى الآن.

إن منطق الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كان يرفض أن يحوز الإنسان المال للاستكثار منه، لأن المال عندهم لم يكن أكثر من وسيلة لتحقيق مرضاة الله، فالفقراء منهم حريصون على المال ليجاروا الأغنياء فيما ينفقون في سبيل الله، ومن هنا رأينا بعضهم يأتي رسول الله ـ ﷺ ـ قلقاً قائلاً: «يا رسول الله.. ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم» فهم يحبون المال ليكون لهم عوناً على تحقيق مرضاة الله عز وجل.

ولما كان هذا الاختلاف مدعاة إلى الضعف، ويزرع في القلوب العداوة، والبغضاء المؤدين إلى تشتت الشمل، أنزل الله تعالى حسماً لهذا الخلاف أول سورة الأنفال:

﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ١]

فسطع على أفئدتهم نور القرآن، فتآلفت بعد أن كادت تفترق، حيث جعل أمر الغنائم لرسوله ـ ﷺ ـ يضعها كيف شاء، كما حكم القرآن.. ثم أقبل رسول الله ـ ﷺ ـ حتى إذا خرج من مضيق الصفراء، نزل على كثيب بين المضيق وبين النازية، فقسّم هنالك الأنفال، التي أفاء الله بها على المسلمين ـ وإنما لم يقسم رسول الله ـ ﷺ ـ الغنائم في أرض المعركة، لئلا تكون سُنة، ولو قسمها لانشغل الناس بها عن اليقظة الواجبة، لما قد يفاجئهم به العدو.

* ولقد قسم الرسول ـ ﷺ ـ الأنفال، حسب منطوق الآية الكريمة:

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٤١]

ووزعت أربعة الأخماس ـ كما سنذكر فيما بعد ـ على المجاهدين على السواء، الراجل مع الراجل، والفارس مع الفارس، وأدخل فى الاسهام بعض من لم يحضر لأمر كُلّف به، وهم: أبو لبانة الأنصارى، لأنه كان مخلفاً على أهل المدينة، والحارث بن حاطب، لأن الرسول ـ ﷺ ـ خلفه على بنى عمرو بن عوف ليحقق أمراً، والحارث بن الصمة، وأُخوات ابن جبير لأنهما كُسرا بالروحاء فلم يتمكنا من السير، وطلحة بن عبيدالله، وسعيد بن زيد، لأنهما أرسلا يجسسان الأخبار فلم يرجعا إلا بعد إنتهاء المعركة. وعثمان بن عفان، لأن الرسول ـ ﷺ ـ خلفه على ابنته رقية لمرضها. وعاصم بن عدى، لأنه خلفه على أهل قباء والعالية.

وكذلك أسهم لمن قتل ببدر، وهم أربعة عشر شهيداً ..

ـ ٥ ـ

* أسباب النصر فى غزوة بدر الكبرى ..

ثمة أسباب عديدة تمخّضت عن انتصار القِلّة على الكثرة فى معركة بدر الحاسمة (١).

وأهم هذه أسباب:

١ ـ القيادة الموحدة الحكيمة.

فقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ هو القائد العام للمسلمين فى معركة بدر، وكان المسلمون يعملون كيد واحدة تحت قيادته، يوجههم فى الوقت الحاسم للقيام بعمل حاسم، وهذا هو واجب القائد الكفء، وكان ضبط المسلمين فى تنفيذ أوامر قائدهم، مثالا رائعاً للضبط الحقيقى المتين. وإذا كان الضبط أساس الجندية، وإذا كان الجيش الممتاز هو الذى يتحلى بضبط ممتاز، فقد كان جيش المسلمين جيشا ممتازاً بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان، وإن معنى الضبط هو طاعة الأوامر، وتنفيذها بحرص وأمانة عن طيب خاطر.

وقد فعل المسلمون ذلك لأن قائدهم الأعلى يتحلى بصفات القائد

---

(١) انظر ماكتبه شيث خطاب فى كتابه الرسول القائد ص٧٨-٨٤، والعماد مصطفى طلاس فى كتابه الرسول العربى ص٧٩ وعزة دروزة فى كتابه سيرة الرسول ٢/٣٢٩، والدكتور عماد الدين فى كتابه دراسة فى السيرة ص ١٨٤ -١٨٦.

المثالى ، ضبط للأعصاب فى الشدائد ، شجاعة نادرة فى المواقف ، مساواة لنفسه مع أصحابه ، استشارة فى كل عمل حاسم .

أما المشركون ، فلم يكن لهم قائد عام ، كان أكثر سراة قريش مع قوات المشركين ، ولكن البارزين من هؤلاء –على ما يظهر– رجلان هما : عتبة ابن ربيعة ، وأبو جهل ، ولم يكونا على رأى واحد ، وليس لهم هدف موحد ، لذلك طغت الأنانية الفردية ، على المصلحة الموحدة أثناء القتال .

٢ – التعبئة الجديدة :

طبق الرسول –ﷺ– فى (مسيرة الاقتراب) من المدينة إلى بدر تشكيلة لا تختلف بتاتا عن التعبئة الحديثة فى حرب الصحراء ، كان لهم مقدمة ، وقسم أكبر ، ومؤخرة .

واستفاد من دوريات الاستطلاع للحصول على المعلومات ، وتلك هى الأساليب الصحيحة لتشكيلات مسيرة الاقتراب فى حرب الصحراء ، حتى فى العصر الحاضر .

* أما فى المعركة ، فقد قاتل المسلمون بأسلوب الصفوف ، بينما قاتل المشركون بأسلوب الكرّ والفرّ ، وهو أسلوب قديم لا يلائم الأوضاع المستجدة .

٣ – العقيدة الراسخة :

رأينا كيف كان جواب المهاجرين والأنصار حين استشارهم فى قتال قريش ، فقد كان للمسلمين أهداف معينة يعرفونها ، ويؤمنون بها ، هى أن تترك الحرية الكاملة لهم لبث دعوتهم حين تكون كلمة الله هى العليا .

فما هى أهداف قريش المشركة من حربها .. إلاّ أن تنحر الجزور ، وتطعم

الطعام، وتشرب الخمر، وتعزف القيان، فتسمع العرب بمسيرها، فيهابوننا أبداً بعدها؟

وهل نستطيع تسمية ذلك أهدافاً، أم أن ذلك طيش وغرور، وعصبية جاهلية؟

٤ ـ المعنويات العالية:

شجع الرسول ـ ﷺ ـ أصحابه قبل القتال، وأثناء المعركة، وقوى معنوياتهم حتى لا يكترثوا بتفوق قريش عليهم عدداً وعُدّة، ولم تكن معنويات الذين مارسوا الحرب وعرفوها من المسلمين عالية فحسب، وإنما كانت معنويات الأحداث الصغار، الذين لم يمارسوا حرباً ولا قتالاً عالية أيضاً.

لقد أثبتت كافة الحروب، فى كافة أدوار التاريخ، أن التسليح والتنظيم الجيدين، والقوة العددية، غير كافة لنيل النصر مالم يتحلَّ المقاتلون بالمعنويات العالية، بالإضافة إلى كل ذلك.

* على أن هناك من الباحثين من يعزو أسباب النصر إلى أسباب أخرى..

• فمن قائل.. إن سبب النصر كان هيمنة الرسول ـ ﷺ ـ على الموقف، بحيث لم يبرم المسلمون أمراً ولم يقوموا بأى نشاط حربى إلا بإشارته، وقد عبأهم أحسن تعبئة، وعين ألويتهم، وجعل لهم شعاراً مصطلحا بينهم، يتميزون به عن خصومهم إذا التحم القتال، ثم وعظهم، واستنهض هممهم، وحرضهم على القتال، ورغّبهم فى إحدى الحسنيين، النصر أو الشهادة، وأقسم بالله ـ وهو الصادق المصدوق دون قسم ـ أنه لا يقاتل قريشا فى هذه المعركة رجل فيقتل صابرا محتسبا، مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة، فارتفعت درجة الحماس فى النفوس.

ومن قائل: إن من أسباب النصر الحوض، الذى أشار ببنائه الحباب بن المنذر على القليب، الذى نزل رسول الله ـ ﷺ ـ بجواره.

قال بعض المؤرخين: وتلك فكرة لها أهمية حربية، إذ يكون الجيش على اتصال دائم بالماء، الذى لا غنى عنه، ورجحوا أن يكون هذا من أكبر عوامل النصر.

ويرى المستشرق سير وليام موير، أن سبب النصر ماهو إلاّ الخوف، الذى كان مستوليا على أهل مكة من إراقة دماء أقاربهم، مع ما يقابل ذلك من رغبة المسلمين فى القتال(١).

هذه بعض الأسباب التى يعزو إليها المؤرخون نصر المسلمين فى غزوة بدر.

وعندى.. أنها وإن كانت من عوامل النصر، إلا أن النصر لا يتوقف عليها، وأن الله ـ سبحانه ـ قد وعد رسوله بالنصر على أى حال، فهو واقع لا محالة، لايتوقف على ضخامة العدد، وكثرة العُدة، ولا على التنظيم وإلهاب حماس المجاهدين، وشحذ عزائمهم، وتحريضهم على القتال، ووعدهم بخير الجزاء، ولا على بناء الحوض وتغوير القلبان، ولا على غير ذلك مما عدّه المؤرخون العامل الفعال فى إحراز النصر.

صحيح أنها أسباب ووسائل لا مندوحة عن الأخذ بها، ولكن كثيراً ما تتخلف الأسباب، لو شاء الله ذلك، وتخفق الوسائل فتنعكس الآية، وبدلا من إحراز النصر يُمنى الجيش بالفشل والهزيمة، ولذلك من الأمثلة الواقعية ـ قديما وحديثا ـ مالا يحصى أن نسترسل فى سرد شىء من ذلك.. وحجتنا فى عدم توقف النصر على الأسباب والإمكانيات مايلى:

---

(١) نقلاً عن الشيخ محمد رضا: محمد رسول الله - ﷺ - طبع عيسى البابى الحلبى بمصر.

أولاً: قوة العقيدة وعمق الإيمان:

فإن لذلك تأثيراً عظيما فى الحروب، فشتان بين من يحارب بعقيدة راسخة لنصر الله ورسوله، فإن قتل فاز بنعمة الشهادة، ودخل دار الخلود، وبين من يحارب وهو لا يشعر بقوة العقيدة، التى تدفع خصمه إلى القتال.

وهذا منطق معقول، فإن العقيدة والجزم بصحة الاتجاه، والرغبة فى الانتقال إلى أفضل الأمور، وخير الأحوال، يدفع إلى التضحية بالغالى والرخيص، ثم إن العقيدة لم تتكون عند المسلمين إلا بعد الاقتناع، والاستسلام التام لدين الله، والإيمان الجازم بكل ما أخبر به الصادق المصدوق ــ ﷺ ــ ومن لازم هذا الاستسلام والإيمان ــ الإندفاع طواعية لأمر رسول الله ــ ﷺ ــ وقد كان فيما أخبر به الرسول .. أن الله شرع القتال، ووعده بالنصر على أعدائه، فذلك كائن لا محالة، ومن ثَمَّ نشأت العقيدة فى قتال الكفار، وتغلب فى النفوس حب الآجلة على العاجلة، وحب الآخرة على الدنيا.

وعلى هذا نفسر كل ما بدر من استبسال، وصدق لقاء، وصبر فى حروب الصحابة جميعاً، لا فى بدر فقط، بل فى كل معركة تقابل فيها الحق مع الباطل، أو بتعبير أدق التقى فيها الإيمان بالكفر، ومن هذا أيضا يتضح لنا هدف المبارزين من فتيان الأنصار، الذين سارعوا إلى المبارزة إذا دعت إليها قريش دون تلكؤ. ويتضح أيضا هدف الصحابى الأنصارى، الذى ألقى بتمراته فى الأرض، والتحم فى القتال حتى استشهد ــ رضى الله عنه، ويتضح أيضا أهداف الكثيرين ممن قاموا بأدوار البطولة فى هذه الغزوة وغيرها، ممن لا يحصرهم العد، وكانوا على رغبة فى الاستشهاد فى حومة الوغى.

ثانياً: الحصى وحفنة التراب:

وعامل آخر– من عوامل النصر القوية – إن لم يكن قطب رحاه، ذلك هو الحصى أو حفنة التراب، التى رمى بها رسول الله – ﷺ – فى وجوه المشركين إذ حمى الوطيس.

* عن ابن عباس –رضى الله عنهما– قال: رفع رسول الله –ﷺ– يديه، يعنى يوم بدر– فقال: «يارَبِّ إن تهلك هذه العصابة لن تعبد فى الأرض أبداً» فقال له جبريل: «خذ قبضة من التراب فارْمِ بها فى وجوههم»، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين.

وفى رواية أخرى: أن رسول الله –ﷺ– عندما رأى قريشا قد أقبلت إلى الوادى. قال: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتنى، فأتاه جبريل وقال: خذ قبضة من تراب فارْمهم بها، فلما الْتقى الجمعان، تناول كفا من حصى عليه تراب، فرمى به فى وجوه القوم، وقال: «شاهت الوجوه» فلم يبق منهم مشرك إلاّ دخل فى عينيه وفمه ومنخريه منها شىء، فانهزموا وأردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم، وفى ذلك أنزل الله تعالى قوله:

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧]

فالذى باشر الرمى هو الرسول –ﷺ– ولم يكن فى استطاعته أن يعمّم وصول الحصا أو التراب، الذى رمى به، إلى كافة جيش المشركين، ولكن الله تعالى بقدرته العظيمة، أوصل الرمية إلى كل فرد منهم، فكان ذلك أعظم عامل على نصر المسلمين، وهزيمة المشركين.

ثالثاً: النعاس:

وعامل آخر — فى جملة منن الله تعالى على المسلمين فى وقعة بدر، أن أرسل عليهم النعاس ليأمنوا، ولئلا يكترثوا بكثرة عدد أعدائهم، فيفتّ ذلك فى عضدهم.

ومن الملاحظ أن النعاس ظاهرة كسل، وبادرة فشل، لأن المقاتل فى حاجة إلى الحذر، وأخذ الحيطة، واللجوء إلى المكيدة، وكل ذلك يتنافى مع النعاس. ولولا أن الله تعالى — قد سبق فى علمه وتقديره نصر المسلمين، لكانت هذه الظاهرة من أكبر عوامل الهزيمة قال تعالى:

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ [الأنفال: ١١]

قال ابن كثير: أما النعاس فقد أصابهم يوم أحد، وأمر ذلك مشهور جدا، وأما الآية الشريفة: إنما هى فى سياق قصة بدر، وهى دالة على وقوع ذلك أيضا، وكأن ذلك كائن للمؤمنين عند شدة البأس، لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله» (١).

رابعاً: الإمداد بالملائكة:

وعامل هام — يعد فى طليعة الأسباب المؤدية إلى النصر، هو الامداد بالملائكة، وذلك أن الله تعالى، عندما أمد رسوله بالملائكة — فى هذه الغزوة — يقاتلون فى صفوف المسلمين، وجّه الأنظار إلى أن هذا المدد ما هو إلاّ بشارة بالنصر، ولتطمئن به القلوب وإلا فالواقع أن النصر من عند الله لا يتوقف على هذا الإمداد، ولا على تكثير العدد، قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣١٠.

مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾

[آل عمران : ١٢٣ـــ١٢٦]

قال ابن كثير في قوله تعالى : (وما جَعَلهُ الله إلاّ بُشْرَى لكُم) الآية .. أى وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالهم إلا بشارة لكم ، وتطييبا لقلوبكم وتطمينا ، وإلا فإنما النصر من عند الله ، الذى لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم ، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم (١) .

بيد أن بعض الباحثين المحدثين ، لم يستطع فهم المعنى الحقيقى لما جاء فى قوله تعالى ، من تأييده للمسلمين بامدادهم بالملائكة ـــ فى هذه الآية ، وفى قوله سبحانه :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾

[الأنفال : ٩]

بل يرى أن الإمداد بالملائكة ليس إمداداً حقيقيا ، بل المقصود منه التقوية المعنوية فقط .

فقد كتب الدكتور وهبة الزحيلى بحثا بعنوان : «الإمداد بالملائكة فى غزوة بدر هل كان حقيقة مادية أن تقوية معنوية ؟» (٢) انتهى فيه إلى القول بأنه كان مجرد تقوية معنوية ، واعتمد على مجموعة من الاستدلالات منها :

١ ـــ أنه ليس فى القرآن الكريم نص قاطع على أن الملائكة قاتلت بالفعل ، وأن الظاهر من الآيات مجتمعة هو أن اشتراك الملائكة ـــ فى معركة بدر ـــ كان عملا روحيا ، وأن بعض العلماء أنكر قتال الملائكة يوم بدر ، فهم

(١) تفسير ابن كثير ج١ ص٤١٨ .

(٢) نشر فى مجلة حضارة الإسلام الدمشقية ، عدد ربيع الأول سنة ١٣٩٩ هـ .

لم يقاتلوا فعلا ، وإنما كانوا يكثرون السواد ، ويثبتون المؤمنين وإلاّ فملك واحد كاف فى إهلاك أهل الدنيا كلهم .

٢ ــ أن الروايات المنقولة عن اشتراك الملائكة فى القتال فعلا لم يصح سندها ، ومن أضعفها رواية الربيع بن أنس ، فهى دعوى تناقض الحسّ ، إذ من الذى يستطيع قتل أحد من الملائكة ، ورواية الربيع هذه ، هى قوله : «كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممّن قُتلوا بضرب الأعناق ، وعلى البنان ، مثل سمة النار قد أحرق به .

٣ ــ ذكر الدكتور الزحيلى ، قول الحق سبحانه :

﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال : ١٢] .

ثم قال : إن قوله تعالى : (سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) .

من تتمة خطاب الله للمؤمنين ، وهو يقتضى أن قوله بعد ذلك : (فاضْربُوا فَوْقَ الأَعْناقِ واضْرِبُوا مِنْهمُ كلِ بنان) خطاب للمؤمنين وليس للملائكة .

٤ ــ ثم تساءل قائلا : «هل إذا خاضت الملائكة المعركة فعلا ، يتحقق المقصود الشرعى من تكليف الناس بالجهاد الحق ؟» .

ثم ختم بحثه قائلا : «والخلاصة أن الإطناب بذكر اشتراك الملائكة فى القتال يوم بدر ، لايتفق مع ماثبت من موقف البطولات لصحابة رسول الله ــ ﷺ ــ .

* هذه هى الاستدلالات الرئيسية ، فى بحث الدكتور وهبة الزحيلى عن الامداد بالملائكة ، وهناك فى ثنايا البحث آراء واستدلالات أخرى ضمنها بحثه ، ليؤكد فكرته من أن هذا الإمداد ليس إمدادًا حقيقياً .

أما قول الدكتور الزحيلي: إنه ليس فى القرآن نص قاطع على أن الملائكة قاتلت بالفعل إلى جانب المسلمين فى غزوة بدر، فإن الآية (١٢) من سورة الأنفال التى أوردها هو نفسه فى بحثه، تعتبر نصا قاطعا على اشتراك الملائكة بالقتال ففيها

(فَاضربُوا فَوْقَ الأعْنَاقِ واضْرِبُوا مِنْهُم كل بنان)

والخطاب أو الأمر موجه هنا إلى الملائكة ــ لا إلى المؤمنين كما وهم الدكتور، لأن جملة الآية خاصة بخطاب الملائكة (إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا، سَأُلقِى فى قلُوب الذين كَفَرُوا الرُّعْبَ، فاضربوا فوق الأعناق، وأضربوا منهم كل بنان).

فجملة (سَأُلقى فى قلُوبِ الذِين كَفَرُوا الرُّعْبَ) معترضة، وهى خبر أو وعد من الله للملائكة وللمؤمنين معا، بأن الله سيلقى فى أفئدة الكافرين الخوف من قتال المسلمين. وجاء قبلها قوله تعالى: (فثَبِّتُوا الَّذِين آمنوا) وهو خطاب أو أمر للملائكة بتثبيت المؤمنين، ثم جاء بعد الجملة الإعتراضية ــ الجملة المتفرعة عن الجملة الأولى الموجهة إلى الملائكة، وهى قوله تعالى:

(فاضْـرِبُوا فَوْق الأعْناق واضربوا منهم كل بنان) وهى حتما أمر للملائكة بضرب الأعناق، وضرب البنان من المشركين، بل هى بيان لنوع التثبيت، المأمور به فى الجملة الأولى، والملائكة كما يصفهم القرآن:

﴿ لَا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦]

والحقيقة.. فإن الآية الكريمة ليس فيها قرينة لفظية أو معنوية، تحول سياق الخطاب عن مقتضاه، وتدل على أنها خطاب للملائكة، وتوجيهه إلى المؤمنين، فوجب اعتبارها كلها خطابا للملائكة.

ويؤكد هذا المفهوم ــ باشتراك الملائكة فعلا فى القتال، ما جاء فى الآيتين

التاليتين (١٣، ١٤) من نفس السورة، من قوله عز وجل تعليلا وبيانا لإيحائه أوامره للملائكة بالقتال فى صفوف المؤمنين:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ١٣].

وقوله أيضا:

﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [الأنفال: ١٤].

والمعنى الواضح، الذى لا يحتاج إلى تأويل، هو أن هذا العقاب الشديد، الذى أنزله الله بالكافرين، إنما كان جزاء لهم على أنهم شاقوا الله ورسوله، وأنه ــ أى العقاب الشديد ــ هو هذا الإمداد بالملائكة، ليقاتلوا مع المؤمنين، فيضربوا فوق الأعناق منهم، ويضربوا كل بنان، ثم يقرعهم ــ أى الكافرين ــ ويوبخهم، ويشفى صدور قوم مؤمنين، بقوله (ذلكم) أى قتال الملائكة مع المؤمنين، وهو ما لا طاقة لهم به (فذقوه) فى الدنيا، ولكم فى الآخرة أيضا عذاب النار.

هذا وقد اشتمل القرآن العظيم، على مجموعة من الآيات، التى توضح وتؤكد استمرار إمداد الله لنبيه بالتأييد بالملائكة فى غير يوم بدر.

من ذلك قول الله عز شأنه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٩]

وفى هجرة الرسول ــ ﷺ ــ مع صاحبه أبى بكر الصديق إلى المدينة، يقول الله تعالى:

﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٤٠]

وفي غزوة حنين، يقول عز وجل:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة : ٢٥، ٢٦]

فهذه نصوص قرآنية، صريحة الدلالة علي قدرة الله سبحانه، وإمكانية الإمداد المادى بالملائكة، فى معركة بدر.، وفى غير معركة بدر.، ولو كانت الملائكة نازلة أو منّزلة لمجرد التثبيت والتحريض والتقوية المعنوية ــ كما ذهب الزحيلى ــ لكفى عنها إنزال السكينة على الرسول وعلى أصحابه. الوارد فى الآيتين (٢٦، ٤٠) من سورة التوبة، ولكانت الريح كافية عن جنود الملائكة الواردة فى الآية (٩) من سورة الأحزاب.

* وهناك آية أخرى عامة، أكثر تحديداً ووضوحا فى إمكان نزول الملائكة، لتأييد المسلمين الصادقين الصابرين على مدى الدهر، وهى قوله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ والآية التى تليها تؤكد معناها بقوة

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١]

وأظن فى ذلك الرد الكافى على الدكتور الزحيلى فيما توهمه وذهب إليه.

وبين أيدينا نصوص موثقة، ذكرها ابن اسحق فى السيرة النبوية، وتحرى

صدقها ابن هشام. وكلها تفيد شهود الملائكة فى وقعة بدر شهوداً حقيقيا، ومحاربتهم فى صفوف المسلمين.

أ ــ قال ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ حدثنى رجل من بنى غفار، قال: أقبلت أنا وابن عم لى حتى أصعدنا فى جبل يُشرف بنا على بدر ــ ونحن مشركان ــ ننتظر الوقعة على من تكون الدَّبرة (الدائرة) فننهب مع من ينهب، قال: فبينا نحن فى الجبل إذ دنت منا سحابة، فسمعنا فيها حمحمة الخيل، فسمعت قائلا يقول: «أقدم حيزوم».. فأما ابن عمى فانكشف قناع قلبه فمات مكانه، أى من الرهبة والفزع، وأما أنا فكدت أهلك ثم تماسكت (١) فهذا أحد شهود العيان.

ب ــ وشاهد آخر ــ هو أبو أُسيد مالك بن ربيعة، وكان شهد بدرًا، قال بعد أن ذهب بصره، لو كنت اليوم ببدر ــ ومعى بصرى ــ لأريتكم الشِّعب الذى خرجت منه الملائكة يوم بدرٍ، لا أشك فيه ولا أتمارى (٢).

حـ ــ وذكر ابن اسحاق أيضا، عن أبى داود المازنى، وكان شهد بدرًا، قال: إنى لأتبع رجلا من المشركين يوم بدر لأضربه، إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفى، فعرفت أنه قد قتله غيرى. (٣).

د ــ وقال شهود آخرون ــ فيما ذكره ابن عباس ــ أنه كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيضاء قد أرسلوها على ظهورهم.

هذا وقد وردت فى القرآن الكريم نصوص على أن لله جنوداً يسلّطها بتأييد عباده المؤمنين، وتخذيل الكافرين، من ذلك قوله عز وجل: (ولِلّه جُنودُ السَّمَاوَاتِ والأَرْض) وقوله سبحانه: (وما يَعْلَمُ جُنُود ربّكَ إلاَّ هُو).

---

(١) السيرة النبوية ٢/٦٣٣ وحيزوم اسم فرس جبريل عليه السلام.

(٢) السيرة النبوية ٢/٦٣٣. (٣) المرجع السابق.

والتعبير بلفظ (جنود) — كما ذكر العلماء — يعنى القوة المادية، سواء كانت ممثلة فى (ملائكة) أم (جن) أم فى (ريح) أم فى (طوفان).

ولو كان ذلك يعنى مجرد التأييد الإلهى روحيا أو معنويا، لكفى فيه إنزال السكينة على قلوب المؤمنين، أو إنزال النعاس أمنة عليهم، كما جاء فى سورة آل عمران، أو إرسال الريح على المشركين لتشريدهم، كما جاء فى سورة الأحزاب.

أما قول الزحيلى.. إن ملكا واحدًا يكفى لهلاك أهل الدنيا كلهم، فقد نسى أن جبريل — عليه السلام — كان ينزل إلى الرسول — ﷺ — فى صورة بشرية، ولم يره على شكله الملائكى إلا مرة واحدة، حيث ملأ بجناحيه الأفق شرقا وغربا، كما تمثل جبريل لمريم — عليها السلام — (بشرًا سَوياً)، عندما أرسل إليها ليهب لها (غُلاَماً زكياً) فى قصة ولادة المسيح — عليه السلام — من غير أب.

وقد جاء ملك الجبال مرة إلى الرسول — ﷺ — فى فترة تكذيب المشركين له فى مكة، واستأمره أن يُطْبق عليهم الأخشبين، وهما جبلان عظيمان فى مكة — فامتنع الرسول — ﷺ — عن الإذن له، وقال: «إنى لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً.

إذن فليس من الضرورى أن يشترك الملائكة مع المؤمنين، فى قتال الكافرين، وهم على هيئاتهم الملائكية، بل لعله من أسباب عوامل تثبيت المؤمنين، واطمئنان قلوبهم أن يكون الملائكة فى أشكال بشرية، ليأنسوا إليهم، إذا اتفق لبعضهم أن يروهم — كما جاء فى بعض الروايات التى ذكرها ابن اسحق فى السيرة النبوية، فقد ثبت أن بعض المسلمين شاهدوا الملائكة يوم بدر.

الفصل السابع

توزيع الأنفال

برغم ما سجله التاريخ من تحمل ومواساة بين الأنصار والمهاجرين، فإن متاعب العيلة ومشكلات الفقر تمشت خلال المجتمع الجديد، إن سترها التعفف حيناً، أبرزتها الحاجة حيناً آخر، والأزمات التى تصاحب تكوين دولة من العدم، وسط أمم تكيد لها وتتربص بها الدوائر، يجب أن تتوقع، وأن توطن النفس على احتمالها، وألا تكون حدة الشعور بها سبباً فى ضعف السيرة، وعجز الهمة.

وقد آخذ الله المسلمين ـ قبل معركة بدر الكبرى وبعدها ـ بأمور بدرت منهم، يجب لهم أن يتنزّهوا عنها، مهما بلغ من شدة الدوافع، والمبررات لارتكابها، فهم يوم خرجوا من المدينة لملاقاة مشركى مكة، تعلقت أمانيهم بإحراز العير، وما تحمل من ذخائر ونفائس.

حقاً إنهم خرّجوا من ديارهم وموطنهم، وضحوا فى سبيل الله بأنفسهم وأموالهم وأولادهم.. فليمضوا فى طريق الفداء إلى المرحلة الأخيرة، ومهما عضّهم الفقر بنابه، فليكن التنكيل بالكافرين أرجح فى ميزانهم من الاستيلاء على الغنائم..

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٧]

ومن هذا القبيل تسابقهم بعد النصر إلى حيازة الأنفال، ومحاولة كل فريق الاستئثار بها لاعتقاده أنه أولى بها من غيره، فأنزل الله (سُورة الأنفال) دفعة واحدة، وهى خمس وسبعون آية، وسجل سبحانه فيها أحداث معركة بدر لتكون ذكرى للمسلمين، ونبراساً ونهجاً، وأوضحت السورة الكريمة أمرين هامين:

١ ـ حكم الأنفال وقسمتها.

٢ ـ حكم الأسرى وكيفية التصرف فيهم.

— ١ —

أولاً : حكم الأنفال وكيفية تقسيمها

أنزل الله سبحانه وتعالى بحق الأنفال :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ . [الأنفال : ١]

فكانت هذه الآية الكريمة بمثابة قرار حاسم لحل الخلاف بين المجاهدين حول الغنائم ، إذ جعل الله أمرها عائداً إلى النبى — ﷺ — وعلى المسلمين أن يطيعوا أمره .

* يقول الحق سبحانه — مخاطباً رسوله الكريم — ﷺ :

يسألـــك أصحابك يا محمد عن هذه الغنائم ، التى غنمتها فى أول معركة بينك وبين المشركين ، وهى « غنائم بدر» لمن هى؟ وما حكمها ؟ وكيف تقسم؟

فقل لهم : هى لله وللرسول يحكم فيها الله — عز وجل — بحكمه ، ويقسمها الرسول — ﷺ — حسب تشريع الله — عز وجل ، فاتقوا الله ، ولا تختلفوا ولاتتنازعوا فى شأنها ، لأن ذلك يوجب سخط الله وغضبه عليكم ، ويضعفكم أمام أعدائكم ، وربما كان اختلافكم سبباً لتحريمها عليكم ، كما كانت حراماً عمّن كان قبلكم .

وقد كانت الغنائم محرمة على الأمم السابقة، فأحلّها الله — تعالى — لهذه

الأمة المحمدية، رحمة بها، وتيسيراً عليها، وعوناً لها على الجهاد فى سبيل الله، وقد قال - ﷺ :

«وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى»..

فلا تختلفوا أيها المؤمنون فى شأنها، ولا تتنازعوا فى أمرها، وأطيعوا الله ورسوله فى كل ما يأمركم به، واجتنبوا نواهيه فى كل ما يحذركم عنه، حتى تنالوا الدرجات العالية فى الجنة، وتكونوا من المؤمنين الصادقين فى دعوى الإيمان.

ثم بين الله - عز وجل - أوصاف المؤمنين، وختمها بما أعده لهم من الجزاء الكريم فى الآخرة، فى دار النعيم، التى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فقال سبحانه :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٢-٤]

قال عبادة بن الصامت - عن مناسبتها - «سورة الأنفال فينا معشر أهل بدر نزلت، حين اختلفنا فى النفل، وساءت أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا، فجعله لرسول الله - ﷺ، فقسمه رسول الله بين المسلمين على السواء، وكان فى ذلك تقوى الله، وطاعة رسوله، وإصلاح ذات البيْن» (١).

وروى أبو داود، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال :

«لما كان يوم بدر، قال رسول الله - ﷺ - من صنع كذا وكذا.. فله من النفل كذا.. وكذا، فتسارع شبان القوم، وبقى الشيوخ تحت الرايات، فلما كانت المغانم جاءوا يطلبون الذى جعل لهم، فقال الشيوخ: لا تستأثروا

(١) السيوطى: الدر المنثور، تفسير سورة الأنفال.

علينا فإنا كُنَّا رِدْءاً لكم، لو انكشفتم لثُبْتُم إلينا، فتنازعوا، فأنزل الله تعالى:

(يَسْأَلُونَكَ عن الأنفال .. الآية).

وروى الإمام أحمد، عن سعد بن أبي وقاص -رضى الله عنه، أنه قال:

«لما كان يوم بدر، قتل أخى «عُمَير» وقتلت سعيد بن العاص، وأخذت سيفه، وكان يسمى ذا الكتيفة، فأتيت النبى -ﷺ- فقال اذهب فاطرحه فى القبض، قال: فرجعت وبى ما لا يعلمه إلاّ الله من قتل أخى، وأخذ سلبى، قال: فما جاوزت يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لى رسول الله -ﷺ: «أذْهَب فَخُذْ سلبك» (١).

الأحكام الشرعية:

وقد انطوت هذه الآية الكريمة على مجموعة من الأحكام الشرعية:

الحكم الأول: الغنائم وحكمها وكيفية تقسيمها:

وضحت هذه الآية الكريمة حكم الأنفال، وذكرت أن أمرها مفوض إلى الله عز وجل، ورسوله -ﷺ- وليس لأحد دخل فى قسمتها، فالله وحده هو الذى يحكم بما شاء، والرسول -ﷺ- يقسمها بحسب حكم الله تعالى.

وقد اختلف العلماء هل هذه الآية محكمة أم منسوخة؟

* فذهب الجمهور إلى أنها محكمة لم ينسخها شىء، وأن هذه الآية بينت إجمالاً حكم الغنائم، ثم وردت الآية الثانية:

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [الأنفال: ٤١]

(١) أنظر تفسير الطبرى، وتفسير ابن كثير، وتفسير القرطبى للسورة.

فوضحت هذا الإجمال، وبينت بالتفصيل قسمة الغنائم ومصارفها، فالخمس يصرف فى المصارف، التى بينتها الآية الشريفة، والباقى وهو أربعة أخماس، يوزع على الغانمين، على نحو ما سنبين بعد قليل. وهذا هو الرأى الراجح.

* وقال بعضهم: إن الآية الكريمة (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَال..) منسوخة بقوله تعالى: (واعلموا أنَّمَا غنمتم من شىء فأَنَّ لله خُمُسَهُ وللرسول) وهذا الرأى ضعيف، والصحيح ما ذكرنا من أنه لا نَسْخ فى الآية، وإنما هو بيان للإجمال المذكور.

* قال ابن كثير: والصواب أنها مجملة محكمة بين مصارفها فى آية الخُمس (١).

الحكم الثانى: تنفيل بعض المجاهدين من الغنيمة:

والتنفيل: إعطاء بعض المجاهدين من الغنيمة قبل قسمتها، فللإمام أن يُنفل مَنْ شاء من الجيش قبل التخميس، لقصة «سعد بن أبى وقاص» المتقدمة.

ولما روى عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال فى غزوة بدر: «من قتل قتيلاً فله كذا، ومن أسر أسيراً فله كذا» وهذا هو رأى الجمهور وهو الصحيح (٢).

وقد نقل عن الإمام مالك ـ رحمه الله ـ أنه كره ذلك، وقال: هو قتال على الدنيا.

قال «ابن العربى» فى تفسير آيات الأحكام ما نصه:

قال: علماؤنا: النفل على قسمين: جائز ومكروه، فالجائز: بعد القتال،

---

(١) تفسير ابن كثير ج٢ تفسير سورة الأنفال.

(٢) الشيخ محمد الصابونى: تفسير آيات الأحكام ٥٩٣/١.

كما قال النبى - ﷺ - يوم حنين: «من قتل قتيلاً له، عليه بيّنة، فلَهُ سَلَبُه».

والمكروه: أن يُقال قبل القتل: من فعل كذا وكذا فله كذا.. وإنما كره هذا لأنه يكون القتال فيه للغنيمة. قال رجل للنبى - ﷺ - الرجل يقاتل للمغنم، ويقاتل ليرى مكانه، أى ذلك فى سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا، فهو فى سبيل الله».

ثم قال: «ويحق للرجل أن يقاتل لتكون كلمة الله هى العليا - وإن نوى فى ذلك الغنيمة، وإنما المكروه فى الحديث، أن يكون مقصده المغنم خاصة..» (١).

الحكم الثالث: هل التنفيل من أصل الغنيمة أم من الخمس؟

أختلف الأئمة فى ذلك.

١ - فذهب مالك وأبو حنيفة - رحمهما الله - إلى أن النفل يكون من الخُمْس لا من رأس الغنيمة. وحجتهما فى ذلك، قوله - ﷺ:
«ما لى مما أفاء الله عليكم إلا الخُمس، والخُمس مردود عليكم».

٢ - وذهب الشافعي - رحمه الله - إلى أن النفل يكون من أصل الغنيمة لا من الخُمس. لما روى أن النبى - ﷺ - قضى بسلب أبى جهل «لمعاذ بن عمرو» وقال يوم حنين:
«من قتل قتيلاً له عليه بيّنة فله سلبه» (٢).

---

(١) آيات الأحكام، الجزء الثانى.

(٢) أنظر تيسير العلام شرح عمدة الأحكام للشيخ عبدالله بن صالح آل بسام الحديث ٤٠٥ - وأنظر الحاشية.

قال ابن العربى: هذه الأخبار ليس فيها أكثر من إعطاء السلب للقاتل، وهى إعطاء ذلك له من رأس المال ــ مال الغنيمة، أو من الخمس؟

ذلك إنما يؤخذ من دليل آخر، وقد قسم الله الغنيمة حق على الأخماس، فجعل خمسها لرسوله وأربعة أخماسها لسائر المسلمين، والذى يدل على صحة ما ذهبنا إليه:

ما روى أن «عوف بن مالك» قال: قتل رجل من حمير رجلاً من العدو، فأراد سلبه، فمنعه خالد وكان والياً عليهم، فأخبر عوف رسول الله ــ ﷺ ــ فقال لخالد: ما منعك أن تعطيه سلبه؟ قال: استكثرته يا رسول الله! قال: ادفعه إليه.

فلقى «عوف» خالداً فجرّ بردائه، وقال: هل أنجزت ما ذكرت لك عند رسول الله ــ ﷺ ــ؟ فسمعه رسول الله ــ ﷺ ــ فاستغضب فقال: لا تعطه يا خالد، هل أنتم تاركو لى إمْرَتى؟.

قال: فلو كان السلب حقاً له من رأس الغنيمة، لما رده رسول الله ــ ﷺ ــ لأنها عقوبة فى الأموال، وذلك لا يجوز بحال، وقد ثبت أن ــ ابن المسيب، قال: ما كان الناس ينفلون إلاّ من الخُمْس.

وخلاصة ما تقدم، أن الحق سبحانه جعل الأحكام كلها مرجعها إلى الله تعالى وإلى رسوله الكريم ــ ﷺ، وقد أوضحت الآية الكريمة اهتمام الشارع الحكيم بإصلاح ذات البين حفظاً لوحدة المسلمين.

* بعد أن أجاب القرآن الكريم على سؤال المسلمين، مبيناً أن حكمها، وأن تقسيمها يكون بواسطة الرسول ــ ﷺ ــ على حسب ما أمر به.. بين القرآن حكمها بالتفصيل فى قوله تعالى:

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٤١]

* قال القرطبى – فى تفسيره –: لما بين الله – تعالى – حكم الخُمس وسكت عن الباقى. دلَّ ذلك على أنه ملك للغانمين:

• لذى القربى: هم قرابة الرسول – ﷺ – وهم: بنو هاشم، وبنو المطلب» على الصحيح من الأقوال – كما سيأتى إن شاء الله.

• واليتامى: هم أولاد المسلمين، الذين هلك آباؤهم فى سن الصغر قبل البلوغ، لأنه لا يتم بعد البلوغ.

• والمساكين: هم أهل الفاقة والحاجة من المسلمين.

• وابن السبيل: هو المنقطع فى سفره من شدة حاجته، وإنما قيل «ابن السبيل» لأنه لما انقطع فى سفره أصبح الطريق كأنه أب له.

يقول الله جل ثناؤه ما معناه: اعلموا أيها المؤمنون أن كل ما غنمتموه من الكفار المحاربين، أيًّا كان قليلاً أو كثيراً حق ثابت لكم، وحكمه: أن لله خُمُسَه، وللرسول، ولذى القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، فاقسموه – خمسة أقسام – واجعلوا خُمُسه لله، ينفق فى مصالح الدين، وإقامة الشعائر، وعمارة الكعبة وكسوتها، ثم اعطوا الرسول – ﷺ – منه كفايته لنفسه ولنسائه، ثم اعطوا منه ذى القربى من أهله وعشيرته، ثم المحتاجين من سائر المسلمين، وهم اليتامى والمساكين وابن السبيل.

ثم بين سبحانه وتعالى: أن هذا هو مقتضى الإيمان، وهو الإذعان والخضوع لأوامره وأحكامه، وعدم الخلاف والنزاع فيا بينهم، لأن الله – عز وجل –

هو الذى قسمّ فأعطى كل ذى حق حقه، كما راعى مصالح العباد جميعاً، فما على المؤمنين إلاّ الرضا والتسليم لحكم الله العلى الحكيم.

* وهنا نجد وجهاً من أوجه الارتباط بين هذه الآية، والآيات السابقة عليها..

فلما أمر الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ فى الآيات السابقة، بقتال الكفرة المعتدين، الذين كانوا يفتنون المؤمنين، ويقفون فى وجه الدعوة الإسلامية، ووعد المؤمنين بالنصر عليهم.. وكان ذلك مستلزماً لكسب الغنائم منهم، بيّن جلّ وعلا ـــ هنا: حكم قسمة هذه الغنائم، وأوضح وجوه المصارف فيها، حتى لا يكون ثمةنزاع ولا خلاف بين الغانمين.

الأحكام الشرعية:

وقد انطوت هذه الآية الكريمة على مجموعة من الأحكام الشرعية(١)، منها:

● **الحكم الأول: هل الغنيمة والفىء شىء واحد؟**

اختلف العلماء فيهما:

فقال الشافعى: الغنيمة ما أُخِذ عنوة من الكفار فى الحرب، والفىء ما أُخذ عن صُلح.

وقال مجاهد: الغنيمة ما أُخذ من مال منقول، والفىء هو مال غير منقول، كالأرضين والعقارات، وغيرهما.

وقيل: الغنيمة والفىء بمعنى واحد. والصحيح الأول. وهو ما ذهب إليه الشافعى.

---

(١) انظر فى ذلك: الجامع لأحكام القرآن للقرطبى، وأحكام القرآن لابن العربى. وتفسير آيات الأحكام للصابونى ص٦٠٧.

قال القرطبى: واعلم أن الاتفاق حاصل على أن المراد بقوله تعالى: (غَنِمْتُم مِنْ شَىْء) مال الكفار، إذا ظفر به المسلمون على وجه الغلبة والقهر، ولا تقتضى اللغة هذا التخصيص على ما بيّنّا، ولكن عُرْف الشرع قيّد اللفظ بهذا النوع، وسمّى الشرع المال الواصل إلينا من الكفار باسمين: (غنيمة) و(فىء). فالشىء الذى يناله المسلمون من عدوهم بالسعى وإيجاف الخيل والركاب غنيمة، ولزم هذا الاسم هذا المعنى حتى صار عرفاً.

والفَىْء مأخوذ من فَاء يَفىء إذا رجع، وهو كل مال دخل على المسلمين من غير حرب، ولا إيجاف كحراج الأرضين(١).

● الحكم الثانى: كيف يوزع الخمس بين الغانمين؟

ذكرت الآية الكريمة، أن خُمس الغنائم يوزع لمن سمّاهم الله ـ عز وجل، فى كتابه العزيز وهم ستة: (الله، والرسول، وذو القربى، اليتامى، المساكين، ابن السبيل) وسكت عن الباقى، فدلّ ذل على أنه يوزع على الغانمين.

١ ـ سهم الله: أما سهم الله ـ عز وجل ـ فقد اختلف المفسرون فيه على قولين:

أ ـ إنه ما يصرف على بيت الله الحرام (الكعبة)، لأن قوله (لِله) ـ أى لبيت الله، فهو على حذف مضاف.

ب ـ وقال جمهور العلماء: إن قوله تعالى (لله) استفتاح كلام يقصد به التبرك، فلله الدنيا والآخرة، وهو المالك لكل ما فى السموات والأرض، فليس سبحانه بحاجة إلى سهم من هذه الأسهم، لأنه هو الغنى، وإنما ذكر

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ـ تفسير الآية.

ـتبارك وتعالى ـ اسمه، ليعلمنا التبرك بذكره وافتتاح الأمور باسمه، وعلى هذا الرأى يكون الخُمس بين خمسة:

(الرسول، ذى القربى، اليتامى، المساكين، ابن السبيل).

قال الواقدى: الذى لله هو للرسول (١).

٢ ـ سهم الرسول:

أما سهم الرسول ـ ﷺ ـ فإنه حق له، يأخذه من الغنيمة، ويضعه حيث شاء، لأهل بيته، أو فى مصالح المسلمين، يدل على ذلك قوله ـ ﷺ:

«مالى مما أفاء الله عليكم إلاّ الخُمْس، والخُمس مردود عليكم».

وقال بعض العلماء: إن لفظ (الرسول) فى الآية استفتاح كلام، كما قالوا فى قوله (لله) وأن الخمس يقسم على أربعة أسهم: (ذى القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل).

٣ ـ سهم ذى القُرْبى:

أما سهم ذى القربى، فالمراد به قرابة الرسول(٢) ـ ﷺ. وقد اختلف فى (ذى القربى) على ثلاثة أقوال.

أ ـ قيل: إنهم قريش جميعاً.

ب ـ وقيل: إنهم بنو هاشم فقط.

جـ ـ وقيل: إنهم (بنو هاشم) و (بنو المطلب) وهذا هو الرأى الصحيح

---

(١) كتاب المغازى، تحقيق الدكتور مارسدن جونس ص١٣٤ طبع عالم الكتب ببيروت سنة ١٤٠٤هـ.

(٢) المرجع السابق.

والراجح. ومما يدل عليه ما رواه البخارى، عن مطعم بن جبير، من بنى نوفل، قال:

«مشيت أنا وعثمان بن عفان، من بنى عبد شمس، إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقلنا يا رسول الله، أعطيت بنى المطلب وتركتنا، ونحن وهم بمنزلة واحدة، فقال رسول الله ـ ﷺ:

«إنما بنو المطلب وبنو هاشم شىء واحد، إنهم لم يفارقونا فى جاهلية ولا إسلام».

فدلّ الحديث على أن المراد بذى القربى (بنو هاشم، وبنو المطلب).

* ويرى بعض العلماء، أن القرابة لا يعطون إلا أن يكونوا فقراء، وهذا الحكم ثابت للرسول ـ ﷺ ـ ولذى قرباه فى حياته، وأما بعد وفاته فإنه يرجع إلى بيت مال المسلمين.

قال أبو حنيفة: يقسم الخُمس على ثلاثة: (اليتامى، والمساكين، وابن السبيل) لأنه قد ارتفع سهم الرسول ـ ﷺ ـ بموته، كما ارتفع سهم أقربائه بموته، وهذا منقول عن الشافعى أيضاً.

* قالوا: ويبدأ من الخمس بإصلاح القناطر، وبناء المساجد، وأرزاق القضاة والجند.

٤ ـ سهم اليتامى:

وهذا السهم يصرف على أطفال المسلمين، الذين هلك آباؤهم وهم فى سنّ الصّغر. وأما بعد البلوغ، فيزول عنهم وصف اليُتم.

٥ ـ سهم المساكين:

وهم أهل الفاقة والحاجة من ضعفاء المسلمين، الذين لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً، ويحتاجون إلى مواساة ومساعدة.

٦ ــ سهم ابن السبيل :

وهو الغريب ، الذى انقطع فى سفره ، فإنه يُعطى من الخمس حتى ولو كان غنياً فى بلده . لأننا نعتبر حالته التى هو عليها الآن .

* هذا وقد خالف المالكية هذه الأقوال المتقدمة جميعاً ، ورأوا : أن الخُمس ــ أى خُمس الغنيمة . يجعل فى بيت المال ، ينفق منه على ما ذكر فى الآية ، وعلى غيرهم بحسب ما يراه الإمام من المصلحة .

وقالوا : إن ذكر هذه الأصناف ــ فى الآية الكريمة ــ إنما هو على سبيل المثال ــ لا عَلَى سبيل التمليك ، وهو من باب إطلاق (الخاص وأريد به العام) .

* وللمالكية أدلة فى ذلك : فهم يستدلون لمذهبهم ببضعة أدلة ثبتت فى المغازى والسير ، جعلتهم يذهبون إلى هذا الرأى ، وقد ذكرها ابن العربى ، وهى (١) :

* أولاً : روى فى الصحيح ، أن النبى ــ ﷺ ــ بعث سرية قبل نجد ، فأصابوا فى سهمانهم اثنى عشر بعيراً ، ونفلوا بعيراً بعيراً .

ثانياً : ثبت عنه ــ ﷺ ــ أنه قال فى أسارى بدر :
« لو كان المطعم بن عدى حياً وكلّمنى فى هؤلاء النتنى لتركتهم له » (١) .

والمراد بالنتنى .. الأسرى المشركين ، والمطعم بن عدى ، هو الذى أجار

(١) أحكام القرآن ، الجزء الثانى .
(٢) رواه البخارى .

النبى – ﷺ – حين رجع من الطائف، وهو الذى قام بنقض الصحيفة، فقال النبى – ﷺ – ذلك مكافأة له على جميله وإحسانه.

ثالثاً: ثبت أن النبى – ﷺ – ردّ سبى هوازن، وفيه الخُمس.

رابعاً: روى فى الصحيح، عن عبد الله بن مسعود، قال: آثر النبى – ﷺ – يوم حنين أناساً من الغنمية، فأعطى (الأقرع بن حابس) مائة من الإبل، وأعطى (عُيينة) مائة من الإبل، وأعطى أناساً من أشراف العرب وآثرهم يومئذ فى القسمة، فقال رجل: والله إن هذه القسمة ما عدل فيها، أو ما أريد بها وجه الله. فقلت: والله لأخبرنّ النبى – ﷺ – فأخبرته، فقال: يرحم الله أخى موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر.

خامساً: روى فى الصحيح أيضاً، أن النبى – ﷺ – قال:
«ما لى مما أفاء الله عليكم إلاّ الخمس، والخُمُسُ مردود عليكم».

فمن هذه الأحاديث، يتبين أن الخُمس من حق الإمام، يتصرف به كيف يشاء، ويجعله فى مصالح المؤمنين، وأن ذكر هذه الأصناف – فى الآية – إنما هو على سبيل (التمثيل) لا على سبيل (التمليك)، إذ لو كان مِلْكاً واستحقاقاً لهم لما جعله الرسول – ﷺ – فى بعض الأحيان فى غيرهم.

وهذا الرأى للمالكية سديد ووجيه(١).

● الحكم الثالث: كيفية توزيع الغنائم:

ظاهر الآية الكريمة، يدل على أن توزيع الغنيمة يكون بين المحاربين على السوية، من دون تفضيل أو زيادة أو نقص.

---

(١) الشيخ محمد الصابونى: تفسير آيات الأحكام ٧ ٦.

بيد أنه ورد فى السنة النبوية ما يدل على التفضيل فى بعض الحالات.

* فقد روى أن النبى ـ ﷺ ـ قَسَّمَ فى النَّفل للفرسِ سهمين، وللراجل سهماً»(١).

ورأى جمهور العلماء، أن يُعطى الفارسُ سهمين، ويُعطى الراجل سهماً واحداً، وذلك لأن الذى يركب الفرس يحتاج إلى نفقة لفرسه، ويكون بلاؤه فى الحرب أعظم، ولذلك فإن الشارع الحكيم راعى هذه الناحية، فزاده فى القسمة، فأعطى سهماً له وسهماً لفرسه.

● الحكم الرابع: هل هذه الآية ناسخة للآية السابقة؟

يذهب بعض العلماء إلى أن الآية (٤١) من سورة الأنفال، ناسخة لأول آية فى السورة لأن الآية الأولى ذكرت أن الأنفال لله وللرسول، وهذه الآية بيّنت أن للغانمين أربعة أخماس الغنيمة، فتكون هذه الآية ناسخة لتلك، والصحيح أنه لانسخ فيها ـ كما ذكرنا ذلك من قبل. وإنما هذه الآية مفسرة ومبينة ما أجملته الآية الأولى.

* بقى أن نذكر، أن تشريع خُمس الغنائم فى أعقاب غزوة بدر، ذو خطورة عظيمة، نظراً لأنه أول تشريع قرآنى مالى رسمى غير الزكاة، توطد به بيت المال فى الإسلام. وتيسر تحقيق ما دعا إليه القرآن من مساعدة الطبقات المحتاجة، والإنفاق فى سبيل مصالح المسلمين العامة بأسلوب رسمى غير قائم على التبرع(٢).

---

(١) رواه الدارقطنى.

(٢) الدكتور عزة دورزة: سيرة الرسول ٢/٣٢٩.

— ٢ —

ثانيا: حكم الأسرى وكيفية التصرف فيهم

وقضية أخرى — فجرتها سورة الأنفال، وهى قضية الأسرى، وما كان من استجازة أخذ الفداء فيهم، قبل أن يشرع ذلك، وقبل أن يأذن الله فيه. وكان عدد هؤلاء الأسرى سبعين أسيراً، استشار فيهم رسول الله — ﷺ — كبار أصحابه، أبا بكر، وعمر، وعبدالله بن رواحة، وكل منهم أشار برأى مغاير للآخر، مما جعل رسول الله — ﷺ — لا يعجل فى البت برأى أحد منهم.

● قال عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — لما كان يوم بدر جيء بالأسرى — أى بعد الغزوة وقفول رسول الله — ﷺ — إلى المدينة، فقال رسول الله: ما تقولون فى هؤلاء؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله.. قومك وأهلك، استبقهم واستأن بهم، لعل الله أن يتوب عليهم، وخذ منهم فدية تكون قوة لنا على الكفار.

وقال عمر: يا رسول الله.. كذبوك وأخرجوك، قدمهم نضرب أعناقهم، مكن علياً من عقيل (أخيه) فيضرب عنقه، ومكنى من فلان (نسيب لعمر) فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر.

وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، أنظر واديا كثير الحطب،

فأدخلهم فيه، ثم أضرم عليهم ناراً. فقال العباس —وكان فى الأسرى— قطعت رحمك.

فسكت رسول الله —ﷺ— ولم يُجبهم، ثم دخل، فقال ناس: يأخذ بقول أبى بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول ابن رواحة.

ثم خرج رسول الله —ﷺ— فقال:

«إن الله ليلّين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، ويشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم، قال: (فمن تَبِعَنى فإنّه منّى ومَنْ عَصَانى فإنك غَفُورٌ رحيم).

ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى، قال: (إنْ تعذّبهم فَإنَّهُمْ عِبَادُك وإنْ تَغْفِر لهم فإنْكَ أنْتَ العزيز الحليم).

وإن مثلك يا عمر مثل نوح، قال:

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦].

ومثلك مثل موسى قال: (ربنا اطْمِس على أموالهم واشْدُد عَلَى قلوبهم).

ثم قال رسول الله —ﷺ— «إنكم اليوم عالة فلا يَفْلِتَنّ منهم أحد إلاّ بفداء أوْ ضَرْب عنق»(١).

قال عمر بن الخطاب —رضى الله عنه— فهوى رسول الله ما قال أبو بكر، ولم يَهْوَ ما قلت. فلما كان الغد جئت فإذا رسول الله وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله، أخبرنى من أى شىء أنت تبكى وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما؟.

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٣/٢٩٩.

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ أبكى للذى عرض علىّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض علىّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة ـ لشجرة قريبة من رسول الله. وأنزل الله تعالى:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) [الأنفال: ٦٩].

حيث نهى الحق سبحانه عن اتخاذ الأسرى قبل الإثخان فى قتل الذين يصدون عن سبيل الله، ويمنعون دين الله من الانتشار، وعاب بعض المسلمين على إرادة عرض الدنيا وهو الفدية، ولولا حكم سابق من الله ألا يعاقب مجتهداً ـ مادام المقصد خيرا ـ لكان العذاب، ثم أباح لهم الأكل من تلك الفدية المبنى أخذها على النظر الصحيح، وهذا هو أقوى الأدلة على صدق الرسول ـ ﷺ ـ فيما جاء به، لأنه لو كان من عنده ما كان يعاتب نفسه على عمل بناه على رأى كثير من الصحابة، وقد وعد الله الأسرى، الذين يعلم فى قلوبهم خيراً بأن يؤتيهم خيراً مما أخذ منهم، ويغفر لهم، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٧٠].

ولقد كان فى أخذ رسول الله ـ ﷺ ـ برأى أبى بكر وغيره، ممن أشار بأخذ الفداء، كان فى الأخذ برأيهم تغليب لجانب الرحمة والشفقة، ولأنه ـ ﷺ ـ نظر إلى الموقف نظر بعيدة، فيها الرجاء والأمل، وطمع أن يكون من بين جماعة الأسرى من يهديه الله للإسلام، وينصر الله على يديه الدين، أو يكون فى عُقبُه من ينضم إلى جماعة المسلمين.

---

(١) المرجع السابق ٢٩٧/٣.

وقد كان ما أمّله الرسول الرءوف الرحيم ، فدخل فى دين الله من سبقت له الهداية من الأسرى. وكان فى طليعتهم العباس عم رسول الله، وسُهَيْل بن عمرو ذلك البطل المغوار، الذى وقف وقفته المشهورة فى مكة، يوم وفاة رسول الله ، وقد هَمَّ أهل مكة بالرجوع عن الإسلام ، فقام فيهم سُهيل، وحذّر وتوعد عاطفاً على خبر الوفاة ، قائلاً :

«إن ذلك لم يزد الإسلام إلاّ قوة، فمن رابنا ضربنا عنقه».

فتراجع الناس، والتزموا الاسلام. وكان سهيل هذا ـ كما أسلفت من أسرى بدر.

وقد لمّح الصادق المصدوق ـ ﷺ ـ عن موقف سهيل هذا بقوله، عندما طلب منه عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أن يُخلى بينه وبين سهيل لينتزع ثنيته، لمّح رسول الله بموقفه قائلاً : «إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمّه».

وذلك علم من أعلام النبوة، ولا يصح الاستناد عليه لإثبات دعوى من يزعم أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يعلم الغيب، ولكن الله تعالى يؤيد رسله بالإخبار عن شيء من المغيبات، لتكون من المعجزات والخوارق التى تحمل على تصديقهم (١).

من أجل هذه النظرة البعيدة من رسول الله ـ ﷺ ـ إلى الأسرى انحاز إلى رأى أبى بكر، وقَبِل الفداء، وسارعت إليه قريش مرغمه لتستنقذ به رجالاتها والأعزّة عليها.

وليس من أغراض بحثنا الدخول فى تفاصيل عن مبلغ الفداء، وفرض التساوى

(١) عبد الله خياط: حكم وأحكام من غزوات النبى ص٤٠ طبع الرياض سنة ١٤٠٢هـ.

فيه بين الأسرى من عدمه، ولكننا نريد أن نسجل بعض مواقف رسول الله ـ ﷺ ـ تجاه الأسرى، فمنها الشديد القاسي، ومنها البر الرحيم.

* أما موقفه من عمه العباس، فيختلف باختلاف الظروف، فقد وقف الرسول ـ ﷺ ـ منه موقفاً متشدداً حين طالبه بالفداء عن نفسه، وعن ابن أخيه عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث. وكان العباس أحد العشرة الذين ضمنوا لقريش طعامها في بدر، وكان الإطعام يوم المعركة من نصيب العباس، فاقتتل الناس وأُسر العباس، وكان معه عشرون أوقية من الذهب، خرج بها في هذا الوجه لغرض الإطعام، فأُخذت منه غنيمة في المعركة، وعندما طلب منه الفداء، رغب إلى رسول الله ـ ﷺ ـ أن يحتسب مبلغ العشرين أوقية المذكورة من أصل الفداء المفروض عليه، فأبى ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ وقال له: «أما شيء خرجت به تستعين به علينا فلا أتركه لك، فقال العبّاس، يا محمد: لقد تركتني أتكفف قريشا ما بقيت، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ فأين الذهب الذي دفنته لأم الفضل، وقلت لها وقت خروجك من مكة: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حَدَث فهذا لك، ولعبد الله، ولعبيد الله، وقثم، والفضل ـ أي بنيه الأربعة.

فقال له العباس: وما يدريك؟ قال ـ ﷺ ـ أخبرني ربي عز وجل، فقال العباس: أشهد أنك صادق، وأن لا إله إلا الله، وأنك عبده ورسوله، ولم يطلع عليه أحد إلا الله عز وجل[١].

وقد وضح الرسول ـ ﷺ ـ بهذا الموقف من عمه، أرفع قواعد العدل والمساواة، ورسم الطريقة المثلى في استيفاء الحقوق على القريب والبعيد

---

(١) البداية والنهاية ٣/٢٩٩.

على حد سواء، دون مجاملة ومداجاة، أو جور وتحيّف، ولقد استأذن نفر من الأنصار رسول الله ـ ﷺ ـ فى أن يضعوا عن عمه العباس فداء، فلم يسمح بذلك، بل أقسم مؤكداً قائلاً: «لا والله لا تذرن منه درهما»، وذلك غاية العدل والمساواة اللذين انتشر بهما السلام على ربوع الإسلام، وفتحا القلوب لجيوش الإسلام، قبل أن تفتحها قوة السلاح والعتاد.

* موقف ثان، وقفه رسول الله ـ ﷺ ـ من عمّه أيضا، موقف مغاير للموقف الأول، إذ قد تجلت فيه عواطف الرحمة، وتغلبت على غيرها.. ذلك أن العباس عندما وقع فى الأسر شُدَّ وثاقه كغيره من الأسرى دون هوادة، فبات رسول الله ـ ﷺ ـ ساهراً، لم يغمض له جفن، وكلما سمع أنين العباس من أثر الوثاق طال سهاده، ولحظ هذا التأريق بعض صحابته، فقالوا: ما يسهرك يا نبى الله؟ قال: أسهر لأنين العباس، فقام رجل من القوم فأرخى وثاقه، فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ مالى لا أسمع أنين العباس؟ فقال الرجل: أنا أرخيت من وثاقه، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ فافعل ذلك بالأسرى كلهم (١).

وهذا الموقف الرحيم إن دلّ على شىء، فإنما يدل على مبلغ رعاية رسول الله ـ ﷺ ـ للعباس، والشفقة عليه، والأسى على موقفه من قضية الإسلام، وقد كان يوّد له غير ذلك.

* وموقف ثالث: على غرار هذا الموقف من حيث الرعاية والعطف، غير أنه كان يشرك أبا طالب فيه، وبعض نفر من بنى هاشم، وبعض الرجال من قريش، استكرهوا على الخروج إلى بدر فى ركاب قريش، وبوّدهم لو تُركوا بمكة، فقد كانت عواطفهم مع رسول الله ـ ﷺ ـ

---

(١) محمد رضا، محمد رسول الله ص٢١٢ مطبعة الحلبى بالقاهرة سنة ١٣٥٣ هـ.

ـ عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما، أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال يوم بدر:

« إنى قد عرفت أن أناساً من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقى منكم أحداً منهم » . ـ أى من بنى هاشم فلا يقتله، ومن لقى أبا البخترى بن هشام فلا يقتله، ومن لقى العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما أُخرج مستكرها، فقال رجل من الأنصار كلمة لم يرض عنها رسول الله، وقال لعمر بن الخطاب: «يا أبا حفص أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف»(١).

وفى رواية: فذهب عمر بن الخطاب، بأمر رسول الله ـ ﷺ ـ إلى الأنصار واستخلص منهم العباس.

ومن مجموع هذه المواقف من العباس ـ على اختلافها وتباينها شدة وعطفا، يتضح مبلغ برّ رسول الله ـ ﷺ ـ بعمه وإحسانه إليه، والرغبة فى هدايته وتخليصه من الهوان الذى تعرض له بالأسر.

قال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ للعباس بعد تخليصه من آسره، ياعباس أسلم، فوالله لئن تسلم أحب إلى من أن يسلم الخطّاب، وماذاك إلا لما رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ يعجبه إسلامك.

* ولا تتنافى مواقف الرحمة التى وقفها رسول الله ـ ﷺ ـ من عمه مع مبدأ الشدة والغلظة والسلب، الذى يجب أن يكون بين المسلمين والكافرين، فقد قام رسول الله ـ ﷺ ـ بالأمرين معا، فكان شديداً إذْ سمح بشد وثاق عمه كغيره من الأسرى، وكان شديداً فى طلب الفداء منه، وعدم التسامح فى اسقاط شىء عنه، أو احتساب ما كان أُخذ منه فى المعركة، من أصل

(١) عيون الأثر ٢٥٨/١ طبعة القاهرة سنة ١٣٥٤هـ.

المبلغ المطالب به للفداء. وكان شديداً أيضاً عندما ادّعى العباس العجز، حيث طالبه بالتسديد من المبلغ الذى دفنه بمكة لزوجه، ولو تجاوز له عنه ـ وهو لم يعلم به غير علام الغيوب، أو سمح بالحط من فدائه، لما كان فى ذلك مغمز، فلقد منّ على أناس بدون فداء ـ على ما سيأتى بيانه ـ وكان يسع العباس ماوسعهم، ولكنه ـ ﷺ ـ وهو الإنسان الكامل، أبَى إلاّ أن يضع الحق فى نصابه.

وإلى جانب هذه الشدة، قام عامل الرحمة فى نفسه الشريفة، فترفق به وأمر بعدم قتله، وتسّهد لأنينه حتى أرخى له فيه، فطابت نفسه بذلك.

* وهناك قسم آخر من الأسرى، أمر النبى ـ ﷺ ـ بقتله صبراً، ولم يستشر فيه أحداً لِعظَم جُرمه، وكثرة بغيه، ومحادته لله ورسوله، ولم يكن أفراد هذا القسم ـ كما ألمحنا ـ غير النضر بن الحارث، وعُقبة بن أبى معيط.

* ـ أما النضر بن الحارث، فقد أمر النبى ـ ﷺ ـ بقتله بعد اجتيازه مضيق الصفراء فى طريقه إلى المدينة، وقد كان النضر يقول فى القرآن (ما هُوَ إلاّ أَسَاطِير الأوّلين) ويقول: (لو شئنا لقلنا مثل هذا)، إلى غير ذلك من أقواله الأثيمة.

وقد ذكر الدكتور هيكل فى مقتل النضر قصة، ننقلها بحروفها لنبرز فيها موقف الرسول الكريم من هذا الخصم اللدود، ومبلغ تأثره من ماضيه، ومدى هواجيس النضر ومخاوفه.

«قُتل النَّضر حين عُرض الأسرى على النبى ـ ﷺ ـ عند بلوغهم الأثيل، فقد نظر إلى النضر نظرة أرتعد لها الأسير، وقال لرجل جنبه، محمد والله قاتلى، لقد نظر إلى بعينين فيهما الموت، قال الذى جنبه، ماهذا والله منك إلاّ رعب، وقال النضر لمصعب بن عمير، وكان أقرب من هناك به

لأصحابه: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردُّوا عليها مالها فافعلوا»، فأطلقوا الأسير وردُّوا القلادة (١).

ومن هذا القسم كذلك ـ أبو عزة الجمحى الشاعر، كان فقيراً معدما لايجد شَرْوَى نقير، وذا بنات، فكلم الرسول ـ ﷺ ـ قائلاً: يا رسول الله، لقد عرفت مالى من مال، وإنى لذو حاجة وذو عيال فامنن علىّ، فمَنّ عليه رسول الله ـ ﷺ ـ وأخذ عليه ألا يظاهر عليه أحداً (٢).

---

(١) سيرة بن هشام ٢/٢٩٧.

(٢) البداية والنهاية ٣/٣١٢.

ـ ٣ ـ

حكم الأسرى فى شريعة الإسلام وموقف الخصوم منه

حاول خصوم الإسلام من المستشرقين وتلاميذهم، ومن تأثر بهم مخالفة أحكام الأسرى فى الاسلام، وقد أفزعهم أن أحكام الشريعة الإسلامية تضاد تلك التشريعات الصادرة من الدول الأوربية المتحضرة (١) ـ على زعمهم، والذى يفترضون فى تشريعاتها منتهى الرقى والتقدم..

* فانقسموا حيال أحكام الأسرى فى شريعة الإسلام قسمين:

القسم الأول: طعن فى أحكام الإسلام صراحة. وهذا ـ فى رأيى ـ أخف ضرراً، لأنه مكشوف للمسلمين، الذين يحبون الله ورسوله.

والقسم الثانى: تلون كما تتلون الحرباء، وحرّف الكلم عن مواضعه، ليطوع أحكام الإسلام حتى توافق التشريعات الوضعية الحديثة، التى يراها بعض الباحثين بعين الاعجاب والرضا.

(١) تنص لائحة الحرب البرية التى وقعت سنة ١٩٠٧م، والتى وافقت معظم الدول على مضمونها فى معاهدة جنيف الموقعة فى ١٢ أغسطس سنة ١٩٤٩، على أنه لايجوز قتل المقاتلين الذين يلقون بسلاحهم ويرضخون للعدو، أو يستسلمون له ولا يقاومون أخذهم أسرى حرب، وبأن المبالغ النقدية والأشياء النفيسة التى يحملها الأسير لاتعد من غنائم الحرب، إذ تلتزم الدولة الآسرة بردها بعد انتهاء حالة الأسر إلى غير ذلك من التشريعات الوضعية [أنظر هذه التشريعات المخالفة للقرآن والسنة فى كتاب أسرى الحرب لعبد الواحد الفار، وكتاب القانون الدولى العام لأبى هيف ص٨١٨].

من القسم الأول: باحث يقول:

«كانت الهمجية فى العصور الأولى تدفع الدول المتحاربة إلى قتل الأسرى، ثم رُئى بعد ذلك الانتفاع بهم، فحل الاسترقاق محل القتل، ثم أصبح يمكن افتداء الأسرى بالمال، واستمر التطور تحت تأثير فكرة الإنسانية والشرف حتى انتهى إلى إقرار الاكتفاء بحجز الأسرى أو وضعهم تحت المراقبة، مع العناية بهم حتى يتقرر الإفراج عنهم فى نهاية الحرب، وتخضع معاملة أسرى الحرب فى الوقت الحالى للقواعد التى وضعتها لائحة لاهاى للحرب البرية (المواد ٤ — ٢٠) ولاتفاقية جنيف المبرمة فى ١٢ أغسطس سنة ١٩٤٩م بشأن معاملة الأسرى» (١).

من هذا الكلام، نرى أن هذا الباحث —جعل من يقتل الأسير أو يسترقه (تدفعه الهجمية) ولاشك أنه يجهل قوانين الله، وتشريعاته المنزلة فى القرآن، كما يجهل الكثير من جوانب سيرة رسول الله — ﷺ — خاصة مايتصل بغزواته.

فالذى لاشك فيه، أن الرسول — ﷺ — قتل بعض الأسرى لأسباب جوهرية —كما ذكرنا من قبل— واسترق بعضا، فأين يذهب هذا الباحث من الله عز وجل، بعد أن وصف رسوله بأنه هجمى.. تدفعه الهجمية لمثل هذا؟.

*** ومن هذا القسم أيضا: باحث آخر، يقول:**

«فنحن نرى أن الرق قد أصبح حراماً، بعد أن وافقت الدول جميعا على

(١) الدكتور على صادق أبوهيف: القانون الدولى العام ص٨١٨.

إلغائه، ويمكن اعتبار نظام الرق فى الإسلام، كنظام المؤلفة قلوبهم، وقد اختفى النظامان إلى غير رجعة (١).

والسؤال الآن: هل إذا اجتمعت الدول الأجنبية على تحريم شىء أو تحليله، يكون فعلها حجة على الإسلام، وملزما للمسلمين؟.

إن الدول الأوربية، والدول السائرة فى ركابها قد اتفقت على إباحة الزّنا، والفجور، وتكاد تجمع على إسقاط القصاص وسائر الحدود، فهل تحل هذه الأمور للمسلمين لاجتماع هذه الدول عليها؟

وأما تمنى الباحث أن يختفى نظام الرق، والمؤلفة قلوبهم إلى غير رجعة.. فيسقطه ما أخبرنا به الصادق المصدوق - ﷺ - «إن الجهاد ماض إلى يوم القيامة» ومابقى الجهاد فسوف تبقى أحكامه.

* أما أعضاء القسم الثانى، فا أكثرهم، فمنهم من يقول (٢): بعد تأويلات باردة، لقتل الرسول - ﷺ - ليهود بنى قريظة، منها: أنهم بغاة، أو أنه شرع فى حقهم حكما خاصا استثناء من القاعدة العامة. «ومن هذا العرض يظهر لنا أن قتل الأسرى فى الفقه الإسلامى أقرب إلى التحريم منه إلى الإباحة».

وهذا الذى ذكره الباحث، إن دل على شىء فإنما يدل على عدم معرفته بأحكام الشريعة وأحكام الإسلام.

* ومنهم باحث ثان، يقول فى كتابه (٣):

---

(١) الدكتور محمد عبد الجواد: التطور التشريعى فى المملكة العربية السعودية ص٢٠٢-٢٠٣.

(٢) الدكتور عبدالواحد الفار: أسرى الحرب ص١٩١.

(٣) الدكتور وهبة الزحيلى: آثار الحرب ص٤٢٠.

«الثابت من فعل الرسول ـ ﷺ ـ أنه كان يمنّ على بعض الأسارى، ويقتل بعضهم، ويفادى بعضهم بالمال أو بالأسرى، وذلك حسب ماتقتضيه المصلحة العامة، ويراه ملائما لحال المسلمين، فهل كان ذلك الفعل تشريعا دائما، أم هو من قبيل الأحكام التى تتغير بتغيرّ الزمان والمكان».

وهذا وهم.. ألا يعرف هذا الباحث أن تشريعات رسول الله ـ ﷺ ـ إذا مات قبل أن تنسخ فإنها دائمة إلى يوم القيامة؟.

وهل يعقل أن تصبح الخمر فى يوم من الأيام حلالاً بعد أن كانت فى عهده حراماً؟

إن قصد هذا المؤلف من قوله هذا ـ هو التمهيد للانقضاض على أحكام الأسرى، وقد فعل! فانظر ماذا يقول: «إذن فقتل الأسرى فى الاسلام أقرب إلى التحريم منه إلى الاباحة (١)» وأنظر إلى التناقض فى قوله هذا، وقوله السابق:

«الثابت من فعل الرسول ـ ﷺ ـ أنه كان يمن على بعض الأسارى ويقتل بعضهم».

ويقول أيضا: «بما أنه لم يرد نص فى الكتاب ولا فى السنة على إباحة الرقيق»(٢).

* والسؤال الآن: ألم يطلع المؤلف على ماورد فى صحيح البخارى «باب بيع الرقيق» وما أورد تحت هذا الباب من أحاديث؟

---

(١) آثار الحرب ص ٤٤٠.

(٢) المرجع السابق ص ٤٤٤.

إذا لم يكن الرقيق مباحا، فهل يظن أن الصحابة كانوا يبيعون محرّما، ويأكلون ثمنه، والرسول ـ ﷺ ـ يقول:

«إن الله إذا حرّم شيئاً حرّم ثمنه».

أضف إلى ذلك دلالة القرآن على إباحته، فهناك آيات صريحة كثيرة معبرة عنه «بملك اليمين»(١)، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ [النساء: ٣].

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ﴾ [النساء: ٢٥].

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [المؤمنون: ١ - ٦].

* ومنهم باحث ثالث أجهد نفسه في كتابه(٢)، لأجل أن يجعل الإسلام يوافق التشريعات الحديثة، التي اتفقت عليها الدول الغربية، فبين في كتابه، أن القانون الدولي يمنع الإجهاز على الجرحى، وقرر قواعد حسن معاملة الأسرى، وعدم مسهم بأذى، فلا يجوز قتلهم ولا جرحهم، ولا إساءة

---

(١) أنظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ـ مادة (ملكت) ص٦٧٣ وضع محمد فؤاد عبد الباقي ـ طبع دار إحياء التراث بمصر.

(٢) عفيف عبد الفتاح: روح الدين الاسلامي ص ٣٩٨.

معاملتهم أو تحقيرها إذا سلّموا أنفسهم، أو صُودرت حُرّيتهم ـــ ثم قرر بعد ذلك ان الإسلام يوافق على هذه التشريعات.

إن الذى يبدو لى ـــ أن القضية ليست قضية أدلة شرعية التبست على هؤلاء الباحثين، وإنما هى قضية أهواء وأغراض، وإعجاب بما شرعه الغربيون..

وكأنى بهؤلاء الباحثين وأمثالهم، يقولون بعد جهدهم هذا، هل تستطيعون أيها الغربيون أن تتهموا الإسلام بالرجعية والجمود، والهمجية والتخلّف ـــ وهو يوافقكم فى أغلب تشريعاتكم؟

وقد يكون دافع بعضهم الإخلاص، وإظهار الإسلام بالمظهر اللائق أمام الأعداء، ولكن ألا يعلمون أن الاسلام يخالف تلك الدول المتحضرة فيا هو أكبر من التشريعات، إنه يخالفهم فى العقيدة.. فى توحيد الألوهية..

فأى خدمة قدمت للإسلام إذا كانت غاية مايريد أن يصل إليه بعض المؤلفين من أبناء الاسلام، أن يجعلوا تشريعات البشر الجاهلية كتشريع الله.

وبعض الكتاب من أبناء المسلمين يحاولون أن يجعلوا الإسلام يقرب من تشريعات الدول غير الإسلامية، تفاديا لهجوم تلك الدول على تشريعات الإسلام، ولكى يرضوا عنهم، ولكن ينبغى لهم ألا يتعبوا أنفسهم، فلن يرضوا عن المسلمين حتى يوافقوهم فى كل شيء، ويجعلوا لهم أربابا من دون الله، تشرّع الأنظمة والقوانين، وقد فعل معظم المسلمين ذلك لأجل كسب رضاء تلك الدول.

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

ومنهم أيضا باحث رابع، كتب يقول (١):

---

(١) توفيق وهبة: الجهاد فى الإسلام ص١١٥ ومابعدها بتصرف.

« ونهى الإسلام عن قتل الأسرى ، والانتقام منهم ، أو تعذيبهم ، وإنما يحجزون حتى لايقاتلوا المسلمين فى صفوف المشركين ، وبعد أن تنتهى الحرب ، فلولىّ الأمر أن يتصرف فيهم بأجد أمرين : أولهما : المنّ ، وثانيها : الفداء ، ولم يفرض الإسلام استرقاق الأسرى ، فلم ينشىء النبى — ﷺ — الرق على حرّ أبداً ، ولكنه حرر ما كان عنده من رقيق الجاهلية ، كما أعتق كل رقيق أُهدى إليه ، فالقرآن لم يفرض الرق ، ولم ينه عنه ، ولكن ترك ذلك دون أمر وكذا النبى — ﷺ — لم يقر استرقاق الأسرى ، وإن كان لم يمنعه ، ولذلك نجد أن الخلفاء الراشدين ، وبعض حكام المسلمين من بعدهم استرقوا الأسرى ، وذلك من قبل المعاملة بالمثل ، فإذا كان المشركون يسترقون أسرى المسلمين ، أبيح للمسلمين استرقاق أسراهم معاملة بالمثل ، ويحرم استرقاق الأعداء إذ لم يسترقوا أسرى المسلمين ، هذا هو موقف الإسلام من الأسرى ، يعاملهم معاملة إنسانية رقيقة ، لا يعذبهم ولا يقتلهم ، ولا يسترقهم .

إن أبرز مافى كلام هذا الباحث هو التناقض ، فقد قال : (ولم ينه عنه) أى عن الرق ، ثم قال بعد ذلك (ويحرم استرقاق الأعداء إذا لم يسترقوا) .

والتحريم — كما هو معلوم — حكم شرعى ، فما هو دليله على ذلك ؟ .

وكذا قوله عن الرسول — ﷺ — « لم يقر استرقاق الأسرى وإن كان لم يمنعه » فإذا كان لم يمنعه فهو مقر له » ، فإذا بلغ الرسول — ﷺ — أمراً فعله المسلمون فلم ينكره فهو إقرار منه — ﷺ — وهو لا يقرّ باطلاً .

* إن غاية القول فيما ذكره هؤلاء الباحثون ينطوى على الكذب والافتراء على رسول الله — ﷺ — وعلى الإسلام .. وذلك للأدلة التالية[1] :

(١) الدكتور على بن نفيع ، أهمية الجهاد (فصل حكم الأسرى) ص٣٩٢ .

١ ــ ثبت بالأدلة القطعيةأن الرسول ــ ﷺ ــ أمر بقتل بعض الأسرى ــ كما مرّبنا فى الدراسة ــ بعد معركة بدر وغيرها .

٢ ــ ثبت بالأدلة الصحيحة . أن الرسول ــ ﷺ ــ أقر استرقاق بعض الأسرى كما فى غزوة بنى المصطلق وحنين.

٣ ــ التعليل بأن الاسترقاق لا يكون إلا معاملة بالمثل من عند هذا الباحث وحزبه ، ولم يرد عن أحد من الصحابة ولا التابعين ولا أتباع التابعين ، ولا غيرهم من علماء الإسلام . ولم يوجد فى كتب علماء الإسلام ، هذا التعليل قبل القرن الثانى عشر الهجرى ، فمن أين لهذا الكاتب ذلك التعليل ، ولماذا لايطبق تعليله على الغنيمة مثلا ، فيقول : إذا أخذوا أموالنا أخذنا أموالهم ، وإذا لم يأخذوا أموالنا يحرم أخذنا أموالهم ؟

٤ ــ قول هؤلاء الباحثين ، إن الإسلام لم يوجب الرقّ ، ولا قتل الأسرى لاينفعهم فيما ذهبوا إليه من تحريم الرق ، وتحريم قتل الأسرى ، فإن الإباحة حكم شرعى ، وما أباحه الإسلام لايحل لعبد يؤمن بالله ورسوله والدار الآخرة أن يحرمه ، ومن حرم ما أباح الله من عند نفسه ، فقد نصّب نفسه رَبًّا من دون الله ، يشرع للناس الأحكام .

وهل كفر أتباع الأحبار والرهبان إلا لأجل متابعتهم على التحليل والتحريم ، الذى هو من خصائص الله . فمن أعطى حق التحليل والتحريم لأحد غير الله ، وغير رسله ، فقد عبده من دون الله .

٥ ــ أما قولهم : إن الرسول ــ ﷺ ــ وجد الرّق نظاما عالميا فلم يستطع أن يغيره فى الحال ، فهو قول بلا برهان ، فلم يقل الرسول ــ ﷺ ــ للصحابة إننا لا نستطيع إلغاء الرق الآن ، فإذا سمحت الظروف فألغوه ..

والرسول ــ ﷺ ــ وجد الشرك نظاما عالميا فغيره ، فهل يتصور أن يغير الرسول ــ ﷺ ــ الشرك ، ويعجز عن تغيير نظام الرق .

* ثم إن الرسول - ﷺ - لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى، إلا بعد أن أكمل الله به الدِّين، ومن زعم أن الرق وقتل الأسرى استمر مباحاً بعد وفاة الرسول - ﷺ - ثم حرم بعد ذلك، فقد زعم أن الرسول - ﷺ - توفى وما كّمل الدين.

وإن زعم أنه حرم ذلك فى حياته فقد اتهم الصحابة - بمافيهم الخلفاء الراشدون - بالإجماع على مخالفة أمر الرسول. وهذا من أقبح الكلام وأخبثه.

* ولنا أن نقف مع علماء الإسلام وقفة متأنية، لنعرف ماذكروه فى أسرى الحرب:

● قال أبوبكر الجصّاص:

«اتفق فقهاء الأمصار على جواز قتل الأسير، لا نعلم بينهم خلافا فيه، وقد تواترت الأخبار عن النبى - ﷺ - فى قتله الأسير، منها قتله عقبة بن أبى معيط، والنضر بن الحارث بعد الأسر يوم بدر، وقد قتل يوم أُحدُ أبا عزة الشاعر بعدما أسر، وقتل بنى قريظة بعد نزولهم على حكم سعد بن معاذ، فحكم فيهم القتل، وسبى الذرية، ومنّ على الزبير بن باطا من بينهم، وفتح خيبر بعضها صلحا وبعضها عنوة، وشرط على ابن أبى الحقيق ألاّ يكتم شيئاً، فلما ظهر على خيانته وكتمانه قتله، وفتح مكة وأمر بقتل هلال بن خطل ومقيس بن صبابة، وعبدالله بن سعد بن أبى سرح وآخرين، وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة، ومنّ على أهل مكة ولم يغنم أموالهم، وروى عن صالح بن كيسان، عن محمد بن عبدالرحمن، عن أبيه عبدالرحمن بن عوف، أنه سمع أبا بكر الصديق يقول: وددت أنى يوم أتيت بالفجاءة لم أكن حرقته، وكنت قتلته سريحا، أو أطلقته نجيحا. وعن أبى موسى أنه قتل دهقان السويس بعدما أعطاه الأمان على قوم سماهم ونسى نفسه فلم يدخلها فى الأمان فقتله.

فهذه آثار متواترة عن النبى ـ ﷺ ـ وعن الصحابة فى جواز قتل الأسير وفى استبقائه، واتفق فقهاء الأمصار على ذلك (١).

• وقال السيوطى:

«وأخرج عبد الرزّاق فى المصنف، وابن المنذر، وابن مردوية، عن ليث ـ رضى الله عنه ـ قال ـ قلت لمجاهد: بلغنى أن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: لايحل قتل الأسارى لأن الله تعالى قال: (فإمّا منّاً بعد وإما فداء) فقال مجاهد: لا تعبأ بهذا شيئاً، أدركت أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ وكلهم ينكر هذا، ويقول: هذه منسوخة، إنما كانت فى الهدنة التى كانت بين رسول الله ـ ﷺ ـ وبين المشركين، فأما اليوم فلا. يقول الله (اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب) فإن كانوا من مشركى العرب لم يقبل منهم شىء إلا الإسلام، فإن لم يسلموا فالقتل، وأما من سواهم، فإنهم إذا أسروا فالمسلمون فيهم بالخيار، إن شاءوا قتلوهم، وإن شاءوا استحيوهم، وإن شاءوا فادوهم، إذا لم يتحولوا عن دينهم، فإن أظهروا الإسلام لم يفادوا، ونهى رسول الله ـ ﷺ ـ عن قتل الصغير والمرأة والشيخ الفانى» (٢).

• وقال الشوكانى:

«والحاصل أنه قد ثبت فى جنس أسارى الكفار جواز القتل والفداء والاسترقاق. فمن ادعى أن بعض هذه الأمور يختص ببعض الكفار دون بعض، لم يقبل منه ذلك إلاّ بدليل ناهض يخصص العمومات» (٣).

(١) أحكام القرآن ٣/٣٩١.

(٢) الدر المنثور ٦/٤٦.

(٣) نيل الأوطار ٨/٨.

• وقال ابن قدامة:

« من أسر من أهل الحرب ثلاثة :

• أحدهما: النساء والصبيان، فلا يجوز قتلهم ويصيرون رقيقا للمسلمين بنفس السّبى، لأن النبى ـ ﷺ ـ نهى عن قتل النساء والولدان، وكان عليه السلام ـ يسترقّهم إذا سباهم.

• والثانى: الرجال من أهل الكتاب والمجوس، الذين يقرون بالجزية، فيخيرّ الإمام فيهم بين أربعة أشياء، القتل، والمن بغير عوض، والمفاداة بهم، واسترقاقهم.

• الثالث: الرجال من عبدة الأوثان وغيرهم، ممن لا يقرّ بالجزية، فيتخيرّ الإمام فيهم بين ثلاثة أشياء: القتل: أو المنّ، أو المفاداة، ولا يجوز استرقاقهم.

وعن أحمد: استرقاقهم، وهومذهب الشافعى.

وبما ذكرنا فى أهل الكتاب، قال الأوزاعى والشافعى، وأبو ثور.

وعن مالك كمذهبنا، وعنه لا يجوز المن بغير عوض، لأنه لا مصلحة فيه، وإنما يجوز للإمام فعل مافيه المصلحة.

* وحكى عن الحسن وعطاء وسعيد بن جبير كراهة قتل الأسرى، وقالوا: لو مَنَّ عليه، أو فاداه كما صنع بأسارى بدر، ولأن الله تعالى قال: (فشُدُّوا الوثَاقَ فإمّا مناً بَعْدُ وإمّا فداء). فخير بين هذين بعد الأسر لاغير.

* وقال أصحاب الرأى: إن شاء ضرب أعناقهم، وإن شاء استرقهم لاغير، ولايجوز منّ ولافداء، لأن الله تعالى قال: (اقتُلُوا المُشْرِكين حَيْثُ

وَجَدْتمُوهُم) بعد قوله : (فإمّا مناً بعد وإما فداء) وكان عمر بن عبدالعزيز، وعياض بن عقبة يقتلان الأسارى .

ولنا على جواز المن والفداء قول الله تعالى : (فإما مَناً بعد وإما فداء) وأن النبى ـ ﷺ ـ منّ على ثمامة بن أثال، وأبى عزة الشاعر(١) ، وأبى العاص بن الربيع، وقال فى أسارى بدر، لو كان مطعم بن عدى حياً ثم سألنى فى هؤلاءِ النّتْنى (الأسرى) لأطلقتهم له. وفادى أسارى بدر، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً كل منهم بأربعمائة، وفادى يوم بدر رجلا برجلين، وصاحب العضباء برجلين.

وأما القتل.. فلأن النبى ـ ﷺ ـ قتل رجال بنى قريظة وهم بين الستمائة والسبعمائة وقتل يوم بدر النضر بن الحارث، وعقبة بن أبى معيط صبراً، وقتل أبا عزة يوم أُحُد.

وهذه قصص عمت واشتهرت ، وفعلها النبى ـ ﷺ ـ مرات ، وهو دليل على جوازها ، لأن كل خصلة من هذه الخصال قد تكون أصلح فى بعض الأسرى ، فإن منهم من له قوة ونكاية فى المسلمين ، وبقاؤه ضرر عليهم ، فقتله أصلح ، ومنهم الضعيف ، الذى له مال كثير، ففداؤه أصلح ، ومنهم حسن الرأى ، فى المسلمين ، يُرجى إسلامه بالمنّ عليه ، أو معونته للمسلمين بتخليص أسراهم ، والدفع عنهم ، فالمنّ عليه أصلح ، ومنهم من ينتفع بخدمته ، ويؤمن شرّه فاسترقاقه أصلح ، كالنساء والصبيان. والإمام أعلم بالمصلحة ، فينبغى أن يفوض ذلك إليه.

وقوله تعالى : (اقتلو المشركين) عام لاينسخ به الخاص، بل ينزله على ماعدا المخصوص، ولهذا لم يحرموا استرقاقه.

---

(١) مَنّ عليه فى المرة الأولى يوم بدر وقتله فى المرة الثانية يوم أُحُد.

* فأما عبدة الأوثان ففى استرقاقهم روايتان:

إحداهما: لايجوز، وهو مذهب الشافعىْ. وقال أبو حنيفة: يجوز فى العجم دون العرب، بناء على قوله فى أخذ الجزية.

ولنا أنه كافر لايقر بالجزية، فلم يقر بالاسترقاق كالمرتد. وقد ذكرنا الدليل عليه، إذا ثبت هذا ــ فإن هذا تخير مصلحة واجتهاد، لاتخيير شهوة. فتى رأى المصلحة فى خصلة من هذه الخصال تعينت عليه، ولم يجز العدول عنها، ومتى تردد فيها، فالقتل أولى. قال مجاهد فى أمرين، أحدهما يقتل الأسرى وهو أفضل. وكذلك قال مالك.

وقال اسحاق: الإثخان أحب إلى أن يكون معروفا، يطمع به فى الكثير، وإن أسلم الأسير صار رقيقا فى الحال، وزال التخيير، وصار حكمه حكم النساء» (١).

هذه هى أقوال علماء الإسلام فى أحكام الأسرى المبنّية على الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة فأين أقوال هؤلاء الباحثين منها؟

---

(١) المغنى ٨/٣٧٢ -٣٧٤.

الفصل الثامن

أدب الحرب والسلم فى سورة الأنفال

شاء الحق ـ تبارك وتعالى، أن يجعل الصراع بين الحق والباطل سُنّة جارية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، يقول الله سبحانه:

﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

ويقول تعالى:

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

ويقول عز شأنه ـ فى الحديث القدسى ـ لنبيه ـ ﷺ:

« إنَّما بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيكَ وأَبْتَلِي بِكَ » (١).

والكثير من البشر لا ينقادون للحق بدون قوة تحملهم على ذلك، يقول جل جلاله:

﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وروى البخارى فى صحيحه: «أن النبى ـ ﷺ ـ قال: «أول من يدعى يوم القيامة آدم، فتراءى (تظهر) ذريته، فيقال: هذا أبوكم آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فيقول: أخرج بعث جهنم من ذريتك ـ فيقول يارب كم أخرج؟

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ١٧/١٩٨.

فيقول: أخرج من كل مائة تسعة وتسعين، فقالوا: يارسول الله، إذا أخذ منّا من كل مائة تسعة وتسعون، فماذا يبقى منا؟ قال: إن أمتى فى الأمم كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود»(١).

ولكون أهل الباطل هم الكثرة دائما، فإنه لاينقمع شرهم وفسادهم إلاّ بقوة ترهبهم وتكسر شوكتهم، لأجل ذلك بينّ الله ـ عز وجل ـ أنه لولا جهاد المسلمين للكافرين لفسدت الأرض، ولهدمت المساجد، قال تعالى:

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠].

قال ابن زيد: «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لولا القتال والجهاد»(٢).

وقال مقاتل: «لولا دفع الله المشركين بالمسلمين لغلب المشركون على الأرض فقتلوا المسلمين وخربوا المساجد»(٣).

وقال الله تعالى:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد: ٢٥].

---

(١) صحيح البخارى ١٩٦/٧.

(٢) تفسير الطبرى ١٢٤/٧.

(٣) زاد المسير لابن الجوزى ٣٠/١.

قال ابن كثير ــ فى تفسير هذه الآية : « وجعلنا الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده من بعد قيام الحجة عليها ، ولهذا أقام رسول الله ــ ﷺ ــ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة ، توحى إليه السور المكية ، وكلها جدال مع المشركين ، وبيان وإيضاح للتوحيد ، وتبيان ودلائل . فلما قامت الحجة على من خالف ، شرع الله الهجرة ، وأمرهم بالقتال بالسيوف ، وضرب الرقاب والهام لمن خالف القرآن ، وكذّب به وعانده » (١).

فلما كانت معركة بدر الكبرى ، والظروف التى أحاطت بها ونتجت عنها ، أنزل الحق سبحانه سورة الأنفال كاملة ، لتكون وثيقة للمسلمين ، ودستوراً ومنهجاً يسيرون على نهج ماجاء فيه من قيم وآداب ، ترتبط بالحرب والسلم على السواء ، صالحة لكل عصر ، وإلى أن تقوم الساعة .

* فقد ورد فى ثناياها مجموعة من النداءات الإلهية ، التى وجهها الحق سبحانه للمؤمنين ، ترشدهم ، وتحثهم على الصبر والثبات فى مجاهدة الأعداء ، وتذكيرهم بأن هذه التكاليف الإلهية التى أمروا بها ، من مقتضيات الإيمان الذى تحلّوا به ، وأن عاقبة الإيمان والالتزام بالآداب والقيم الإسلامية هو النصر.

* **من أبرز هذه الآداب ما يلى (٢) :**

١ ــ التحذير من الفرار فى المعارك

وفى ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ * وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال : ١٥ ، ١٦] .

(١) تفسير ابن كثير ٨/٥٣ . (٢) راعيت أن يكون ترتيبها حسب ترتيب التلاوة لآيات السورة .

في هاتين الآتين، يأمر الله عباده المؤمنين أن يصمدوا أمام أعدائهم، وألا ينهزموا مهما كان جيش الكفر عظيما وكبيراً، فإن الغلبة ليست بالكثرة، والمؤمنون أولى بالثبات والشجاعة من الكافرين، لأنهم يطلبون إحدى الحسنيين: إما العزة في الدنيا، والنصر على الأعداء، وإما الشهادة في سبيل الله، التي لا يعادلها شيء من الأشياء.

وقد حذرهم الله —جل وعلا— من الفرار والهزيمة، لأن فيه كسراً لجيش المسلمين، وإلقاء الرعب في قلوب المجاهدين.

* وقد بين الله تعالى أن الفرار يجوز في حالتين اثنتين:؛

الأولى: إذا كان بقصد خداع العدو والتغرير به، لأن الحرب خدعة —كما يقول رسول الله —ﷺ— والعاقل من يعرف كيف يبطش بعدوه ويستدرجه.

والثانية: إذا بقي هذا المجاهد المسلم وحيداً فريداً، فانضم إلى جماعة أخرى ليتقوى بها —أو رأى أنها بحاجة إليه ليشد أزرهم، ويقوى عزمهم.

وماعدا ذلك فالفرار من الزحف جريمة نهى الله عنه، وتوعد عليه أشد الوعيد، وهو أن يرجع بغضب من الله، وأن مقره جهنم وبئس ذلك المقر والمصير.

*** وقد اشتملت هاتان الآيتان على عدة أحكام شرعية:**

— الحكم الأول: الفرار من الزحف من الكبائر.

فتدل ظواهر النصوص الشرعية على حرمة الفرار من الزحف إلا في حالتين اثنتين —كما ألمحنا—

أ — حالة الفرّ من أجل الكّر خدعة للعدو.

ب ــ وحالة الالتحاق إلى بجماعة المسلمين، والانضمام إلى صفوفهم ليتقوى بهم .

وقد بينت السنة المطهرة ــأن الفرار من الزحف من الكبائر، فقد قال رسول الله ــ ﷺ : «اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا : وماهن يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلاّ بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات (١) .

ــ الحكم الثانى: كم عدد العدو الذى يحرم الفرار منه ؟ .

هذه الآية حرمت الفرار من القتال ، وأما عدد العدو الذى يحرم الفرار منه ، فقد بينته آية أخرى فى آخر السورة ، وهى قوله تعالى :

﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٦٦] .

فقد أوجبت هذه الآية على المسلمين أن يثبتوا أمام أعدائهم إذا كان العدو ضعفهم ، وقد كانوا من قبل مكلّفين بملاقاة العدو، والصمود أمامه حتى ولو كانوا عشرة أضعافهم ، فنسخ الله ذلك ، وخفف عن عباده رحمة بهم ، وتيسيراً عليهم ، فإذا كان جيش الكفار يزيد أضعافاً مضاعفة على جيش المسلمين ، فإنه لايجب عليهم ملاقاته إلاّ إذا كان هناك خطر جسيم ، كهجوم المشركين على ديار المسلمين ، فإنه يجب حينئذ الدفاع عليهم ، ويفترض القتال على الرجل والمرأة والكبير والصغير.

وأما المغامرة فى الحرب ، فقد قال بعض العلماء: لايقتحم الواحد على

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه .

العشرة، ولا القليل على الكثير، لأن فى ذلك إلقاء النفس إلى التهلكة (١).

وقال بعض العلماء: إنه يجوز المغامرة بكسر شوكة المشركين، وإضعاف نفوسهم، فإنهم إذا رأوا هذه الشجاعة النادرة من شخص واحد، دبّ الرعب فى قلوبهم، وأيقنوا بعدم قدرتهم على مقاومة المسلمين، وفى ذلك إعزاز لدين الله، وقهر المشركين، والله أعلم.

ـ الحكم الثالث: هل يجوز الفرار عند الضرورة؟

قال العلماء: يجوز الفرار عند الضرورة فى غير الحالتين السابقتين، التى أشارت إليهما الآية، وذلك كأن يحيط العدو بالجيش، أو يقطعوا على المجاهدين طريق المؤونة والغذاء.

* ويشهد لذلك ماروى عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال:

«كُنا فى غزاة فَحَاصَ الناس حيصة (أى فروا أمام العدو) قلنا كيف نلقى النبى ـ ﷺ ـ وقد فررنا من الزحف، وبؤنا بالغضب، فأتينا النبى ـ ﷺ ـ قبل صلاة الفجر، فخرج فقال: من القوم؟ فقلنا: نحن الفَرّارون، فقال: لاَ بل أنتم العكارون، فقبّلنا يده، فقال أنا فئتكم، وأنا فئة المسلمين. ثم قرأ:

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٦]

٢ ـ وترتبط بهذه القيم السامية، والآداب الحربية الرفيعة، قيمة أخرى وهى الثبات عند لقاء العدو وفى ذلك قوله يقول الله ـ عز شأنه:

(١) محمد على الصابونى: تفسير آيات الأحكام ١/٥٩٨.

(٢) رواه الترمذى، وانظر الدر المنثور فى تفسير الآية والعكارون: أى الكرارون العطافون.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾
[الأنفال : ٤٦]

* فقد اشتملت هاتان الآيتان على خمس وصايا ، وهى :

أولاً : الثبات عند لقاء الأعداء .. فالنظام الحربى ، يقضى بقتل الجندى الفار من القتال حال فراره ، وذلك خشية أن تنتقل عدوى فراره إلى غيره ، فتحدث البلبة والجزع فى صفوف المقاتلين ، فيكون داعيا لهم على الهزيمة .

ثانيا : ذكر الله فى الحروب ، واستحضار عظمته التى لا تُحدّ ، وقوته التى لا تقهر ، والاعتصام بالمدد الروحى الذى يعين على الثبات ، لما له من تأثير فعال فى النصر ، لأن الإيمان يمد المحارب بقوة معنوية هائلة تسند القوة المادية فتدعمها ، ويكون لها الحكم الفصل فى المعركة .

﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨] .

ثالثا : الطاعة : طاعة الله أولاً ، وذلك باتباع ما أمر به من الوصايا والأوامر التى تنهض بحال المسلمين ، وعدم معصيته ، وطاعة الرسول - ﷺ - فيما أمر به من شئون القتال ، فقد كان الرسول - ﷺ - هو القائد الأعلى فى أغلب الغزوات التى خاضها المسلمين ضد الكفار ، وبعد وفاته - ﷺ - أوجب الله على المسلمين طاعة قوادهم فى القتال . وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ [النساء ٥٩]

فطاعة القائد العام هى عماد النظام ، الذى هو ركن من أركان النصر .

رابعاً : عدم التنازع ، فالتنازع فى حال الحرب مدعاة للفشل ، وتغلب الأعداء على الفئة المتنازعة .

خامسا: الصبر على الشدائد، ومايلاقون من بأس العدو، وكثرة عدوه، فإن الله مع الصابرين، بالمعونة والتأييد. والصبر فى الحرب من أسباب النصر.

يقول الحق سبحانه.. يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله، إذا حاربتم جماعة من الكفار، والتقيتم بهم فى ميدان الحرب، فالواجب عليكم أن تثبتوا فى قتالهم، وتصمدوا للقائهم، وإياكم والفرار من الزحف، وتوليتهم الأدبار، فالثبات فضيلة، والفرار كبيرة يعاقب الدين عليها، وعليكم بذكر الله فى السراء والضراء وحين البأس، فبذكر الله تطمئن القلوب، وبدعاء الله تفك الكروب، فهو القريب المجيب دعوة الداعى، لاسيما إذا كان دعاء بالنصر على عدو الله، اثبتوا عند اللقاء، واذكروا الله كثيراً، رجاء أن تفوزوا بالأجر والثواب، والنصر على الاعداء. وأطيعوا الله فى كل ما أمر به، ونهى، وكذا رسوله الكريم، فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله، وإياكم والنزاع، فإنه مدعاة للفرقة، وأساس الهزيمة، وإنما أهلك من كان قبلكم اختلافهم وكثرة اعتراضهم، فالنزاع أداة الهلاك، ومعول الهدم والشقاء، به تذهب الدولة، وتفنى القوة. وعليكم بالصبر، فهو سلاح المؤمن، الذى لا يفل، ولقد قيل: الشجاعة صبر ساعة، وكفى بالصبر شرفا، أن الله مع الصابرين بالمعونة والتأييد، وإياكم أن تكونوا كأولئك الكفار، الذين خرجوا من ديارهم ليحموا غيرهم، خرجوا حالة كونهم بطرين طاغين بالنعمة غير شاكرين، إذ قيل لهم: إن العير نجا فارجعوا، فقال أبو جهل: لا حتى نقدم بدراً. واعلموا أن الله بما يعمل العاملون محيط، وسيجازى كلاً على عمله.

وانظروا إلى ماحدث يوم بدر، فقد نصركم الله بها وأنتم قلّة فى العدد، وماكان ذلك إلاّ بتأييد الله، وتثبيت قلوبكم، ومدكم بالملائكة، وبالقاء الرعب فى قلوب أعدائكم، فلم تقتلوهم –يوم بدر– ذلك القتل الذى كسر شوكتهم، ولكن الله قتلهم بأيديكم:

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ [الأنفال : ١٧] .

ولا تغتروا كما اغتر المسلمون بعد أن رجعوا من غزوة بدر، وأخذ كل منهم يقول: أنا قتلت .. أنا أسرت ، فعلّمهم الله أن ذلك فخر لايليق ، ووجههم توجيها حسناً حتى يلجئوا إليه وحده ، فقال فلم تقتلوهم بقوتكم ، ولكن الله قتلهم بتأييده لكم . ونصره وإنزال الملائكة ، وإلقاء الرعب ، وهو على كل شيء قدير.

٣ ــ الأمر بالسمع والطاعة لأوامر الله ورسوله :

وفى ذلك يقول الله عز شأنه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾
﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾
﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾
﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾
[الأنفال : ٢٠ ــ ٢٣].

يقول الحق سبحانه: يأيها الذين اتصفتم بالإيمان أطيعوا الله ورسوله فيما أمر ونهى، ولا تعرضوا عن الأمر بالجهاد ، وبذل المال وغيرهما . والحال أنكم تسمعون المواعظ والزواجر فى القرآن والحديث . وإياكم أن تكونوا كالذين قالوا سمعنا والحال أنهم لايسمعون أبدًا ، إن شر المخلوقات عند الله من لا يصغى بسمعه إلى الحق ، فيتبعه ويعتبر بالموعظة الحسنة ، فيعمل بها ، فإن من لا يستخدم جهاز السمع فيما خلق له كان كأنه فاقد له ، فهو أصم عن الحق والخير والهدى والفلاح .. وإليكم الذين لا يقولون الحق ،ومن ثمّ كانوا كأنهم فقدوا حاسة

الكلام ، والذين لا يعقلون الفرق بين النور والظلام ، والهدى والضلال ، والإسلام والكفر.. إذ هم لو استخدموا عقولهم ، وأبعدوا عنها ذل التقليد ، وحمى العصبية الجاهلية لعقلوا المنفعة ، وأدركوا الصالح المفيد ، ولكنهم كالبهائم لا يعقلون .

ولو علم الله فى نفوسهم الميل إلى الخير والسداد والاستعداد للإيمان والهدى ، ولم تفسد فطرتهم بسوء القدوة ، وفساد التربية ، لأسمعهم بتوفيقه سماع تدبر ، ووفقهم لكلامه ، وكلام رسوله ، ولكنه لو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ، فهم لا خير فيهم أصلا .

ومن يلقى إليه شيء لا يخلو من واحد من أربع :

١ ــ معاند لا يسمع أبداً بل يجعل أصابعه فى آذانه .

٢ ــ منافق يسمع ويتظاهر بالقبول ساعة الحضور ، ثم هو لا يتدبر ولا يفهم شيئا .

٣ ــ يسمع ليتسقط العيوب ويتلمس السقطات .

٤ ــ يسمع ليهتدى بنور الحق . وهم الفئة المؤمنة الموفقة المهدية إلى يوم القيامة .

* نزلت هذه الآيات فى جماعة من بنى عبد الدار ، كانوا يقولون : نحن صمٌّ بُكْمٌ عما جابه محمد ، وتوجهوا لقتاله مع أبى جهل .

وفى هذه الآيات غاية الذم للكافرين بأنهم أشرُّ من الكلب والخنزير والحمير ، لأنهم لم يستفيدوا من حواسهم ، فصاروا أخسّ من كل خسيس (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم) ــ أى لو علم الله فيهم شيئا من الخير لأسمعهم سماع تفهم وتدبر . ولو فُرض أن الله أسمعهم ، وقد علم أن لا خير فيهم ، لتولوا وهم معرضون عنه جحوداً وعناداً .

٤ ـ الاستجابة لدعوة الرسول:

ففى استجابتهم لدعوته ـ ﷺ ـ حياتهم وعزتهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة وفى ذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ينادى الله تبارك وتعالى ـ بوصف الإيمان، الذى يوجب الامتثال والاستجابة كل المؤمنين، ثم يأمرهم بأن يستجيبوا لله ورسوله، وذلك بالطاعة والامتثال إذا دعاهم لما يحييهم، ويحثهم على الخير لهم، ويحرضهم على ما به يسعدون فى الدنيا والآخرة.

... أى أجيبوا دعاء رسول الله إذا دعاكم للإيمان الذى به تحيا النفوس، وبه تحيون الحياة الأبدية..

قال قتادة: هو القرآن، فيه الحياة والثقة والعصمة فى الدنيا والآخرة (١).

وقد دعانا الرسول ـ ﷺ ـ للإيمان، والقرآن والهدى والجهاد، ومن جرم من هذا فهو ميت لا حياة فيه:

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٢].

فخذوا ما آتاكم الرسول بقوة وعزم ونشاط وجد، فالخير فيه، وسعادة الدارين معه، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه، ويفصل بينهما.

---

(١) تفسير الطبرى ١٣/٤٦٨.

والمعنى : أن المسلم يجب ألا يغتر بعمله وطاعته ، وألا يأمن مكر الله ، ولو كانت إحدى رجليه فى الجنة ، فالقلوب بين أصابع الرحمن ، والله يحول بين المرء وقلبه .

والواجب عليه دائما أن يغذى قلبه بالعمل ، ويجلوه بالذكر.. فالله تعالى المتصرف فى جميع الأشياء ، يصرّف القلوب كيف يشاء بما لا يقدر عليه صاحبها ، فيفسخ عزائمه ، ويغير مقاصده ، ويلهمه رشده . أو يزيغ قلبه عن الصراط السوى . . .

وفى الحديث :«يا مقلّب القلوب ثبت قلبى على دينك» .

قال ابن عباس: يحول بين المؤمن والكفر، وبين الكافر والإيمان (١).

وقال أبو حيان: وفي ذلك حض على المراقبة والخوف من الله تعالى، والمبادرة إلى الاستجابة له جل جلاله (٢).

٥ ـ عدم إفشاء سر الأمة للأعداء:

لأن في ذلك خيانة لله ولرسوله وخيانة للأمة أيضا. وفي ذلك يقول الله عز شأنه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

[الأنفال: ٢٧].

والخيانة والخون يدلان على النقص وإخلاف ما كان يرجى، وإطلاع المشركين على أسرار المؤمنين. وقد روى أن هذه الآية الكريمة، نزلت في أبي لبابة، وكان حليفا لبني قريظة من اليهود، فلما خرج إليهم النبي ـ ﷺ ـ بعد إجلاء بني النضير، وحاصرهم حصارًا شديدًا دام إحدى وعشرين ليلة، وقد طلبوا من النبي ـ ﷺ ـ أن يرسل إليهم أبا لبانة ـ وكان مناصحا لهم، لأن أمواله وعياله فيهم، فبعثه إليهم، فقالوا له: ما ترى؟ هل تنزل على حكم سعد بن معاذ، كما طلب محمد ـ ﷺ ـ فأشار إلى حَلْقه، أي أن حكم سعد الذبح، قال أبو لبابة فازالت قدماى حتى علمت أني خنت الله ورسوله، فنزلت الآية، وقد شد نفسه على سارية المسجد، وأبَى الطعام والشراب حتى الموت، أو يتوب الله عليه، ومكث سبعة أيام، وبعدها تاب الله عليه، وفَكّ النبي وثاقه».

يقول الحق سبحانه ـ ما معناه ـ: يا من اتصفتم بالإيمان وتصديق الرحمن،

---

(١) روح المعاني ٩/١٩١.
(٢) البحر ٤/٤٨١.

والاهتداء بالقرآن، لا تخونوا فتعطلوا فرائضه، أو تنقصوا شيئا من أحكامه التى بينها لكم فى كتابه.. فإن ذلك خيانة تتنافى مع الإيمان. ولا تخونوا الرسول فيما أمركم به، ونهاكم عنه، ولا تخونوه فترغبوا عن بيانه للقرآن، فهو أدرى وأقرب، فخيانة الله والنبى عبارة عن تعطيل فرائض الدين، وعدم العمل بأحكامه والاستنان بسنته، فإن هذا كله نقص لا يليق بالمؤمن والمؤتمن على دينه، على أن الخيانة من صفات المنافقين، والأمانة من صفات المؤمنين.

ولا تخونوا الأمانة التى فى أيديكم لغيركم، سواء كانت معاملات مالية، أو شئونا سياسية، أو سرًّا من الأسرار، أو عهداً من العهود، والحال أنكم تعلمون خطر الخيانة وسوء عاقبتها فى الدنيا والآخرة.

٦ ــ تقوى الله:

فإن تقوى الله ــ عز وجل ـ أساس الخير كله. ومن أعظم ثمرات التقوى، ذلك النور الربانى، الذى يقذفه الله فى قلب المؤمن. وفى ذلك يقول الله جل وعلا:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩]

التقوى من الوقاية، وهى امتثال الأمر، واجتناب النهى، لأن هذا يكون وقاية للعبد من النار.

يقول الحق تبارك وتعالى: يأيها المؤمنون إن تتقوا الله بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه يجعل لكم فرقانا، فيكون المسلم حيث أمره الله، ولا يكون حيث نهاه الله، هذه التقوى إن حصلت لعبد جعل الله له نوراً يمشى به بين الناس، وحكمة يهتدى بها، وعلما نافعا، وعملاً صالحا، وهذا كله يجعله

يفرق بين الحق والباطل، والنافع والضار، ويهتدى إلى الصراط المستقيم، كيف لا ؟ والمتقرب إلى الله بالنوافل يكون ربانيا، ويكون المولى جل شأنه سمعه، وبصره، ويده، ورجله، أفتَراه يضل بعد هذا .. إن التقوى هى السبيل الأقوى.

إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا، ويكفر عنكم سيئاتكم السابقة، ويسترها ويغفر لكم ذنوبكم، ويدخلكم جنات النعيم، والله سبحانه ذو الفضل العظيم .

وفى الآية دليل على أن التقوى تنور القلوب، وتشرح الصدور، وتزيد فى العمل والمعرفة.

٧ ــ أن القتال لرد الاعتداء وأنه ينتهى بنهايته:

وفى ذلك يقول الله عز وجل:

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۞ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الأنفال: ٣٨ ــ ٤٠].

أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك، إن ينتهوا عن الكفر ويؤمنوا بالله، ويتركوا قتالك وقتال المؤمنين، يغفر لهم ما قد سلف من الذنوب والآثام، وإن عادوا إلى قتالك وتكذيبك فقد مضت سنتى فى تدمير وإهلاك المكذبين لأنبيائى، فكذلك نفعل بهم.

وهذا وعيد شديد لهم بالدمار إن لم يقلعوا عن العدوان والمكابرة والعناد.

(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) أى قاتلوا يا معشر المؤمنين ــ أعداءكم المشركين حتى لا يكون شرك ولا يعبد إلا الله وحده، وحتى لا يبقى مشرك

على وجه الأرض (ويكون الدين كله الله) أى تضمحل الأديان الباطلة، ولا يبقى إلا دين الإسلام...

قال الألوسى: واضمحلالها إما بهلاك أهلها جميعا، أو برجوعهم عنها خشية القتل (١) لقوله - ﷺ - «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلاّ الله».. فإن انتهوا عن الكفر وأسلموا، فإن الله مطلع على قلوبهم، يثيبهم على توبتهم وإسلامهم، وإن لم ينتهوا عن كفرهم وأعرضوا عن الإيمان، فاعلموا يا معشر المؤمنين أن الله ناصركم، ومعينكم عليهم، فثقوا بنصرته وولايته، ولا تبالوا بمعاداتهم لكم (إن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير) أى نعم الله أن يكون مولاكم، فإنه لا يضيع من تولاه، ونعم النصير لكم، فإنه لا يُغلب من نصره الله.

٨ - احترام العهود والمواثيق:

فالمعاهدات كانت ولا تزال أداة هامة لتسويةالعلاقات، وفض المشاكل والمنازعات بالطرق السلمية، كما أنّ العهود تقوم على الثقة بين الطرفين، فإذا فقدت هذه الثقة انهارت أهم دعائم السلام بين الشعوب والأمم.

ولقد أحاط الإسلام العهود بكل صنوف الاحترام، وهيأ لها كثيرا من الضمانات مما جعل المسلمين يرتفعون بها فوق مصالحهم، وليس لازما فى شريعة الإسلام، أنه إذا قضت الظروف بنزاع بين المسلمين وبين خصومهم أن يخيرهم بين الإسلام والجزية والحرب وليست هذه الحالات الثلاث التى كانت تعرض على الأعداء آتية فى عمل المسلمين على سبيل الحَصْر، فإننا نجد اتفاقات وعهودًا، وحالات سلام، كانت قائمة بين الرسول ومن يجاوره من القبائل، بغير أن يشترط لذلك حالة من الحالات الثلاث.

---

(١) روح المعانى ٩/٢٠٧.

كما أن العهود والمحالفات التى عقدها النبى - ﷺ - كان هدفها أمراً واحداً مطرداً هو نشر الدعوة الإسلامية، والوصول بهذه الدعوة إلى كافة القبائل والشعوب. ولهذا أوجب القرآن على المسلمين الوفاء بعهودهم فى كثير من الآيات، وجعل القرآن الخروج من فضيلة الوفاء كالخروج من فضيلة الإنسانية كلها. يقول تعالى:

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ [الأنفال: ٥٥، ٥٦]

ولا يبغى الإسلام من وراء المعاهدات سيطرة ولا تملكا ولا استعماراً، بل يهدف دائما إلى إقرار السلام.

والقرآن الكريم يأمر بالوفاء بالعهود - مهما كانت الأسباب، ولو أدى ذلك بالمسلمين إلى التوقف عن نجدة إخوانهم، الذين يقيمون فى بلد غير إسلامى معاهد لهم - مع أن القرآن يعتبر المسلمين على اختلاف أجناسهم وبلادهم أمة واحدة، وكل عدوان يقع على طائفة من المسلمين، فهو عدوان على الأمة الإسلامية.

يقول الله سبحانه فى سورة الأنفال:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٢].

يقول سبحانه: (والذين آمنوا ولم يهاجروا) أى آمنوا وأقاموا بمكة فلم يهاجروا إلى المدينة (مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا) من بلد الكفر، (وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر) أى وإن طلبوا منكم النصرة لأجل إعزاز الدين، فعليكم أن تنصروهم على أعدائهم لأنهم إخوانكم (إلاَّ على قوم بينكم وبينهم ميثاق) أى إلا إذا استنصروكم على من

بينكم وبينهم عهد ومهادنة فلا تعينوهم عليهم.

أما إذا أخلّ المعاهدون بالمعاهدة، كان المسلمون فى حل من قتالهم، وكذلك إذا لمسوا من أعدائهم أمارات الخيانة، فيجوز لهم نقض العهد مع إخبارهم بذلك.

يقول الحق سبحانه فى سورة الأنفال:

﴿ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ * فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ * وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٦ ــ ٥٨].

أى إما تخافن من قوم معاهدين خيانة ونكثا لأمارات تلوح لك، فاطرح إليهم العهد على سواء، أى على طريق مستقيم، وذلك أن تظهر لهم نبذ العهد، وتخبرهم إخبارًا مكشوفا بيّنا، أنك قطعت ما بينك وبينهم. ولا تناجزهم الحرب وهم على توهمهم بقاء ذلك العهد، فيكون ذلك خيانة منك، إن الله لا يحب الخائنين.

قال النحاس: هذا من معجز ما جاء فى القرآن مما لا يوجد فى الكلام مثله، على اختصاره وكثرة معانيه.

والمعنى: وإما تخافن من قوم ــ بينك وبينهم عهد ــ خيانة، فانبذ إليهم العهد، أى قل لهم قد نبذت إليكم عهدكم، وأنا مقاتلكم، ليعلموا ذلك فيكونوا معك فى العلم سواء، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد، وهم يثقون بك، فيكون ذلك خيانة وغدراً (إن الله لا يحب الخائنين). وهذا كالتعليل للأمر بنبذ العهد، أى لا يحب من ليس عنده وفاء ولا عهد(١).

---

(١) تفسير القرطبى ٨/٣٢.

٩ ـ اليقظة والاستعداد الدائم للحرب:

وفى ذلك يقول الله عز وجل:

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٠]

يأمر الله تعالى المسلمين فى هذه الآية الكريمة بأن يكونوا دائمى اليقظة والاستعداد لأعدائهم بكل مايستطيعون من قوة، وهو أمر لا يختص بزمان ولا بفريق من الناس. ولفظ القوة عام يشمل كل مايتقوى به على حرب الأعداء، وكل ماهو آلة للحرب من الحصون وأسلحة البر والبحر والجو على اختلاف أنواعها وأشكالها، بحسب الأزمنه، والأمكنة المختلفة، ومصانع الذخيرة، وكل مايفيد فى صلاحية الأمة للحرب، كإنشاء معاهد لتعليم فنون الحرب، وغير ذلك مما يجعل الأمة الاسلامية قوية مرهوبة الجانب.

فالآية الكريمة على اختصارها جمعت أنواع الإعداد للجيوش، التى تتلاءم مع كل عصر وزمن (ما استطعتم من قوة) كالإعداد الحربى والمادى والمعنوى والادارى والفنى والمالى ـ مع الحث على ذلك بالثواب الجزيل والعطاء الكثير، كل ذلك فى الآية الشريفة.

وقد ذكر (الخيل) فى الآية، لأنها كانت عنوان الرهبة للأعداء فى الزمن القديم، وإن كانت الآية تدعو لإعداد المستطاع والمناسب من كل قوة صالحة.

ولذلك فرض القرآن علينا الإعداد بأنواعه، لقوله (وأعدوا)، وأن نبذل فيه أكثر جهودنا وأن نقدم النفس والنفيس، ما استطعنا إلى ذلك سبيلا.

ولم تغفل الآية الإعداد فى وقت السلم، حتى يكون الجيش على أتم

استعداد فى الثغور لمقابلة العدو ليلا ونهارا . ولقد ذكرت الآية هدف الاعداد وهو إرهاب العدو الظاهر، والعدو الخفى ، ما نعلمه وما لانعلمه . وإخافتهم من عاقبة التعدى على بلاد الإسلام ومصالحها ، ولأجل أن تكون آمنة فى عقر دارها ، وهذا ما يسمى فى عُرف هذا العصر بالسلم المسلّح. وقد أوجبه الإسلام قبل أن تعرفه البشرية بزمن طويل . وهذا معنى قوله تعالى :

(تُرْهِبُون بِهِ عَدُوَّ اللهِ وعَدُوّكم)

ولا يمكن أن تقوم أمة بهذا الإعداد الكامل ثم تُظلم من جيرانها أبدًا .

* ثم حضَّ القرآن المؤمنين على إنفاق المال فى سبيل الله لإعداد القوى العسكرية ، التى أمر بها ، إذ لا يتم بدون المال شىء منها ، فقال تعالى :

﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

فقد وعد الله المؤمنين بأن ماينفقونه فى سبيل الله قلّ أو كثر يجزون عليه جزاء وافيا .

١٠ ـــ الاستجابة لمن طلب الأمان:

وفى ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ٦١ ، ٦٢] .

بعد أن أمر الله سبحانه باليقظة والاستعداد التام للحرب ـــ ذكر هنا حكم ما إذا طلبوا الصلح ، ومالوا إلى السلم ، فقال سبحانه ما معناه :

وإن مالوا إلى السلم ، وطلبوا عقد الهدنة والأمان ، فمِلْ إليه وأَجِبْهم إلى ما طلبوا إن كان فيه مصلحة (وتوكل على الله) ـــ أى فوض الأمر إلى الله ، ليكون عونا لك على السلامة ، فالله سبحانه السميع لأقوالهم العليم بنياتهم ، وإن أرادوا بالصلح خداعك ليستعدوا لك ، فإن الله يكفيك وهو حسبك .

ثم ذكره بنعمته عليه فقال (هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين) أى قواك وأعانك بنصره، وشدّ أزرك بالمؤمنين، قال ابن عباس: يعنى الأنصار.

فالحق سبحانه وتعالى يأمر رسوله - ﷺ - بقبول مبدأ السلم عندما يعرض عليه، لا عن ضعف أو خوف، ولكن محافظة على عدم الاعتداء على العدو، بعد أن يعرض السلم من جانبه، وفى الوقت نفسه يطمئنه بوقوف الله بجانبه، وباعتماده عليه، لو كان باطن عرض الأعداء من سلام هو الخدعة والمكر السىء، وذلك لكيلا يتردد الرسول - ﷺ - كبشر فى قبوله للسلام عندما يعرض عليه.. وإن كان الزمخشرى يرى - فى كشافه - أن الأمر فى الآية موقوف على ما يرى فيه الإمام صلاح الإسلام - من حرب أو صلح - وليس يحتم أن يقاتلوا أبداً أو يجابوا إلى الهدنة أبداً.

— ٢ —

دراسة وتحليل:

هذا هو أدب الإسلام فى الحرب والسلام — كما أوضحته سورة الأنفال، التى كانت أول سورة قرآنية تنزل على النبى — ﷺ — بعد معركة بدر، تحمل بعض أحكام الجهاد وتحث عليه، والتى يتضح منها أن الدين الإسلامى لم يتحقق فى أنفس المسلمين، ولا فى واقع الناس إلاّ بالجهاد بجميع أنواعه. لهذا كان تأثير الجهاد فى نشر الإسلام عظيماً.

يقول ابن القيم، عن بعثة النبى — ﷺ:

«وبعثه بالكتاب الهادى والسيف الناصر بين يدى الساعة حتى يعبد سبحانه وحده لا شريك به، وجعل رزقه تحت ظل سيفه ورمحه».

• ويقول رحمه الله: «فإن الله سبحانه أقام دين الإسلام بالحجة والبرهان، والسيف والعنان، فكلاهما فى نصره إخوان شقيقان»(١).

وهنا لا بد لنا من وقفة متأنية للرد على مزاعم المستشرقين والمتأثرين بآرائهم، الذين شككوا فى تأثير الجهاد فى نشر الإسلام، فزعموا أن الدعوة السلمية المجردة عن الجهاد هى سبب انتشار الإسلام سابقاً، وهى الطريق الأمثل الآن.

---

(١) الفروسية ص٤.

بل بلغ بهم الأمر إلى اعتبار أن انتشار الإسلام بالجهاد فرية على الإسلام ينبغى أن تدفع.

فى مقدمة هؤلاء المستشرقين، «توماس أرنولد» الذى ألف كتاباً بعنوان «الدعوة إلى الإسلام» يهدف منه إلى إماتة الروح الجهادية عند المسلمين. ومن يقرأ كتابه هذا يدرك أنه حريص على تصيد الأخبار الموضوعة والواهية، لكى يبرهن على أن الإسلام لم ينتشر بالجهاد، وإنما انتشر بالدعوة السلمية المتبرئة من كل قوة، وانتشر بالموالاة بين المسلمين والكافرين، ويخلط أنظمة الكفر مع أنظمة الإسلام (١).

وقد قام بترجمة هذا الكتاب ثلاثة من الباحثين المسلمين(٢)، رفعوا قدر الرجل ووضعوه فى مرتبة عالية من العلم بالإسلام وتاريخ المسلمين (٣)، ولعل الدافع لهؤلاء المترجمين على تقدير ذلك المستشرق وكتابه هو لذع عبارات مجموعة أخرى من المستشرقين، تعمدوا وصف الجهاد الإسلامى بأنه عمل بدائى، قام به بدائيون متعطشون للدماء، لا هدف لهم إلاّ قتل الأنفس، وجمع الأموال، وسبى النساء والذرية.

والرد على هذا الفريق المتحامل على الإسلام، ليس قول أرنولد والمتأثرين بأقواله، فإن الجميع لم يدركوا حقيقة الإسلام، وإنما الجواب الصحيح هو تجلية حقيقة الجهاد وهدفه من القرآن الكريم والسنة المطهرة. لأجل هذا وقع كثير من الكتاب المسلمين فى الفخ الذى نصبه لهم المستشرقون،

(١) مقدمة كتاب الدعوة إلى الإسلام ص٥ ومابعدها.

(٢) ترجمة إلى العربية الدكتور حسن ابراهيم، وعبد الحميد عابدين واسماعيل النجراوى وطبع فى مكتبة النهضة بمصر.

(٣) انظر ماكتبوه فى مقدمة الكتاب ص٥ ومابعدها.

فإذا سمعوا من يتهجم على فريضة الجهاد فى الإسلام، وعلى شدة المسلمين على الكفار وإذلالهم.. قالوا لهم: إنكم أخطأتم، والرد عليكم من أبناء جلدتكم، اقرأوا ما كتبه أرنولد، ويذكرون لهم ما كتبه مما فيه إماتة للروح الجهادية، والمحبة بين المسلمين والكفار.. وهذا بلا شك منهج خاطىء. قال الله تعالى:

﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ﴾

[النساء: ٥٩]

فالأجدر بهؤلاء أن يرجعوا إلى كتاب الله وسنة رسوله ـ ﷺ ـ وما قاله علماء الإسلام فى شرحهما لا إلى ما كتبه أرنولد وغيره.

والسؤال الآن: إذا كان الباحثون المسلمون من المعجبين بالمستشرقين، لا يدركون حقيقة الجهاد الإسلامى كما أرادها الله.. فما الذى حملهم على ترجيح أقوال أرنولد، المتضمن ـ كما قلنا ـ إضعاف الروح الجهادية، وتثبيت الولاء والمحبة بين الكافرين والمسلمين ـ على قول غيره ـ المتضمن قطع الموالاة بين المسلمين والكافرين، ومحاربة الكافرين.

أقول: إن هؤلاء الباحثين، لا يجعلون دوافع الجهاد الإسلامى هى إعلاء كلمة الله، وتحرير الناس من ذل العبودية للبشر، إلى عز العبودية لله عز وجل، ونشر العدل بين الناس.. بل يجعلون الدوافع دوافع أرضية هابطة من طلب المال والنساء والتسلط على الآخرين.

أضف إلى ذلك، أن أسلوب أرنولد أتى فى صورة الدفاع عن الإسلام ـ لا الهجوم عليه.

* ومهما يكن من أمر فإن الحقيقة التى أريد أن أقررها الآن ـ استناداً إلى

كتاب الله الكريم، وسنة نبيه -ﷺ-، هى أن المستشرقين وتلاميذهم لم يفهموا جوهر الدين الإسلامى وأتوا بآراء تعد افتراء وكذباً على الله، وعلى رسول الله، وعلى الواقع التاريخى للإسلام.

وهذه هى الأدلة:

أولاً: أن الحق تبارك وتعالى جعل الجهاد سبباً لإقامة الدين، وسبباً لإصلاح الأرض ومصداق ذلك قوله تعالى:

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١]

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ * ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾
[الحج: ٤٠، ٤١]

* فكيف يكون السبب الحقيقى لإقامة الدين وإصلاح الأرض تهمة تُدْفع؟

ثانياً: إن الله أمر المؤمنين بإعداد العدة لمجاهدة الكفار وإرهابهم، فلو كان الإسلام لا ينتشر إلا بالدعوة السلمية، فمِمَّ يخاف الكفار.. أمن كلام يقال باللسان فقط؟

روى البخارى فى صحيحه (١) ــ أن رسول الله -ﷺ- قال:
«أُعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى، نُصِرْت بالرعب مسيرة شهر...» الحديث.

ــ فهل يرعب الكفار أن يقال لهم أسلموا فإن لم تسلموا فأنتم أحرار فيما

(١) صحيح البخارى مع الفتح ١/٣٩٩.

تعتقدون .. أم كان يرعبهم الجهاد، وضرب الجزية، مما يحملهم على اعتناق الإسلام .. ؟

* وهذا هو نشر الإسلام عن طريق الجهاد، وهو المقصود من غزوات رسول الله - ﷺ .

روى مسلم - في صحيحه (١) عن بريدة قال: «كان رسول الله - ﷺ - إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية، أوصاه في خاصته: بتقوى الله عز وجل، ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: «اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا، وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين، ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسَلْهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله. وقاتلهم .. الحديث».

ثالثاً: ما روته السنة المطهرة، من أن رسول الله - ﷺ - كان يدعو للإسلام وهو شاهر سيفه، ويأمر بذلك قواده لعل الناس إذا رأوا القوة، ورأوا تصميم المسلمين على بيع أرواحهم فى سبيل ما يدعون إليه، تزول عنهم الغشاوة، ويعرفون أنهم أصحاب عقيدة لا أصحاب مطامع وشهوات.

روى البخارى فى صحيحه (٢)، عن سهل بن سعد - رضى الله عنه،

---

(١) صحيح مسلم مع النووى ١٢/٢٨.

(٢) صحيح البخارى ٥/٧٦.

أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال يوم خيبر «لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه ، يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، قال : فبات الناس يدركون ليلتهم أيهم يُعطاها ، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ــ ﷺ ــ كلهم يرجو أن يعطاها ، فقال : أين على بن أبى طالب ؟ فقيل : هو يا رسول الله يشتكى عينيه ، قال : فأرسلوا إليه ، فأتى به ، فبصق رسول الله ــ ﷺ ــ فى عينيه ، ودعا له ، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية ، فقال على : يا رسول الله .. أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ، فقال ــ ﷺ ــ أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمر النعم » .

فهذه دعوة إلى الله ــ سبحانه ــ مقرونة بقوة السلاح ، ولولا تأثير قوة السلاح فى الدعوة إلى الله ، لما فعل الرسول ــ ﷺ ــ ذلك ، وأمر به .

رابعاً : قول النبى ــ ﷺ :

«بعثت بين يدى الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعل الذل والصغار على من خالف أمرى ، ومن تَشَبّه بقوم فهو منهم »(١) .

فالمقصود من البعثة المحمدية ، هو نشر الإسلام وإظهاره على سائر الأديان ، فلو لم يكن للسيف تأثير فى ذلك لما ذكره هنا .

خامساً : قول الرسول ــ ﷺ : ــ إن الله سوف يدخل كلمة الإسلام على الناس عموماً ، إما بعزّ أو بذُلّ . ولا شك أن وسيلته فى ذلك هو الجهاد ، لأن الكفار لا يذلون إلاّ من جهاد قتالى .

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٩٢/٢ وصححه الألبانى .

قال رسول الله ـ ﷺ :

« ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلاّ أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذلّ ذليل ، عزًّا يعز الله به الإسلام ، وذلاً يذل به الكفر »(١).

يقول الشيخ ناصر الدين الألباني ، بعد تصحيحه لهذا الحديث : « ومما لا شك فيه أن تحقيق هذا الانتشار يستلزم أن يعود المسلمون أقوياء فى معنوياتهم ومادياتهم وسلاحهم ، حتى يستطيعوا أن يتغلبوا على قوى الكفر والطغيان » (٢) .

سادساً : أن الرسول ـ ﷺ ـ اعتبر ترك الجهاد ذُلاً ، والذليل لا ينشر معتقده ، وإنما ينشره العزيز، وهذا يستلزم أنه لا ينشر الإسلام إلا الجهاد.

*** يقول ـ ﷺ :**

« لئن تركتم الجهاد وأخذتم بأذناب البقر، وتبايعتم بالعينة لَيلزمنكم الله مذلّة فى رقابكم ، لا تنفك عنكم حتى تتوبوا إلى الله ، وترجعوا على ما كنتم عليه » (٣) .

والنفوس البشرية تحب العز، وتأنف الذل ، فإذا رأى الناس ما فيه المسلمون من عزّ دخلوا فى الإسلام ، والعز لا يكون بغير جهاد الكفار غالباً ، وبهذا يكون الجهاد سبباً لانتشار الإسلام ، وتركه سبباً لانحساره .

سابعاً : أخبرنا رسول الله ـ ﷺ ـ بانحسار الإسلام إذا خفنا من الموت فى سبيل الله ، وأخبرنا أيضاً ، أن الأمم تتداعى علينا ونحن نكره جهادهم ،

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤/٦ .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : ٧/١.

(٣) مسند الإمام أحمد ٤٢/٢ .

وهذا بعكس كلام أبناء المستشرقين، الذين يزعمون أن الإسلام ينتشر بالدعوة السلمية فقط، لا الدعوة المقرونة بالسيف.

* قال ـ ﷺ :

«يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها، قال: قلنا يا رسول الله.. أمِنْ قِلّة بنا يومئذ، قال: أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل، ينتزع المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل فى قلوبكم الوهن، قال: قلنا وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت» (١).

ثامناً: ما رواه البخارى فى صحيحه، عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ

«كنتم خير أمة أخرجت للناس» قال: خير الناس للناس تأتون بهم فى السلاسل فى أعناقهم حتى يدخلوا فى الإسلام» (٢).

تاسعاً: ما صرح به صحابة رسول الله ـ ﷺ ـ من أن المقصود من جهادهم هو نشر الإسلام.

روى عن المغيرة بن شعبة، **وربعى بن عامر** ـ رضى الله عنهما ـ أنهما قد بلغا الفرس ما الذى جاء بهم من جزيرة العرب إلى بلاد الفرس، وهو إعلاء كلمة الله، وإخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية للواحد القهار.

وكذلك فعل عقبة بن نافع ـ رضى الله عنه ـ فإنه لما بلغ طنجة، أوطأ فرسه الماء حتى بلغ الماء صدرها، وقال: اللهم اشهد أنى قد بلغت المجهود، ولولا

(١) مسند الإمام أحمد ٥/٢٧٨.

(٢) صحيح البخارى مع الفتح ٨/١٦٩.

هذا البحر لمضيت فى البلاد، أقاتل من كفر بك، حتى لايعبد أحد من دونك(١).

عاشراً: إن الواقع التاريخى لدعوة الرسول - ﷺ - يكذب المستشرقين وغيرهم..

● يقول ابن حزم عن الرسول - ﷺ:

«وأقام بمكة ثلاث عشرة سنة، لم يستجب له فيها إلا أقل من مائة، وهاجر الرسول - ﷺ - إلى المدينة، ومكث إلى غزوة أُحُد، ولم يزد عدد المسلمين عن ألف وخمسمائة رجل»(٢).

● كما جاء فى صحيح البخارى، عن حذيفة، قال: قال النبى - ﷺ:

«اكتبوا لى من تلفظ بالإسلام من الناس، فكتبنا له ألفاً وخمسمائة رجل، فقلنا تخاف ونحن ألف وخمسمائة فلقد رأيتنا ابتلينا حتى أن الرجل ليصلى وحده وهو خائف»(٣).

فلما كثرت غزوات الرسول - ﷺ - وصحابته انتشر الإسلام انتشاراً بالغاً فى سنوات قليلة، حتى كان قوام جيشه - ﷺ - فى غزوة تبوك ثلاثين ألفاً، وحجّ معه فى حجة الوداع ما بين مائة ألف إلى مائة وثلاثين ألفاً(٤)، والذين لم يحجوا لم يعرف عددهم، ولا شك أن هذا الانتشار بسبب الجهاد، بعد مشيئة الله، وقد صدق الشاعر:

دَعَا المُصْطَفَى دَهْراً بِمكَّةَ لم يُجَبْ وقَدْ لاَنَ مِنْه جَانِبٌ وَخِطَابُ
فلَمَّا دَعَا والسَّيْفُ صلْت بكَفِّهِ لَهُ أَسْلَمُوا واسْتَسْلَمُوا وأَنَابُوا

(١) الدكتور شكرى فيصل: حركة الفتح الإسلامى ص١٦٨.
(٢) خلاصة القول فى أصول الإسلام وتاريخه ص١٢.
(٣) صحيح البخارى مع الفتح ١٢٤/٦.
(٤) محمد الكاند هلوى: حجة الوداع ص٢٦.

إحدى عشر: ومما يدل على أهمية الجهاد فى نشر دعوته ـ ﷺ ـ قوله تعالى:

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾
[سورة النصر: ١، ٢].

قال ابن كثير فى تفسيرها: المراد بالفتح ها هنا مكة قولاً واحداً، فإن أحياء العرب كانت تتلوم (تنتظر) بإسلامها فتح مكة، يقولون إن ظهر على قومه فهو نبى، فلما فتح الله مكة دخلوا فى دين الله أفواجاً، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً، ولم يبق فى سائر العرب إلا مظهر للإسلام، ولله الحمد والمنة»(١).

وقد روى البخارى ـ فى صحيحه ـ «أن العرب كانت تلوم بإسلامهم الفتح، فيقولون أتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبى صادق، فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم»(٢).

أقول: ولولا الجهاد لما ظهر عليهم ـ ﷺ ـ فإنه كان بمكة فترة من الوقت يتلو عليهم الآيات من الله، ويرون معجزاته.. كانشقاق القمر، والإسراء، ولم يبادروا بإسلامهم، لا هُمْ ولا أحياء العرب المجاورة، ولكن لما صارت الآيات والحجج مقرونة بسيف يخطف رأس المعاند انقادوا كلهم، وخضعوا للحق.

* ومما ينبغى التفطن له، أن المستشرقين ـ ومن رأى رأيهم ـ إذا قالوا إن الإسلام انتشر بالجهاد بالسيف، فإنهم قد يقصدون أن براهينه ودلائله غير واضحة، وإنما هو دين مَلِك أقامه بالسيف، لا دين رسول مبعوث من عند الله لهداية البشر.

---

(١) تفسير ابن كثير ٨/٥٢١.

(٢) صحيح البخارى مع الفتح ٨/١٨.

وهذه النغمة المملّة ليست وليدة هذا العصر، فقد التفت إليها فى الماضى شيخ الإسلام ابن تيمية، وحكاها عن أهل الكتاب، فقال: (١).

«ومن بعض حقوق الله على عبده رد الطاعنين على كتابه ورسوله ودينه، ومجاهدتهم بالحجة والبيان، والسيف والسنان، والقلب والجنان، وليس وراء ذلك حبة خردل من الإيمان، وكان انتهى إلينا مسائل أوردها بعض الكفار الملحدين على بعض المسلمين، فلم يصادف عنده ما يشفيه، ولا وقع دواؤه على الداء الذى فيه، وظن المسلم أنه بضربة يداويه، فسطا به ضربا، وقال: هذا هو الجواب، فقال الكافر: صدق أصحابنا فى قولهم إن دين الإسلام إنما قام بالسيف لا الكتاب، افترقا وهذا ضارب وهذا مضروب، وضاعت الحجة بين الطالب والمطلوب، فشمر المجيب ساعد العزم، ونهض على ساق الجد، وقام لله قيام مستعين به، مفوض إليه، متكل عليه فى موافقة مرضاته، ولم يقل مقالة العجزة الجهال: إن الكفار إنما يعاملون بالجلاء دون الجدال، وهذا فرار من الزحف وإخلاد إلى العجز والضعف، وقد أمر الله بمجادلة الكفار بعد دعوتهم إقامة للحُجّة وإزاحة للعذر (ليهلَكَ مَنْ هَلَكَ عن بيّنة ويحى من حَيّ عن بيّنة) والسيف إنما جاء منفذاً للحجة مقوماً للمعاند، وحدًّا للجاحد، قال تعالى:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد: ٢٥]

فدين الإسلام قام بالكتاب الهادى ونفذه بالسيف الماضى..

فَمَا هُوَ إلاَّ الوَحْى أوحد مرهف يقيم ظباه أَخْدعى كلّ مَائِلِ

(١) الجواب الصحيح ٧٢/١، وأنظر ماذكره تلميذه ابن القيم فى مقدمة كتابه هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى. ص١٠ وما بعدها. طبع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

فَهَذَا شِفَاءُ الدَاءِ مِن كُلِّ عَاقِلٍ   وهــذا دواءُ الــدَّاءِ مــن كُــلِّ جَـاهِـلِ

إذا علم هذا فليس الجواب الصحيح على قولهم (إن الإسلام انتشر بالسيف) بالنفى، فإن قولهم مشتمل على حق وباطل، وهم يقصدون أن براهين الإسلام غير واضحة، إنما الجواب الصحيح أن يقال لهم إن الإسلام انتشر بالسيف والسنان، والحجة والبرهان، لأن الناس صنفان: صنف طالب للحق، مسترشد عن الهدى، فإذا بانت له أدلته إنقاد لها، وصنف معاند مكابر، لا يريد الهدى ولا الحق، لأنه يخالف رغباته وأهواءه، فهذا لا علاج له إلا السيف.

* أما الطعن فى رسول الله ـ ﷺ ـ واتهامه بالغزو والقتال والتوسع، فهو طعن باطل من وجوه:

• أولها: أن قتاله ـ ﷺ ـ إنما هو عن أمر الله تعالى، وشرعه لإقامة دين الله، وإبطال عبادة ما سواه من الأنداد والأصنام، وهذا من أعظم النفائل، وأكبر المناقب، وأرفع الرتب، وهو قتال الأنبياء وأتباعهم، ولنبينا ـ ﷺ ـ وأتباعه من هذه الفضيلة أوفر حظ وأكمل نصيب.

• ثانيها: أن قتاله ـ ﷺ ـ من إعلام نبوته، وأدلة رسالته، لأنه مطابق لما جاء من نعته فى كتب الأنبياء ـ عليهم السلام ـ كما جاء فى الزبور: «تقلّد أيها الجبار بالسيف، فإن شريعتك وسنتك مقرونة بهيبة يمينك وسهامك مسنونة».

وجاء فى نص آخر ـ فى صفته وصفة أمته: «بأيديهم سيوف ذات شفرتين».

• ثالثها: أن القتال ليس مختصاً بشرعيته ـ ﷺ ـ وحده، فقد قاتل كثير من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بإذن الله لهم فى ذلك وأمره، وقد أمر

الله بنى إسرائيل بقتال الجبارين، ودخول الأرض المقدسة مع موسى ـ عليه السلام، فلما عصوا أمر الله، عاقبهم الله بالتيه أربعين سنة، وبعد خروجهم منه توجهوا لقتال الجبارين مع يوشع بن نون ـ عليه السلام ـ ففتح الله عليهم، ولم يزل الجهاد والقتال مشهوراً فى بنى إسرائيل، ومعهم الأنبياء، كما قال الله تعالى:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦]

وأما كون القتال لم يشرع لعيسى ـ عليه السلام ـ فذلك لا يدل على أن تركه أفضل مطلقاً، بل هذا مع اختلاف الشرائع، كما قال الحق سبحانه:

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨]

● رابعها: أنه إذا كان قتاله ـ ﷺ ـ عن أمر الله لثبوت رسالته، فالاعتراض عليه فى شىء من أمره اعتراض على الله، لأنه الذى شرع وأمر.

الفصل التاسع

بين الشكل والمضمون

ـ ١ ـ

دراسة بلاغية لآيات سورة الأنفال

مقدمة

١ ـ الحقيقة والتشبيه والاستعارة فى القرآن.

هذا الباب ـ فى القرآن العظيم ـ من أبواب تصريف البيان، وضرب الأمثال به. والحقيقة ـ فى الاصطلاح ـ ليست مقابلة للمجاز بكل فروعه، بل هى مقابلة للمجاز والتشبيه والاستعارة، وهى ضرب من ضروب المجاز.

وإذا كان علماء البلاغة يعدون التشبيه من قبيل الحقيقة، إذ أن أساس الحقيقة فى نظرهم أن يستعمل اللفظ فيما وُضع له، والتشبيهات التى تكون بأدوات التشبيه.. الألفاظ موضوعة فى مواضعها، والمجاز الذى يقابل الحقيقة، أن تكون الكلمة غير دالة على غير ما وُضعت له لعلاقة بين المعنى الأصلى، والمعنى الذى استعملت فيه مع قرينة دالة على هذا، وعدم إرادة المعنى الأصلى.

ذلك هو اصطلاح علماء البلاغة، ولا غبار عليه، ولكنا فى مقام الإعجاز القرآنى نذكر الحقيقة، غير المجاز، وغير التشبيه، ونريد الحقيقة المجردة، أى

استعمال الألفاظ فيما وضعت له من غير ذكر مقابلة بين لفظ ولفظ . وطريق التشبيه الذى يجمّل المعانى أو يقرّبها ، أو يأتى بصورة بيانية تلتقى فيها الحقيقة مع إثارة خيال يكون كأطياف الصور.

فالحقيقة ، التى نطلق عليها حقيقة —ونحن نتكلم فى القرآن— ماتدل عليه الألفاظ فى أصل وضعها ، من غير مجاز، ولا استعانة بتشبيه ، ولا مشاحة فى الاصطلاح .

ونتكلم هنا فى الحقيقة ، والتشبيه والاستعارة ، التى هى التشبيه من غير ذكر أداة التشبيه أو ما يدل عليه .

وفى القرآن هذه الأمور كلها من أنواع المجاز المرسل ، الذى لم تكن العلاقة فيه بين المعنى الأصلى ، والمعنى المجازى المشابهة بينهما .

إن القرآن قد كان فيه التعبير بالحقيقة ، وهنا نجد السكاكى يعتبر التعبير المجازى أبلغ من التعبير عن المدلولات بالألفاظ التى وضعت لها ، وقد يكون ذلك فى غير القرآن ، ولكنه ليس على إطلاقه حتى فى غير القرآن :

أما القرآن فليس فيه جزء أبلغ من جزء ولا أبين ، بل كل فى موضعه ، وفى منهاجه بلغ أقصى درجات البلاغة ، التى لا تسامى ولا تناهد ، وليس فى طاقة أحد من البشر أن يأتى بمثله .

* ولاشك أن بعض الموضوعات القرآنية لايكون للمجاز أو للتشبيه موضع ، بل إن المجاز والتشبيه فيها يخل بالبلاغة فيها ، حتى فى كلام الناس ، وليس فى النثر الفنى فيها التشبيه إلا أن يكون للتقريب .

وإن الحقيقة تستعمل فى كثير من مواضع القرآن كالأحكام الشرعية التكليفية ، لأن بيانها يحتاج إلى أن تكون الكلمة محدودة المعنى ، ليتم القيام بموجبها ، وتكون الطاعة محدودة المعالم ، لا احتمال فيها ، إذ إن المطالبة بعمل

توجب تعيينه بما لا يوجد فيه احتمال لمعنى غير المراد، ليتم التكليف على بيّنة وعلم واضح بالمطلوب (١).

أضف إلى ذلك.. أن بلاغة الحقائق التى تذكر فى القرآن، من غير استعانة بمجاز أو تشبيه، لا تقل عن المواضع التى كان فيها تشبيه أو مجاز بالاستعارة أو غيرها، فإن ذلك يكون لمعان مقصودة، وغايات أخرى وراء فكرة البلاغة، التى هى وصف عام للقرآن كله من غير تفاوت، لأنها تتعلق بكتاب الله العزيز، الذى لا يستطيع أحد أن يأتى بمثله، ولو كان معه الجن والإنس، كما قال الحق سبحانه:

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

ويقول فى ذلك الباقلانى (٢):

«إن عجيب نظمه، وبديع تأليفه لا يتفاوت، ولا يتباين، على ما يتصرف فيه من الوجوه التى يتصرف فيها من قصص ومواعظ، واحتجاج وحكم وأحكام، وإعذار وإنذار، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف، وأوصاف وتعليم أخلاق كريمة، وشيم رفيعة، وسير مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التى يشتمل عليها، وتجد كلام البليغ الكامل، والشاعر المفلق، والخطيب المصقع، يختلف على حسب الأحوال».

*** وبعد أن يبين اختلاف البلغاء فيما يجدون من أبواب ثم يقصرون فى غيرها، يقول:**

«وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه على حدّ

---

(١) الشيخ محمد أبو زهرة: المعجزة الكبرى ص٢٥٢.

(٢) كتاب إعجاز القرآن ص٥٥، ٥٦.

واحد فى حسن النظم، وبديع التأليف والوصف، لا تفاوت فيه، ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا.

وكذلك تأملنا ما ينصرف فيه من وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة، فرأينا الإعجاز فى جميعها على حد واحد لا يختلف، وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة، فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت، بل هو نهاية البلاغة، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر، لأن الذى يقدرون عليه قد بيّنا فيه النفاوت الكثير عند التكرار، وعند تباين الوجوه.

ونرى من هذا أن الإجماع على أن القرآن كتاب الله، لاينفاوت عباراته، لأنه من عند الله. الذى لا تفاوت بين الأشياء عنده، ولافرق فى البلاغة بين ماكانت الحقائق فيه تذكر مجردة عن التشبيه والمجاز.

* وإذا قرأنا بعض آيات الأحكام، التى تذكر الأحكام مجردة، مثل قوله تعالى:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ١]

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ [الأنفال: ١٥].

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الأنفال: ٤١].

نجد أن هذه الآيات الكريمة لم يستعمل فيها المجاز ولا التشبيه، ومع ذلك فهى بالغة فى البلاغة حدّ الاعجاز القرآنى، فالتآخى بين الألفاظ والمعانى ثابت، حتى أن كل كلمة فيها حُكْم، تومىء إلى التى تليها مع بيان الحكمة التشريعية.

وهكذا نرى أن المعانى كل واحدة تدعوها السابقة فتلاحقها فى اتساق ونسق جامع، وكل ذلك فى نغم متآخ، وفى صور بيانية من مجموع القول.

وإن ما اختص به القرآن، من تقابل الحقائق فى البيان، وتوافق فى العبارات من غير منافرة ولا معاضلة، متحقق ثابت فى السورة بأكملها، لا مجال لإنكاره، وما اختصت به العبارات من إشراق وضياء، تجده منيرا حول الكلمات.

* إن تلك النصوص القرآنية السامية، التى اشتملت عليها سورة الأنفال، نجد فيها البلاغة التى اتصل إلى أعلى الدرجات فى ذاتها .. وفى نسبتها ..

* فابتدأ الله تعالى الخطاب للرسول ـ ﷺ : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ.. قُلْ الأَنْفَالُ لِلَّهِ والرَّسُولِ) ثم خاطب المؤمنين من بعده: (فاتَّقُوا اللَّهَ وأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ، وأَطِيعُوا اللَّهَ ورَسُولَهُ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِين)..

* ثم وجه إليهم النداءات الإلهية بقوله تعالى: (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا) كحافز لهم على الصبر والثبات فى مجاهدتهم لأعداء الله، وكتذكير لهم بأن هذه التكاليف التى أمروا بها من مقتضيات الإيمان الذى تحلّوا به.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴾ [الأنفال: ١٥].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٠].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ﴾ [الأنفال: ٢٩].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال : ٤٥] .

إن مخاطبة المؤمنين بالجمع إشارة إلى تكامل جمعهم، وتضافرهم، وتعاونهم على البر والتقوى فى المواطن الحرجة، والاستعانة بالمشورة والرأى، وحثهم على السمع والطاعة. وتكرار وصفهم بالإيمان يدل على مكانتهم عند ربهم، وتأييد الله لهم، ومؤازرته لهم فى جهادهم.

وهكذا استمرت الأحكام الرقيقة تبين الآيات منها حكماً بعد حكم، وجمال التعبير يشرق دائما، وحلاوة النغم تنساب فى النفس انسياب النمير العذب، كما تنطلق الأحكام إلى العقل والقلب، فى اتعاظ واهتداء إلى الحق، وفى انسجام فكرى.

وإذا كان سرد الأحكام خصوصاً فى موضع دقيق كأحكام الجهاد، وتوزيع الأنفال، يكون بادى الرأى فى كلام الناس جافاً غير مشرق، فإن ذلك فى كلام الناس، أما فى كلام الله تعالى، فإنه مشرق طيب الأعراق، واضح القسمات، فى نغم هادىء يطب للقلوب جفاؤها فيذهب. إنه عظة وهداية، وتوجيه إلى الحق المطلق، الذى شرعه رب العزة سبحانه.

٢ ــ قوة البلاغة فى الأسلوب من كلمات متآلفة..

يقول الخطابى فى بيان البلاغة القرآنية (١)

«اعلم أن عمود هذه البلاغة التى تجمع لها هذه الصفات هو بوضع كل نوع من الألفاظ التى تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذى إذا أبدل مكانه غيره، جاء منه إما تبدل المعنى الذى يكون منه

(١) انظر رسالته فى إعجاز القرآن ــ ضمن ثلاث رسائل، تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام وزميليه. طبع دار المعارف بمصر.

فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق، الذى يكون منه سقوط البلاغة، وذلك أن فى الكلام ألفاظاً متقاربة فى المعانى يحسب أكثر الناس أنها متساوية فى إفادة بيان مراد الخطاب، كالعلم والمعرفة، والحمد والشكر، والبخل والشح، وكالنعت والصفة، وكقولك أقعد واجلس، وبلى ونعم، والأمر فى ترتيبها بخلاف ذلك، لأن لكل لفظة خاصة تتميز بها عن صاحبتها » .

وهكذا يسترسل الخطابى فى بيان التفرقة بين الألفاظ، ويضرب الأمثلة فى القرآن، وفى اللغة فى التفرقة بين الألفاظ، التى يزعم أنها تدل على معنى واحد يؤديه كل واحد منها، من غير افتراق فى المؤدى، مع أن المؤدى مختلف متباين .

* « وإنه يذكر أن ألفاظ القرآن مختارة تدل على أدق معانيها » :

ونحن نستشهد على ذلك بالألفاظ الواردة فى سورة الأنفال، فى ألفاظ جديدة بأن نقف أمامها :

١ ــ فالأنفال: جمع نفل بالتحريك، والمراد به هنا الغنيمة، وأصل النفل الزيادة، ومنه صلاة النافلة، لأنها زيادة على الفريضة الواجبة، وتسمى الغنيمة نافلة لأنها زيادة فيما أحل الله لهذه الأمة مما كان محرماً على غيرها .

وفى الحديث :

« وأحلّت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى » .

وهنا ثلاثة ألفاظ : (النفل) و(الغنيمة) (والفىء)، فالنفل : الزيادة، وتدخل فيه (الغنيمة) أيضا، لأنها زيادة أحلت لأمة محمد ــ ﷺ ــ خاصة . والغنيمة: ما أخذ من أموال الكفار بقتال .

وأما الفىء: فهو ما أخذ بغير قتال، قال تعالى :

﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ ﴾ [الحشر: ٦].

٢ ـ (فاتَّقُوا الله).. ومعنى تقوى الله: امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وأصل التقوى أن يجعل الرجل بينه وبين الشيء الذى يخافه وقاية، والمراد أن يتقى عذاب الله بطاعته، ويتقى غضبه بامتثال أوامره.

٣ ـ (ذات بينكم) أى أحوالِ بينكم، يعنى ما بينكم من الأحوال، حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق. والبين ـ فى اللغة ـ يطلق على الوصل والافتراق، وقد جُمع المعنيان فى قول الشاعر:

فوالله لَوْلاَ البَيْنُ لَمْ يَكنْ الهَوَى ... ولَوْلاَ الهَوَى مَاحَنَّ للبَيْنِ آلِفُ

٤ ـ (وجلت قلوبهم) أى فزعت لذكره، واقشعرت اشفاقاً من عظمته وجلاله، وأصلُ الوجل: الخوف والفزع، قال تعالى:

﴿ قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ * قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴾ [الحجر: ٥٢، ٥٣]

٥ ـ (زادتهم إيمانا) ـ أى زادتهم ثباتا فى الإيمان، وقوة فى الاطمئنان، ونشاطا فى الأعمال الصالحة. وقد استدل الجمهور بهذه وأشباهها على زيادة الإيمان، فالإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصى كما نبه عليه البخَارى.

٦ ـ (يتوكلون) أى يعتمدون عليه، والتوكل على الله شعار المؤمنين المتقين. قال الله تعالى:

﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨].

٧ — (يقيمون الصلاة) أى يؤدونها كاملة مقوّمة، تامة الأركان والشروط، ولم يقل (يؤدون) الصلاة أو يصلّون، لأنه ليس المراد أداء الصلاة فحسب، بل المراد الإتيان بها على الوجه الكامل من الاطمئنان والخشوع، وأداء الأركان التى أوجبها الله.

وهذا هو السر فى التعبير فى كثير من الآيات الكريمة بقوله تعالى: (أقاموا الصلاة) و(يقيمون الصلاة).

٨ — (درجات) أى منازل ومقامات عالية فى الجنة.

٩ — (ومغفرة) أى تجاوز عن سيئاتهم.

١٠ — (ورزق كريم) وهو ما أعد لهم من نعيم الجنة، والعرب يصفون الذى لا قبح فيه، ولا ضرر بأنه كريم.

١١ — (زحفا) زحف الرجل إذا مشى على بطنه كالحية، أو دبَّ على مقعده كالصبى، وشبّه به هنا مشى الجيش الكثير للقتال بزحف الصبيان، لأنه لكثرته يرى كأنه يزحف زحفا.

١٢ — (الأدبار): جمع دُبُر وهو الخَلْف، ويقابله (القُبُل) وهو الأمام، ويطلق القُبُل والدُّبرُ على سوأتى الإنسان، وأما إطلاقه على الأمام والخلف فمشهور فى اللغة.

قال الله تعالى:

﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ ﴾ [يوسف: ٢٥].

١٣ — (متحرفا لقتال) يقال: تحرّف وانحرف إذا مال وعدل من طرف إلى طرف، مأخوذ من الحَرْف، وهو الطرف أى الجانب، والتحرف للقتال الفرّ لكرّ، أى يتظاهر بالفرار ليفرّ عدوه حتى يُخيل له أنه انهزم، ثم يكرّ عليه فيقتله، وهذا من باب مكايد الحرب (والحرب خدعة).

١٤ ـ (موهن كيد الكافرين) أى مضعف بأس الكافرين بخذلانهم، ونصر المؤمنين عليهم.

وهذه بشارة أخرى من الله مع ماحصل من النصر، فإنه تبارك وتعالى، أعلمهم بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل، ومصغّر أمرهم، وأنهم فى تبار ودمار، وقد وُجد المخبر وفق الخبر، فصار معجزة لنبيى ـ ﷺ ـ قالها ابن كثير.

* ثم إن الخطابى ليقول فى بحثه القيم:

«واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف، مضمنا أصح المعانى من توحيد له، عزّت قدرته ـ وتنزيه له فى صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان بمناهج عبادته، من تحليل وتحريم، وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم، وأمر بمعروف ونهى عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وزجر عن مساوئها، واضعا كل شىء منها فى موضعه الذى لا يرى شىء أولى منه، ولا يرى فى صورة العقل أمر أليق منه».

وإذا كانت ألفاظ القرآن ومعانيه لها ذلك المكان الأسمى، الذى لا يمكن أن يناهد إلى سمائه إنسان أو جن، شرقى أو غربى، فإن فى القرآن من جمال الألفاظ ورونق الأسلوب خاصة لا يصل إليها أحد فى الألفاظ والأسلوب والمعانى.

وقد قسم الخطابى الكلام البليغ إلى أجناس ثلاثة، ومراتبها فى نسبة التبيان متفاوتة، ودرجاتها فى البلاغة متباينة غير متساوية، فنها: البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز الطلق السهل، وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود، دون النوع الهجين المذموم، الذى لا يوجد فى القرآن شىء منه البتة.

وإن هذا الكلام لا يمكن أن يمر من غير أن نبدى عليه ملاحظة لاحظناها ..

إنه يفرض أن الكلام البليغ يتفاوت بتفاوته فى الجزالة والسلاسة والسهولة، وهذا يوهم أن القرآن تتفاوت بلاغته، وهذا الزعم باطل.

فالقرآن كله رتبة واحدة فى البلاغة، فى المنزلة التى لا يمكن أن يسمو إليها بليغ، لأن البلاغة أن يكون الكلام موافقا لمقتضى الحال. فالعبارات الجزلة القوية تكون فى موضع الإنذار، والعبارات السهلة غير المسترسلة تكون فى التبشير، والعبارات المسترسلة فى مواضع التنبيه إلى وجوب التفكير والتدبير، وكلٌّ بليغ فى موضعه، ولا يختار سواه، فلا تكون عبارات الإنذار كعبارات التبشير، ولا تكون عبارات الدعوة إلى التأمل كعبارات التهديد والتخويف.

هذه ملاحظة أبديناها على عبارة الخطابى(١) وكان حقا علينا أن نبديها.

* ولننظر الآن فى قوة البلاغة التى اشتملت عليها سورة الأنفال

١ - فى قول الحق سبحانه وتعالى، فى فاتحة السوره:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ١].

ذكر الله سبحانه اسم الجلالة (الله) فى الأمرين: (اتقو الله) و(أطيعوا الله) لتربية المهابة والروعة فى قلوب المؤمنين، وذكر اسم الرسول مع الله تعالى

---

(١) انظر بحثنا (مفهوم الإعجاز القرآنى حتى القرن السادس الهجرى) فصل مفهوم الخطابى للإعجاز. طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٤م.

أولا وأخيراً لتعظيم شأنه، وإظهار شرفه، وللإيذان بأن فى طاعة الرسول طاعة الله تعالى.

* وتوسيط الأمر بإصلاح ذات البين (وأصلحوا ذات بينكم) بين الأمر بالتقوى، والأمر بالطاعة، لإظهار كمال العناية بشأن الإصلاح بحسب المقام، وليندرج الأمر به بعينه تحت الأمر بالطاعة، فإن الإصلاح بين المسلمين من أعظم الطاعات والقربات إلى الله.

* وقوله تعالى: (إن كنتم مؤمنين) الشرط متعلق بالأوامر الثلاثة، والجواب محذوف، دلَّ عليه ماقبله.. أى إن كنتم مؤمنين فاتقوا الله، وأصلحوا ذات بينكم، وأطيعوا الله ورسوله، وليس الغرض التشكيك فى إيمانهم، وإنما هو للإلهاب وتحريك الهمة، حيث جعل التقوى وإصلاح ذات البين، وإطاعة الله ورسوله من لوازم الإيمان وموجباته، ليعلمهم أن كمال الإيمان موقوف على التوفر عليها.

٣ ــ وفى قوله تعالى: (وإذْ يمكُرُ بكَ) فى الآية الكريمة:

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

أراد الله سبحانه أن يذكّر رسوله بنعمة خاصة، بعد تذكير المؤمنين بالنعمة العامة عليهم.

فاستخدم صيغة المضارع لاستحضار الصورة العجيبة حين تآمر المشركون على الرسول ــ ﷺ.

وفى وقوله (ويمكر الله) إضافة المكر إليه تعالى على طريق المشاكلة، بمعنى إحباط مادبروا من كيد أو مكر. فقد سمى عقاب الله لهم (مكراً) ليشاكل

مكر الكفار، زيادة فى روعتهم، ومبالغة فى تعنيفهم، وأن الجزاء سيكون فى غاية الشدة، وفيه أيضا مجاز مرسل لعلاقته السببية.

والمعنى: اذكر يا محمد حين تآمر عليك المشركون فى دار الندوة (ليثبتوك) أى يحبسوك، (أو يقتلوك) أى بالسيف ضربة رجل واحد، ليتفرق دمك بين القبائل، (أو يخرجك) أى من مكة، (ويمكرون ويمكر الله) أى يحتالون ويتآمرون عليك يا محمد، ويدبر لك ربك ما يُبطل مكرهم ويفضح أمرهم.

٣ – وفى قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢].

أى إن كان هذا القرآن حقا من عندك (فامْطِرْ عَلَيْنا حِجَارة من السماء) أى أنزل علينا حاصبا وحجارة من السماء كما أنزلتها على قوم لوط (أو ائْتِنَا بِعَذابٍ أَلِيم) أى بعذاب مؤلم أهلكنا به. وهذا تهكّم منهم واستهزاء.

* قال ابن كثير: وهذا من كثرة جهلهم، وشدة تكذيبهم وعنادهم، وكان الأولى لهم أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه، ولكنهم استعجلوا العقوبة والعذاب لسفههم(١).

* ويرتبط بقولهم هذا لطيفة.. فقد حكى عن معاوية بن أبى سفيان، أنه قال لرجل من سبأ: من أجهل قومك حين مَلَّكُوا عليهم امرأة!! فقال الرجل: أجهل من قومى قومك حين قالوا لرسول الله – ﷺ – حين دعاهم إلى الحق (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب أليم) ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه." فسكت معاوية.

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/١٠١.

٤ ـ وفى قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [الأنفال : ٣٥] .

تأمل التعبير الرائع فى أسلوب القرآن ، حيث وضعوا المكاء والتصدية ـ أى التصغير والتصفيق . موضع الصلاة ، التى ينبغى أن تؤدى عند البيت الحرام ، فكانوا كالأنعام التى لا تفقه معنى العبادة ، ولا تعرف حرمة بيوت الله ، وهو على حد قول القائل : (تحية بينهم ضرب وجيع) .

وذكر القرآن لها ، تجميع لجملة قبائحهم .

قال ابن عباس ـ تعليقا على هذه الآية : كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة ، يصفّرون ويصفقون ، فقال الله (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) أى فذوقوا عذاب القتل والأسر بسبب كفركم وأفعالكم القبيحة ، وهو إشارة إلى ما حصل يوم بدر .

٥ ـ وفى قوله تعالى : (عَلَى عَبْدِنا) فى الآية الكريمة :

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾ [الأنفال : ٤١] .

ذكر رسول الله ـ ﷺ ـ بلفظ العبودية ، وإضافته إلى الله عز وجل ـ للتشريف والتكريم وإنما لم يذكره باسمه ـ تعظيما له وتكريما ، لأن أعظم وأشرف أوصاف الرسول ـ ﷺ ـ التى احتفل بها القرآن ـ هى وصفه بالعبودية .

وهذا هو السر فى ذكره ـ فى سورة الإسراء ـ بهذا الوصف الجليل : (سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ) . وإضافة العبد إليه ـ عز وجل ـ تشعر بكمال العناية والتبجيل ، كما قال أحد العارفين :

ومـمّـا زَادَنِـي شَـرَفـاً وتيهـاً وكِـدْتُ بـأخْـمصى أطأ الثُّرَيَّا
دُخُولى تحتَ قَوْلِكِ «يا عِبَادِي» وأنْ صَيـرَّتَ «أحمد» لِى نَبيـاً

٦ ــ وفى قوله تعالى:

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٣].

استخدام القرآن أسلوب الإطناب، لفائدة عظمى، وهى التذكير بالمنة الكبرى، والنعمة العظمى على الرسول والمؤمنين.

يقول سبحانه ــ مامعناه ــ لو أنفقت مافى الأرض جميعا ماألفت بين قلوبهم، أى لو أنفقت فى إصلاح ذات بينهم مافى الأرض من الأموال، ماقدرت على تأليف قلوبهم، واجتماعها على محبة بعضها بعضا، ولكنه سبحانه بقدرته البالغة جمع بينهم ووفق، فإنه المالك للقلوب يقلبها كيف يشاء.

قال القرطبى ــ معلقاً ــ «وكان تأليف القلوب مع العصبية الشديدة فى العرب من آيات النبى ــ ﷺ ــ ومعجزاته، لأن أحدهم كان يُلطم اللطمة فيقاتل عليها، وكانوا أشد خلق الله حمية، فألف الله بينهم بالإيمان، حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين (١).

وهنا نلحظ أيضاً بالإضافة إلى قوة البلاغة ونصاعة الأسلوب وجزالة الألفاظ، وضوح التلاؤم فى أسلوبها، وتآلف مخارج الحروف والكلمات، والانسجام فى النغم بينها.

وكل ذلك طريق الوصول إلى القلوب، فإن نظم القرآن يسير هو وأسلوبه

---

(١) تفسير القرطبى ٨/٣٥.

بألفاظه ومعانيه إلى القلوب ليأخذها من طبعها الأرضى، ليعلو بها إلى الأفق السماوى.

وقد وضح فى التلاؤم بين الألفاظ.. حسن الكلام فى السمع، وسهولته فى اللفظ، وتقبل النفس لمعناه، لما يرد عليها من حسن الصورة، وطريق الدلالة، ومثل ذلك.. مثل قراءة الكتاب فى أحسن مايكون الخط والحرف، وقراءته فى أقبح مايكون من الحرف والخط، فذلك متفاوت فى الصورة وإن كانت المعانى واحدة. وإن الكلام ليذاق كما يذاق الطعام، فكلما كان التنسيق والتلاؤم حَسُن فى الذوق.

٣ ــ دراسة بلاغية لآيات السورة:

حفلت سورة الأنفال بالعديد من الومضات البلاغية، فكانت هذه الومضات من العوامل الفعالة المؤثرة فى توضيح المعنى، وتصوير الأحداث، وتجسيم المعارك، وإضافة ألوان بيانية أو بديعية تضفى على آيات السورة البهاء والرونق، وتزيد المعنى جمالاً وقوة.

لقد كانت هذه الإشارات البلاغية ــعلى اختلاف ألوانهاــ إحدى الدعامات الأساسية التى يرتكز عليها تجميل المعنى وتكميله، كما كانت المعين الصافى، الغزير المياه، الذى يمد القارىء والسامع بطاقات هائلة من روعة التعبير، وكمال التصوير، وتعينه على تفهم المعنى وتذوقه.

لقد اشتملت آيات سورة الأنفال على مجموعة من كنوز علوم البلاغة الثلاثة: المعانى، والبيان.. والبديع، التى وضّحت معانى الآيات، وأبرزت مواطن الجمال فيها، بطريقة رائعة تلفت الأنظار، وتجذب الانتباه.

ويهمنا أن نقف الآن أمام بعض هذه العناصر، كدليل على أن البلاغة القرآنية كلٌّ لايتجزأ، وأنه لاتخلو سورة من سور القرآن من مثل هذه الإشارات التى تتلألأ فى كل آية من الكتاب العزيز.

أولاً: علم المعانى

* وفيما يتصل بعلم المعانى، نجد إشارات عديدة توضح عناصر هذا العلم، الذى يبحث فى المعنى من حيث مطابقته لمقتضيات الأحوال، أى أن يكون الكلام موافقا مدلوله للحال التى وقع فيها.

١ - ففى قوله تعالى: (إذْ تستغيثُونَ) فى الآية الكريمة:

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾

[الأنفال: ٩].

استخدام صيغة المضارع، لهدف بلاغى وهو استحضار صورتها الغريبة فى الذهن.

أضف إلى ذلك أن استخدام صيغة المضارع تفيد الحال والاستقبال.

والمعنى: إذ تطلبون من ربكم الغوث بالنصر على أعدائكم.. فاستجاب الله الدعاء بأنى معينكم بألف من الملائكة متتابعين.

وقد ذكر الله تعالى فى هذه الآية، أنه أمد المؤمنين بألف من الملائكة، وذكر فى سورة آل عمران أنه أمدهم بثلاثة آلاف، ولا تعارض بين الآيات، فإنه تعالى ذكر هنا لفظ (مردفين) ومعناه متتابعين، فأمدهم أولا بألف، ثم بثلاثة آلاف، وهذا من بلاغة القرآن.

* قال بعض المفسرين: ورد أن جبريل نزل بخمسمائة وقاتل بها فى يمين الجيش، ونزل ميكائيل بخمسمائة، وقاتل بها فى يسار الجيش، ولم يثبت أن الملائكة قاتلت فى وقعة إلا فى بدر، وأما فى غيرها فكانت تنزل الملائكة لتكثير عدد المسلمين ولا تقاتل (١).

(١) انظر حاشية الصاوى على تفسير الجلالين ٢/١١٨.

٢ ـ وفى قوله تعالى :

من الآية الكريمة :

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال : ١١] .

قد قدم الجار والمجرور (من السماء) على المفعول به (ماء) لغاية بلاغية ، وهى الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر.

والمعنى: إذ يلقى عليكم النوم أمنة من عنده ـ سبحانه وتعالى ـ وهذه معجزة لرسول الله ـ ﷺ ـ حيث غشى الجميع النوم فى وقت الخوف ، قال علىّ ـ رضى الله عنه ـ « ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ، ولقد رأينا ومافينا إلا نائم ـ إلا رسول الله ـ ﷺ ـ يصلى تحت شجرة ، ويبكى حتى أصبح .

قال ابن كثير: « وكأن ذلك كان للمؤمنين نعمة شدة البأس ، لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله .. » (١) .

٣ ـ وفى قوله سبحانه : (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) .

من الآية الكريمة : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [الأنفال : ١٩] .

وجّه الحق سبحانه الخطاب للمشركين على سبيل التهكم والسخرية ، حيث كان أبو جهل هو المستفتح ، وهذا مثل قوله :

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان : ٤٩] .

والمعنى: إن تطلبوا يا معشر الكفار الفتح والنصر على المؤمنين ، فقد جاءكم الفتح ، وهو الهزيمة والقهر.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٩١ .

قال الطبرى: فى رواية الزهرى ــ قال أبو جهل يوم بدر: «اللهم أينا كان أفجر واقطع للرحم فاحْنِهِ اليوم، أى أهلكه، فأنزل الله الآية.

٤ ــ وفى قوله سبحانه: (مِنْ شَىْء) (١).

من الآية الكريمة:

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٤١].

حيث استخدم التنكير فى (من شىء) للتقليل، أى أىُّ شىء كان، سواء كان هذا الشىء قليلاً أو كثيراً، عظيماً أو حقيراً، حتى الخيط والمخيط.

وذكر (الله) تعالى فى القسمة (فأن لله خُمُسة) لغرض التبرك بذكر اسم الله العظيم، واستفتاح الأمور باسمه تعالى، ولا يقصد منه أن الخمس يقسم على ستة منها الله، فإن لله الدنيا والآخرة، والله هو الغنى الحميد، أو يراد منه إنفاقه فى سبيل الله، فيكون الكلام على حذف مضاف.

٥ ــ وفى قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [الأنفال: ٥٠].

حذف جواب (لو) للتهويل، أى لرأيت أمراً فظيعا، وشأنا هائلا.

قال أبو حيان: «وحذف جواب لو جائز، بليغ حذفه فى مثل هذا لأنه يدل على التهويل والتعظيم» (١).

والمعنى: لو رأيت وشاهدت أيها المخاطب وأيها السامع حالتهم ببدر، حين تقبض ملائكة العذاب أرواح الكفرة المجرمين.

ولنتأمل هذه الصورة الدقيقة (يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُم وأدْبَارهُم) أى تضربهم الملائكة من أمامهم وخلفهم، على وجوههم وظهورهم بمقامع من حديد (وذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيق) أى ويقولون لهم: ذوقوا يا معشر الفجرة عذاب النار المحرق، وهذا بشارة لهم بعذاب الآخرة.

٦ — وفى قوله تعالى:

من الآية الكريمة:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

[الأنفال: ٤].

استخدام القرآن أسلوب الإشارة بالبعيد (أولئك عن القريب، لعلو رتبتهم، وبُعد منزلتهم فى الشرف.

ثانيا : علم البيان

أما عناصر علم البيان ، فقد اشتملت سورة الأنفال على إشارات كثيرة منها . ومعلوم أن علم البيان يبحث فى المعنى من حيث تأديته بطرق مختلفة فى الوضوح ، مع استخدام ألوان التشبيه والاستعارة والكناية فى إبراز الصورة الجمالية الفنية . فأثر علم البيان فى تحسين الكلام ذاتى فى صميم المعنى .

١ ــ التشبيه

ذكرنا من قبل ، أن التشبيه فى القرآن ليس هو مقياس البلاغة ، لأن البلاغة القرآنية العالية كما تكون فى حالة التشبيه ، تكون أيضاً فى الكلام الخالى من كل هذا ، وأخص مايكون ذلك فى آيات الأحكام .

وقد ذكرنا ــ من قبل ــ بعض آيات الأحكام ، التى تتعلق بالقتال ، وتوزيع الأنفال ، ووجدنا فيها النص الكريم فى حقائقه ، وفى بُعده عن كل المحسنات البيانية والبديعة أعلى من كل كلام ، وهو بديع فى ذاته ، من غير حاجة إلى البديع الصناعى أو الاصطلاحى ، فإنه فوق قدر البشر، وفوق ما يصطنعه البشر، وما يصطلح عليه العلماء ، وإنه يتعلم منه ، وإن كان لا يحاكى ويؤخذ منه ، وإن كان الوصول إلى مقامه غير ممكن .

أقول هذا لأننا قد لا نجد نماذج على التشبيه كثيرة فى هذه السورة . فما ورد فيها :

١ ــ فى قوله تعالى :

﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾ [الأنفال : ٥] .

حيث استخدم الكاف فى التشبيه . قال ابن عطية : شبهت هذه القصة ،

التى هى إخراجه من بيته بالقصة المتقدمة، التى هى سؤالهم عن الأنفال، وكراهتهم لما وقع فيها (١)، أى أن حالهم فى كراهة تنفيل الغنائم كحالهم فى حالة خروجك للحرب.

● وقال الطبرى: كما أخرجك ربك بالحق من فريق المؤمنين، كذلك يجادلونك فى الحق بعد ماتبين، والحق الذى كانوا يجادلون فيه النبى ـ ﷺ ـ بعدما تبينوه هو القتال (٢).

وقد اختلف المفسرون فى السبب الجالب لهذه الكاف فى قوله (كما أخرجك ربك) فقال بعضهم: شبّه به الصلاح للمؤمنين، اتقاؤهم ربهم وإصلاحهم ذات بينهم، وطاعتهم لله ورسوله. ومعنى هذا: أن الله تعالى شبّه اختلافهم فى المغانم، وتشاححهم فيها، وكان ذلك سببا فى انتزاعها منهم، وجعلها إلى قسمة، وقسم رسوله ـ ﷺ ـ فقسمها على العدل والتسوية، فكان هذا هو المصلحة التامة لهم.

شبه ذلك بكرههم الخروج إلى الأعداء، من قتال ذات الشوكة، وهم النفير الذين خرجوا لنصر دينهم وإحراز عيرهم، فكان عاقبة كراهتهم للقتال بأن قدره لهم، وجمع به بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد رشداً وهدى، ونصراً وفتحا.

٣ ـ وفى قوله تعالى: (كأنّما يساقون إلى الموت)

من الآية الكريمة: ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٦].

تشبيه تمثيلى، وضحه البيضاوى بقوله: أى يكرهون القتال كراهة من ينساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه، وذلك لقلة عددهم وعدم تأهبهم.

---

(١) البحر ٤/٤٥٧. (٢) تفسير الطبرى ٤/٤٦١.

وفيه إيماء إلى أن مجادلتهم إنما كانت لفرط فزعهم ورعبهم (١).

٣ ـــ وفى قوله تعالى :

من الآية الكريمة :

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٢].

شبّه الكفار بالبهائم، بل جعلهم شراً منها؛ وذلك منتهى البلاغة ونهاية الإعجاز، اذا أن الكافر لايسمع الحق، والبهائم لاتسمع، ولاينطق به.. والبهائم لاتنطق، ويأكل والبهائم تأكل، بقى أنه يضر والبهائم لاتضر، فكيف لايكون شراً منها؟

والمعنى: إن شر الخلق وشر البهائم، التى تدب على وجه الأرض (الصُّم البكم) أى الصم الذين لايسمعون الحق، والبكم ـــ أى الخرس، الذين لاينطقون (الذين لايعقلون) أى الذين فقدوا العقل الذى يميز به المرء بين الخير والشر.

وفى الآية غاية الذم للكافرين بأنهم أكثر شرا من الكلب والخنزير والحمار لأنهم لم يستفيدوا من حواسهم.

*** وقبل أن نغادر الكلام فى التشبيه إلى الأستعارة.. وهى لون من ألوانه، لابد أن نشير إلى أمور ثلاثة :**

أولها : أن التشبيه بلاشك من أسرار الإعجاز، ويعده الباقلانى من أسباب الإعجاز، ولكن يعد الكلام فى القرآن من غير مجاز ولا تشبيه بأى لون من ألوانه معجزاً، بلغ ذروة البلاغة، من غير أن تعرف سببا واضحاً يدرس على أساسه، وتتعرف أسرار البلاغة فيه من إشعاعه.

---

(١) تفسير البيضاوى ص٢٠٩.

وليس معنى ذلك، أن الإعجاز ليس بيانيا ، بل هو بيانى، ويبدو ذلك من تساوق المعانى ، وأخذ الألفاظ بعضها بعجز بعض فى إحكام قول ، ونغم ورنين يكون أحياناً شديداً يصك آذان المنذرين ، وأحيانا كأنه نسيم عليل يحيى النفوس ، ويشفى أسقام القلوب .

وهذه هى البلاغة فى القرآن ، التى تعلو عن أن توضحها الأفهام ، كما يرى ضوء الشمس ولا يعرف كُنهه ، وما تحس بالحرارة الدافئة ولا تعرف ماهيتها ، والله على كل شىء قدير.

الأمر الثانى: أن تشبيهات القرآن أياً كان وجهها صور بيانية ، وتتضح فيها الحقائق الظاهرة ، والمعانى العاطفة ، كأنها أمور محسوسة مرئية ، فإذا كان التشبيه بأمر محسوس ، كانت الصور البيانية كأنها مرئية واضحة .

والأمر الثالث: الذى نجده فى تشبيهات القرآن أننا نجدها تقرب المعانى ، وتأخذ من التشبيهات الأدلة المفرقة بين الحق والباطل ، اقرأ قوله تعالى :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل : ٧٥ ، ٧٦] .

نرى أن التشبيه الأول من قبيل التمثيل ، وهو تشبيه حال من يعبد الأصنام ، إذ يسوى بينها وبين الخلاق العليم ، بحال من يجعل العبد المملوك الذى لايقدر على شىء بحال من رزقه الله تعالى رزقاً حسنا ، وهما لا يستويان حالا وشأنا ، والنتيجة لايستوى صنم لايقدر على شىء بالله تعالى ، الذى يملك الوجود كله ، وهو على كل شىء قدير.

وفى التشبيه الثانى ، كان التشبيه بين حال المشركين فى تسويتهم بالله

القادر، والحجر الذى لا يضر ولا ينفع، وحال من يسوى بين رجل أبكم وهو كلٌّ، وبين رجل ينطق بالحكم، ويقيم العدل لايستويان، فلا تصح عبادة الأوثان وتسويتها بالله.

إن الله سبحانه وتعالى ـ يقرب الحقائق بين قوم حسيين بالمحسوسات، يضرب الأمثال بالتشبيهات لتقريب الحقائق، وتوضيح الأدلة بما يقربها، ولو كان ذلك بالأشياء التى يستحقرها المشركون، وهى فى ذاتها ليست بحقيرة، ولكنها جليلة لأنها من خلق الله تعالى (١)، ولقد قال الله فى ذلك:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦].

٢ ـ الاستعارة

الاستعارة ضرب من ضروب التشبيه، وتكون العلاقة بين المعنى الأصلى للفظ بالوضع الأصلى، والمعنى فى الاستعمال المجازى المشابهة، وعلى ذلك يكون بين التشبيه والاستعارة اتصال. وإن شئت فقل: إنها طريق من طرق التشبيه، أو هى تشبيه فيه مبالغة، فإنه المشبه يدعى فيها أنه فرد من أفراد المشبّه به، ولذلك لابد فيها من أمرين:

• أولها: ألا تكون ثمة أداة تشبيه كالكاف أو الاستعمال، أو أن يكون المشبه محمولا عليه، والمشبه محمولا مثلا، وألا يكون المشبه مذكوراً بأى صورة من الصور.

---

(١) المعجزة الكبرى ٢٧٥.

• ثانيها: أن يكون اللفظ الدال على المشبه به لفظاً عاما كاسم الجنس، لكى يدخل المشبه فى عموم أفراده بمظهر اللفظ.

* وقد عرف أبو الحسن الرمانى(١) ــ الاستعارة، فقال: «هى تعليق العبارة على غير ماوضعت له فى أصل اللغة على جهة النقل للإبانة».

وهذا التعريف هو فى معنى ماذكرنا، غير أنه أشار إلى أن الاستعارة نقل اللفظ من المعنى الذى وضع له إلى معنى آخر لعلاقة المشابهة بين المعنيين، وهو فى المعنى ادعاء أن لفظ المشبه به اتسع حتى صار عاماً، فدخل فى عمومه المشبه، ويفرق بين المعنى بالوضع الأولى، والمعنى بالوضع الثانى بالقرينة، فهى مانعة من إرادة المعنى بالوضع الأصلى.

*** والإستعارات فى ألفاظ سورة الأنفال كثيرة، منها:**

١ ــ قوله تعالى: (لَهُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِم) من الآية الكريمة:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

[الأنفال: ٤].

حيث استعار (الدرجات) للمراتب الرفيعة، والمنازل العالية من الجنة.

والمعنى: أن المتصفون بما ذكر من الصفات الحميدة، هم المؤمنون إيماناً حقاً، لأنهم جمعوا بين الإيمان، وصالح الأعمال، لهم منازل رفيعة فى الجنة، ومغفرة لما فرط منهم من الذنوب، ولهم رزق دائم مستمر، مقرون بالإكرام والتعظيم.

٣ ــ وفى قوله تعالى (ذَاتِ الشَّوْكَة) من الآية الكريمة:

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾

[الأنفال: ٧].

(١) انظر رسالته «النكت فى إعجاز القرآن» ضمن ثلاث رسائل ــ طبع دار المعارف.

استعيرت (الشوكة) للسلاح، بجامع الشدة والحدة بينهما.

قال فى البحر: والمعنى.. أنكم ترغبون فى الفائدة العاجلة، وسلامة الأحوال، وسفساف الأمور، والله يريد معالى الأمور، وإعلاء الحق، والفوز فى الدارين، وشتان مابين المرادين، ولذلك اختار لكم ذات الشوكة، وأراكهم عياناً خذلانهم، فنصركم وهزمهم، وأعزكم وأذلهم(١).

٣ ــ ومن الاستعارات التمثيلية، قوله تعالى: (يَحُولُ بَيْنَ المَرءِ وقَلْبِه) من الآية الكريمة:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فالكلام هنا من باب الاستعارة التمثيلية، شبه تمكنه تعالى من قلوب العباد، وتصريفها كما يشاء، بمن يحول بين الشيء والشيء، وهى استعارة لطيفة.

والمعنى: أى أجيبوا دعاء رسوله إذا دعاكم للإيمان الذى تحيا به النفوس، وبه تحيون الحياة الأبدية. واعلموا أن الله تعالى المتصرف فى جميع الأشياء، يصرّف القلوب كيف يشاء بما لايقدر عليه صاحبها، فيفسخ عزائمه، ويغيرّ مقاصده، ويلهمه رشده، أو يزيغ قلبه عن الصراط السوى.

٤ ــ ومن الاستعارة فى الأفعال، قوله تعالى: (ليهلك ويحيا)

من الآية الكريمة:

﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال: ٤٢].

(١) أبو حيان ٤/٤٦٤.

حيث استعار الهلاك والحياة للكفر والإيمان .

قال الرازى: المعنى : لو تواعدتم أنتم وأهل مكة على القتال لخالف بعضكم بعضا لقلتكم وكثرتهم (١). (ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولاً) أى ولكنْ جمع بينكم على غير ميعاد ليقضى الله ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله ، وإذلال الشرك وأهله ، فكان أمراً متحققاً واقعا لا محالة . (ليهلك من هلك عن بيّنه) أى فعل ذلك تعالى ليكفر من كفر عن وضوح وبيان . (ويحيا من حَىّ عن بينة) أى ويؤمن من آمن عن وضوح وبيان .

ولقد ذهب الطبرى إلى أن المعنى : ليموت من مات من خلقه عن حجة الله ، قد أثبت له ، وقطعت عذره ، وليعيش من عاش منهم عن حجة الله قد أثبتت له وظهرت لعينه فعلمها (٢) .

٥ ــ وقوله تعالى : (وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)
من الآية الكريمة :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾
[الأنفال : ٤٦] .

أى تذهب قوتكم وشوكتكم ، وهو من باب الاستعارة أيضا .

والمعنى : (ولا تنازعوا فتفشلوا) أى ولا تختلفوا فيما بينكم فتضعفوا وتجبنوا عند لقاء عدوكم ، (وتذهب ريحكم) أى تذهب قوتكم وبأسكم ، ويدخلكم الوهن والخور.

* ومن المهم أن نذكر، أننا نجد الاستعارات البيانية فى القرآن كثيرة جداً. وذلك لأسباب عدة: نذكر منها :

(١) تفسير الرازى ١٥/١٦٧ .

(٢) تفسير الطبرى ١٣/٥٧٣ .

أولا: أن اللغة العربية لاتتسع للمعانى النفسية السامية فى القرآن. فإنه علم لاتدل على حقائقه ألفاظ ذات دلالة معينة، وكانت بلغة العرب الذين لم يصلوا هم ولا غيرهم إلى الحقائق العلمية والنفسية التى يتصدى القرآن الكريم لبيانها، وكشف عيون الحقائق فيها، فكان لابد من الاستعانة بالاستعارة من الألفاظ التى وضعت للمعانى الحسية، لتكشف بها العلوم النفسية والاجتماعية والعقلية، ولتقرب المعانى إلى ذهن الأعراب، ومن هم أعلى منهم إدراكا لأنه الكتاب المبين، وليخرج الأميين إلى حيث العلم، وإلى الكتاب الذى علم الإنسان مالم يعلم.

ثانيا: أن القرآن الكريم فيه الإخبار عن الأمور الغيبية، التى وقعت فى الماضى، والأمور القابلة، وخصوصاً مايكون فى الجنة من نعيم دائم، وفى النار من عذاب أليم، فنعيم الجنة فيه فاكهة ونخل ورمّان، وفيها أنهار من عسل مصفى، وفيها أنهار من خمر لذة للشاربين.. وهكذا

ولكن أهى من نوع خمر الدنيا وفاكهتها؟ لقد ورد عن ابن عباس.. أنها ليست كخمر الدنيا، وما يذكر فيها ليس من نوع مافى الدنيا، ولا من جنسه، ولقد قال ـ ﷺ ـ «فيها مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

ونحن نؤمن أولا بأن نعيم الجنة حسي، وعذاب النار حسّي، ونؤمن ثانيا بأن كل ذلك ليس من جنس ماهو فى الدنيا، بل هو أعلى وأعظم، فكأن الألفاظ التى تقال عن ذلك مستعارة من ألفاظ الدنيا، ليمكن تقريبها إلى النفوس والأشخاص الذين لا يرون إلا المحسوس.

ثالثاً: أن الاستعارة تثير صوراً بيانية فى الألفاظ والمعانى، كالتشبيه، لأنها تربط بين المعانى بعضها مع بعض، وفيها نقل ألفاظ من معان إلى القريب

منها ، المتناسب معها ، فوق مايثيره من أخيلة تحلق بالتالى للقرآن من أجواء من البيان (١) .

٣ ــ الكناية

يعرّف عبد القاهر الكناية بأنها : «أن يريد المتكلم إتيان معنى من المعانى ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة ، ولكن يجىء إلى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود ، فيؤتى به إليه ، ويجعله دليلا عليه . ويلاحظ فى الكناية أنه لا مجاز فى المعنى ، واللفظ على ظاهره بادى الرأى .

ولكن لايراد ذلك الظاهر ، وإنما يراد لازمه ، وسماه عبد القاهر رادفه ، أى أنه يفهم تبعا له . واللزوم ليس هو اللزوم العقلى دائما ، بل قد يكون فى بعض الأحوال لزوما عاديا يجوز أن يختلف . فمثلاً (طويل النجاد) يلزم عقلا أن يكون طويل القامة ، ولكن (كثير الرماد) لا يلزم لزوما عقليا أن يكون كثير نار القدر ، فقد يكون وقود النار لغير القدر .

* وقد ذكر عبد القاهر مكان الكناية فى الكلام البليغ فقال :

«قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الافصاح ، والتعريض أوقع من التصريح .. إلا أن ذلك وإن كان معلوما على الجملة ، فإنه لا تطمئن نفس العامل فى كل ما يطلب به العلم ، حيث يبلغ فيه ثمانية ، وحتى يغلغل الفكر فى زواياه ، وحتى لايبقى موقع شبهة ، ولا مكان مسألة » .

وإذا كانت الكناية كما تدل عليها عبارات علماء البلاغة ــ هى الدلالة على اللازم عادة أو عقلا بذكر الملزوم ، فكثرة الرماد ــ كما مثلوا يلزمها كثرة الضيفان ، وطول النجاد يلزمه طول القامة . فإن الكناية فى القرآن .. تمتاز بإرادة اللازم والملزوم ، وفى ذلك كثرة المعانى مع إيجاز الألفاظ .

(١) المعجزة الكبرى ص ٢٨٣ .

ولنضرب لذلك مثلا من القرآن، يقول الله تعالى فى وصف المتقين:

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾

[الفرقان: ٦٣].

هذا وصف حسّى لمشيهم ولقائهم، فهم يمشون غير مسرعين ولا متباهين، بل يمشون مشيا هيّنا لا سرعة فيه ولا إبطاء، وإذا خاطبهم الحمقى لا يمارونهم ولا يجادلون، فإن المراء يخل بالوقار، وملاحاة السفهاء ليست من دأب العقلاء.. هذا هو الظاهر — وهو المراد..

ولكن المقصود مع هذا هو وصفهم بتقوى الله وخوفه، والاطمئنان إلى عفوه، فيلتقى الخوف بتكبير الذنوب، مع الرجاء فى العفو والغفران.

والمعانى الثانية ملازمة للأولى، فكان المراد ابتداء هو اللازم والملزوم فى ذاته، ولكن السياق كان للثانى.

* من الإشارات الكنائية القليلة التى وردت فى سورة الأنفال:

١ — قول الحق سبحانه: (ويَقْطَعَ دَابِرَ الكَافِرِين)
من الآية الكريمة:

﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٧].

فقول عز وجل (ويقطع دابر الكافرين) كناية عن استئصالهم بالهلاك.

أى يريد الله أن يظهر الدين الحق، وهو الإسلام، بقتل الكفار وإهلاكهم فى بدر، ويقطع دابر الكافرين باستئصالهم وإهلاكهم جملة من أصلهم.

٣ — وقوله تعالى: (الخبيث من الطيب)

من الآية الكريمة:

﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٧].

كناية عن المؤمن والكافر

يقول تعالى فى الآية السابقة (والذين كفروا إلى جهنم يحشرون) أى والذين ماتوا على الكفر منهم يساقون إلى جهنم فأعظم بها حسرة وندامة لمن عاش منهم ومن هلك (ليميز الله الخبيث من الطيب) أى ليفرق الله بين جند الرحمن وجند الشيطان، ويفصل بين المؤمنين الأبرار، والكفرة الفجار الأشرار، والمراد بالخبيث والطيب الكافر والمؤمن.

وتأمل هذه الصورة: (ويجعل الخبيث بعضه على بعض) أى يجعل الكفار بعضهم فوق بعض. (فيركمه جميعا) أى يجعلهم كالركام متراكبا بعضهم فوق بعض لشدة الازدحام (فيجعله فى جهنم) أى فيقذف بهم فى نار جهنم (أولئك هم الخاسرون) الكاملون فى الخسران لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم.

ثالثا: علم البديع

البديع.. علم يبحث المعنى، من حيث تزيينه وتدبيجه، وإلباسه ثوبا من البهجة والبهاء، يسترق القلب، ويستأثر باللب، لذلك فأثر علم البديع عَرَضي بعد أن يكون الكلام مطابقاً لمقتضى الحال، واضح الدلالة على المراد.

* وبعبارة أخرى ـ علم البديع، من علمي المعاني والبيان، بمثابة الطلاء الرائع من البناء الفخم، أو بمنزلة القلادة الثمينة من جيد الحسناء، فإن لم يكن الكلام مطابقاً، ولا واضح الدلالة، كان البديع فاقد القيمة والأثر.

ولقد لمسنا بعض عناصر هذا الفن الجمالي بين ثنايا آيات سورة الأنفال..

١ ـ من مثل قوله تعالى:

﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الأنفال: ٦٥].

فانظر إلى فصاحة هذا الكلام، حيث أثبت في الشرطية الأولى قيد الصبر، وحذف نظيره من الثانية، وأثبت في الثانية قيد كونهم من الكفرة، وحذفه من الأولى.

ولما كان الصبر شديد الطلب أثبت في جملتي التخفيف، ثم ختمت الآية بقوله (والله مع الصابرين) مبالغة في شدة المطلوبية. وهذا النوع من البديع يسمى (الاحتباك). فلله در التنزيل ما أحلى فصاحته وأنضر بلاغته (١).. وفي هذه الآية وعد كريم من الله تعالى بغلبة كل جماعة من المؤمنين على عشرة أمثالهم (٢).

٣ ـ ومثل قوله تعالى:

---

(١) البحر المحيط ٥١٦/٤. (٢) تفسير أبي السعود ٢٤٧/٢.

فى الآية الكريمة :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] .

فإضافة (المكر) إليه تعالى على طريق «المشاكلة»(١) بمعنى إحباط مادبروا من كيد ومكر.

فقد سمى عقاب الله لهم (مكرا) ليشاكل مكر الكفار، زيادة فى روعتهم ومبالغة فى تعنيفهم . وأن الجزاء سيكون فى غاية الشدة ، وفيه أيضا مجاز مرسل لعلاقته السببية .

٣ ـــ وفى قوله تعالى :

﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [الأنفال : ٣٧] .

نجد بين لفظ الخبيث والطيب (طباقا) وهو من المحسنات اللفظية .

٤ ـــ وفى قوله تعالى : ﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ ﴾ [الأنفال : ٧] .

نجد بين يحق والحق جناساً وهو من جناس الاشتقاق .

---

(١) المشاكلة أن يتفق اللفظ ويختلف المعنى .

— ٢ —

الجوانب النفسية التى رفعت الروح المعنوية للمؤمنين يوم بدر

(مقدمة)

١ ـ النفس الإنسانية فى القرآن :

إذا اتجه القارىء للقرآن العظيم إلى دراسة النفس الإنسانية ، والعوامل المؤثرة فيها من خلال آياته ، فإنه بلا ريب سيجد مجالا فسيحا للدراسة ، ويجد مجموعة من المعلومات الحقيقية المصورة للنفس الإنسانية فى كل حالاتها ، وفى إيمانها وفى فجورها ، ويمكن أن يجد الإنسان فيها قواعد علمية ، تكشف عن نواميس النفوس ، وما تتأثر به ، وما تتجه إليه فى إيمانها ، وفى انحرافها . ولنضرب بعض الأمثال ، وكثير منها فى قصص القرآن .

* ففى كتاب الله نجد المعين الذى لا ينفد فى دراسة النفس الإنسانية ، من ذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٥٥] .

فهذه الآية الكريمة ، تبين لنا قاعدة فى النفس ، يسترشد بها المربى والمهذب ، والذى يحاول معالجة النفوس المضطربة ، إذ يعرف سبب الاضطراب ، فيعمل على تهدئته ، إذ يبين الحق سبحانه ، أن الذين أعرضوا

عن الوقوف يوم التقى الجمعان ــيوم بدرــ سبب توليهم أنهم أصابتهم ذنوب ، وإن الذنب يسهل الذنب ، والمخالفة تجر المخالفة ، وإنه لأجل الطب لهم ، لابد أن يعالج الذنب الأول بالحمل على الإقلاع عنه ، وقد يكون ظهور مغبته السيئة علاجا له ، ولذلك قال الحق سبحانه : (ولَقَدْ عَفَا عنهم) لأنهم أدركوا سوء ما كان لهم .

* ومن هذه الأمثلة ما قرره الحق ــعز شأنهــ من أن النفس البشرية لا تنضبط ، ولا تستقر على حال ، والنعمة تبطرها وتطغيها أحيانا ، والنعمة تؤيسها وتشقيها . ولا ضبط ولا انضباط ، ولا علاج لذلك إلا بالصبر.

اقرأ قول الله تعالى :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [هود : ٩ - ١١] .

فهذه الآية الكريمة تشير إلى أن ذلك الفرح الطاغي فى حاله ، واليأس المميت فى وقته مرض نفساني ، وإن علاجه الصبر، لأن الصبر ضبط النفس ، فلا تنزعج للألم .

* ومن الأمثلة لبيان الجوانب النفسية ، بيان أحوال النفوس التى لا تفكر إلاّ فى دائرة نفعها أو ضررها ، ومن شأن هذه النفوس أن تكون أثرة متقلبة ، لا تذعن للحق بسهولة ، ولكن تذعن لنفعها وضررها ، اقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ١٢] .

فهذا تصوير للنفس الإنسانية فقعدت معانى الإيمان، وحرمت الخير، ولا تفكر فى محيطها، وهى بلا ريب غير الذين قال الله تعالى فيهم :

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩].

فهذه الآيات البينات فيها كشف عن الجوانب النفسية، وهى تدل على أمور نفسية، تصور مصادر الخير والشر، فالنفس المؤمنة تعرف الأمور على وجهها، وتدرك الحق وما أوجبه، وما يوصل إلى التقوى، والخوف من الله. والنفس التقية هى التى تمتلىء بذكر الله، وتستشعر خوفه دائما.

ولقد حرص القرآن دائما على النظر إلى الإنسان نظرة شاملة واعية، تعرف تكوينه، وتحدد مفهومه ومقوماته، نظر القرآن إلى الإنسان بجوهره الكامل فى أعماقه، من حيث هو إنسان، وخاطبه بكل الوسائل النفسية، وغير النفسية، ليصل إلى عقله وقلبه، لقد فهم القرآن النفس البشرية فهما عميقا دقيقا، وعاملها معاملة خاصة يهدف من ورائها إلى إعداد الإنسان المؤمن، المسلم المثالى، ولكى يصل إلى هذا الهدف الواضح السمات، أمسك بزمام النفس البشرية، فهو تارة يعدها ويمنيها، وأخرى يخوفها ويرهبها، وفيما بين الوعد والوعيد، يغرس بها كل البذور الصالحة، التى يقصد إلى غرسها فى قرارة النفس، ويرد الناس إلى خالقهم، ويصلهم به مباشرة، ولهذا قال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦].

وبذلك يكون القرآن قد استخدم كل مقومات علم النفس الإنسانى قبل أن يتحدد مفهومه فى عصرنا الحديث.

إن رَدَّ الإنسان إلى الخالق ، هو محور العقيدة الإسلامية ، وهو محور منهجها التربوى كله ، ومنه تتفرغ كل التشريعات والتوجيهات .

لذلك حرص القرآن –فى سورة الأنفال– على تسجيل ما يتصل بالجوانب النفسية للنبى –ﷺ– وللمؤمنين المجاهدين ، بالإضافة إلى ماسجله من أحكام الجهاد ، وتوزيع الأنفال ، وتصوير الوقائع القتالية ، لقد ذكر الكثير من الجوانب النفسية التى رفعت الروح المعنوية للمؤمنين يوم بدر ، قبل المعركة ، وفى أثنائها ، وبعد انتهائها .

ب – الجوانب النفسية التى رفعت الروح المعنوية

١ – قبل المعركة .
٢ – أثناء المعركة .
٣ – بعد المعركة .

١ – أما قبل المعركة ..

فقد غشاهم الله –جلت حكمته– بالنعاس ، لكى يشعروا بالهدوء النفسى والأمان ، ولتسرى فى نفوسهم الطمأنينة ، كما أنزل عليهم من السماء ماءً طهوراً ليطهرهم به . وفى ذلك يقول الله سبحانه :

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال : ١١]

(إِذْ يُغَشِّيكُم النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْه) أى يلقى عليكم النوم أمنا من عنده سبحانه وتعالى ، وهذه معجزة لرسول الله –ﷺ– حيث غشى الجميعَ النومُ فى وقت الخوف . وكأن ذلك كان للمؤمنين عند شدة البأس ، لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله .

(وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِنَ السَّمَاءِ مَاء) تعديد لنعمة أخرى، وذلك أنهم عدموا الماء فى غزوة بدر، فأنزل الله عليهم المطر حتى سالت الأدوية، وكان منهم مَنْ أصابته جنابة فتطهر بماء المطر (لِيُطَهِّرَكُم بِهِ) أى من الأحداث والجنابات (وَيُذْهِبَ عَنْكم رِجْزَ الشَّيْطَان) أى يدفع عنكم وسوسته وتخويفه إياكم من العطش.

• قال البيضاوى: روى أنهم نزلوا فى كثيب أعفر، تسوخ فيه الأقدام على غير ماء، وناموا فاحتلم أكثرهم، فوسوس إليهم الشيطان، وقال: كيف تُنصرون وقد غُلبتم على الماء، وأنتم تصلّون محدثين مجنبين، وتزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله؟ فأنزل الله المطر حتى ثبتت عليه الأقدام، وزالت الوسوسة (١).

(ولِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُم) أى يقويها بنصر الله (وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَام) أى يثبت بالمطر الأقدام حتى لا تسوخ فى الرمل.

• قال الطبرى: ثبت بالمطر أقدامهم لأنهم كانوا التقوا مع عدوهم على رملة ميثاء فلبّدهم المطر حتى صارت الأقدام عليها ثابتة لا تسوخ فيها (٢).

يقول الحق سبحانه مامعناه: واذكروا إذا ألقى الله عليكم النعاس حتى غشيكم، ولاشك أن النعاس كان سببا فى إزالة الخوف، ومن دلائل الأمن والطمأنينة والوثوق بالنصر. ولقد نزلوا فى بدر منزلا فيه كثيب (تل) أعفر تسوخ فيه الأقدام، وليس فيه ماء، وقد احتلم بعضهم ليلا، ولما أصبحوا ظمئوا وصلوا مجنبين محدثين، وكان المشركون على الماء، فوسوس لهم إبليس، وقال: لو كنتم على حق وفيكم نبى لما صليتم بجنابة، وبغير وضوء، ولما كنتم عطاشا وهم على الماء، فأنزل الله مطرا على المشركين وابلاً شديداً، وكان على المسلمين طلاً خفيفاً، طهرهم من الرجس والدنس

(١) تفسير البيضاوى ٢١٠. (٢) تفسير الطبرى ٤٢١/١٣.

والجنابة والحدث، وقضى على وسوسة الشيطان، وأصبحوا يطأون الرمل بسهولة فثبتت أقدامهم، وسكنت قلوبهم، وسبق رسول الله وأصحابه إلى الماء، فنزلوا عليه، وصنعوا الحياض، ثم غوروا ماعداها من المياه.

* ومن الجوانب النفسية الهامة، التى شاءها رب العزة ـ عظمت قدرته ـ قبل المعركة. تقليل المؤمنين فى أعين المشركين، وتقليل المشركين فى أعين المؤمنين.

ـ فأما تقليل المؤمنين فى أعين المشركين، فلكى يستهينوا بهم، ولا يأخذوا حذرهم ويعدّوا أنفسهم لهذا اللقاء.

ـ وأما تقليل المشركين فى أعين المؤمنين، فلكيلا يحدث لهم الجزع والخوف من لقاء أعدائهم، وفى ذلك يقول الله عز وجل:

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [الأنفال: ٤١ - ٤٤].

يذكّر الله ـ عز شأنه ـ رسوله الكريم ـ ﷺ ـ النعم العظيمة التى حباه بها ـ يوم بدر ـ وكان لها الأثر الفعال فى الانتصار على كفار قريش، وهذا يوجب الشكر لله والامتثال لكل أوامره.

ـ يقول الحق سبحانه ـ مامعناه ـ واذكروا يوم التقى الجمعان، إذ أنتم

بالعدوة القريبة من المدينة ، اخترتموها مكانا لكم ، مع أنها كانت رملية تسوخ فيها الأقدام ، ولا يسهل السير عليها ، والكفار فى العدوة البعيدة ، وكانت مكاناً صالحا للوقوف قريبا من الماء ، ومع ذلك فكان العير الذى يحمل التجارة والركب الذى يرأسه أبو سفيان فى أربعين من قريش ــ أسفل منكم ، ووراء ظهور المشركين ، حاميا لها ، وهم يدافعون عند دفاع المستميت .

ولاشك أن هذا كان عاملاً هاماً فى تقوية الروح المعنوية ، والحالة النفسية فيهم ــ كل ذلك ليتحقق للمسلمين النصر من عند الله وحده ، وأن الله هو الذى جعلهم يتغلبون على عدوهم ، مع قلة عَدَدهم ، فيزدادون إيماناً وشكراً وامتثالاً لأمر الله .

ولكن جمع الله بينكم على هذه الحال من غير ميعاد ، ليقضى الله أمراً كان مقدوراً فعله ، محتما وقوعه ، لأنه نصر لأوليائه ، وقهر لأعدائه ، ليهلك من هلك بعد ظهور تلك البينات الواضحات عن حجة وبينة ، فإن المقدمات الظاهرة لو تركت وحدها لأنتجت هزيمة المسلمين هزيمة ساحقة ، أما وقد ظهر أن الله على كل شىء قدير ، وأنه ولى الذين آمنوا ، وهو يتولى الصالحين ، وقد نصر المسلمين على عدوهم نصراً مؤزراً ، وتحقق قوله ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ ، فمن يهلك بعد ذلك يهلك عن بينة وحُجة ، ومن يحيا بعد ذلك يحيا عن بينة وحجة ، فليس الأمر يسير كالعادة والمألوف ، بل هذه معجزات قواطع دفعت الكفر ومحقت الشرك .

إن الحق سبحانه يذكر رسوله بيوم المعركة ، فيقول مامعناه :

واذكر يا محمد إذ يريك الله الكفار فى منامك قليلا بمعنى ضعفاء ، فتخبر أصحابك بذلك فتثبت قلوبهم ، ولو أراكهم على حساب الواقع لفشلتم

واختلفتم وتنازعتم فى أمر القتال ، ولكن الله سلّم من الفشل والنزاع ، حيث أخرجكم للعير ثم وعدكم الله إحدى الطائفتين. وقد فر العير فلم يبق إلا القتال ، وقد مَنَّ عليكم بنعمه حتى انتصرتم ، إنه عليم بذات الصدور، وهو أعلم بخلقه .

واذكر يا محمد ـ إذ يريكم الله الكفار ساعة القتال قلة فى أعينكم ، حتى تجرؤوا وتقوى روحكم المعنوية ، ويجعلكم قلة فى أعين الكفار فيغتروا ، ولا يعدوا العدة لكم ، ولا يحكموا الضربة الموجهة إليكم ـ هذا قبل القتال ، وأما فيه ـ فإنهم رأوا المسلمين مثلى عددهم ، لتفاجئهم الكثرة فيبهتوا ويتملكهم الفزع والجزع ، وتسوء حالهم المعنوية .

وصدق الله إذ يقول :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [آل عمران : ١٣]

كل ذلك ليقضى الله أمراً كان مفعولاً بلاشك ، وإلى الله ترجع الأمور كلها ، يصرفها كيف يشاء لاراد لأمره ، ولا معقب لحكمه سبحانه وتعالى .

٢ ـ أما أثناء المعركة :

فقد استجاب الله سبحانه وتعالى ـ لاستغاثتهم حين توجهوا إليه يطلبون منه المدد والعون ، وقبل الله دعاءهم ، وأمدهم بألف من الملائكة يتتابعون لتأييدهم ، والقتال فى صفوفهم لنصرتهم ، وفى ذلك قوله سبحانه :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾

[الأنفال : ٩] .

(إذ تستغيثون ربكم) أى اذكروا حين طلبتم من الله الغوث بالنصر على المشركين (فاستَجَابَ لَكُم أنّى ممدّكم بألف من الملائكة) أى استجاب الله الدعاء بأنى معينكم بألف من الملائكة (مُرْدِفِين) أى متتابعين يتبع بعضهم بعضا.. نزل جبريل بخمسمائة وقاتل بها فى يمين الجيش، ونزل ميكائيل بخمسمائة وقاتل بها فى يسار الجيش، ولم يثبت أن الملائكة قاتلت إلا فى وقعة بدر. وأما فى غيرها فكانت تنزل لتكثير عدد المسلمين ولا تقاتل (١).

روى أن رسول الله - ﷺ - نظر إلى المشركين وهم ألف، وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة وبضعة عشر، فاستقبل القبلة، ومدَّ يديه يدعو: اللهم أنجز لى ماوعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لم تعبد فى الأرض، فما زال كذلك حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأخذه أبو بكر فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال:

«يا نبى الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فنزلت هذه الآية.

(فاستجاب لكم انى ممدكم بألف من الملائكة)

أى استجاب الله الدعاء بأنى معينكم بألف من الملائكة متتابعين.

إن النصر فى الحروب إنما يرجع إلى أسباب حسية ومعنوية، إن تحققت جاء النصر من الله، والله سبحانه هو الموفق لسلوك أسباب النصر أو أسباب الهزيمة.

والنبى - ﷺ - يعلم ذلك، ويعلم أن لله سننا مع خلقه لا تتخلّف، وأن عنده آيات يؤيد بها رسله، ولكنه لما رأى ضعف المسلمين، وقلة عددهم

---

(١) حاشية الصاوى على الجلالين ١١٨/٢.

وتهيبهم من القتال، استغاث الله ليوفقه إلى سنن النصر، ويؤيده، فتقوى الروح المعنوية، فيتحقق النصر.

وقد استغاث الصحابة كما استغاث، فاستجاب الله الدعاء، وأمدهم بألف من أعيان الملائكة يردف بعضهم بعضا، حتى يتحقق قوله في سورة آل عمران.

﴿ بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٢٤].

وقوله: ﴿ بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

وما جعل الله ذلك المدد الالهى إلاّ بشرى بأن النصر لكم، وأن الله معكم ولتسكن قلوبكم، وتهدأ نفوسكم، ويهدأ روعكم فتلقون الأعداء ثابتين مطمئنين، واعلموا أن النصر من عند الله لا من غيره أبداً. إن الله لا يغالب، حكيم فى كل صنع.

* ومن العوامل النّفسية التى شجعت المسلمين يوم بدر ـ أثناء المعركة ـ أن الله سبحانه بعد أن أمدهم فى حربهم بالملائكة ـ أمرهم بتثبيت المؤمنين وتقويتهم، كما أمرهم بقذف الرعب فى قلوب أعدائهم، فأصبح الكفار لا يطيقون حربا.

وفى ذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال: ١٢].

(إذْ يُوحى ربُّكَ إلى المَلائِكَةِ أنّى معكُم) تذكير بنعمة أخرى، أى يوحى إلى الملائكة بأنى معكم بالعون والنصر (فثبتوا الَّذِينَ آمَنُوا) أى ثبتوا المؤمنين وقووا أنفسهم على أعدائهم (سأُلْقِى فى قلُوبِ الذين كَفَرُوا الرُّعب)

أى سأقذف فى قلوب الكافرين الخوف والفزع حتى ينهزموا (فاضربوا فوق الأعناق) أى اضربوهم على الأعناق، كقوله (فضرب الرقاب) وقيل المراد بالرءوس لأنها فوق الأعناق (واضربُوا منهُم كلَّ بَنان) أى اضربوهم على أطراف الأصابع.

قال فى التسهيل: وفائدة ذلك أن المقاتل إذا ضربت أصابعه تعطل عن القتال، فأمكن أسره وقتله (١).

يقول سبحانه ما معناه: واذكروا إذ يوحى ربك إلى الملائكة بالإلهام أنى معكم بالنصر والتأييد فثبتوا قلوب المؤمنين، وقووا عزائمهم، وذكروهم وعد الله ورسوله، وأنه لا يخلف الميعاد. وقد روى أن الملائكة كانت تسير بين الصفوف وتبشرهم بالنصر، إنا معكم سنلقى فى قلوب الكافرين الرعب. فاضربوا رءوسهم التى فوق الأعناق واقطعوها، وقطعوا أيديهم التى طالما عصت الله. ذلك النصر المؤزر للنبى وصحبه، وذلك الخذلان والهزيمة للمشركين بسبب أنهم عادوا الله ورسوله، وأصبحوا فى شق. والرسول فى شق، وهل تستوى الظلمات والنور؟.

٣ ــ أما بعد المعركة:

فقد أخذ الحق سبحانه يعدد نعمه عليهم، ويذكّرهم بها. تطييبا لأنفسهم، وتشجيعا على رفع الروح المعنوية لهم.

فذكرهم أولاً: بإيواء الله لهم، ونصره لهم، ورزقهم من الطيبات، بعد أن كانوا مستضعفين فى الأرض. وفى ذلك يقول الله سبحانه:

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٦].

(١) التسهيل ٢/٦٢.

أى أذكروا نعمة الله عليكم وقت أن كنتم قلّة أذلة يستضعفكم الكفار فى أرض مكة فيفتنونكم عن دينكم ، وينالونكم بالأذى والمكروه ، (تَخَافُونَ أن يَتَخَطّفكُم الناس) أى تخافون المشركين أن يختطفوكم بالقتل والسلب . (فآواكم) أى جعل لكم مأوى تتحصنون به من أعدائكم وهو المدينة المنورة (وأيدكم بنصره) أى أعانكم وقواكم يوم بدر بنصره المؤزر حتى هزمتموهم (وَرَزَقَكُم مِنَ الطَّيِّبات) أى منحكم غنائمهم حلالا طيبا . ولم تكن تحل لأحد من قبل (لعلكم تشكرون) أى لتشكروا الله على هذه النعم الجليلة .

والغرض.. التذكير بالنعمة فإنهم كانوا قبل ظهور الرسول - ﷺ - فى غاية القلة والذلة ، وبعد ظهوره صاروا فى غاية العزة والرفعة ، فعليهم أن يطيعوا الله ويشكروه على هذه النعمة .

* وفى الآية عبرة وعظة ، فالله سبحانه يعامل أولياءه وأحبابه من المؤمنين إذا امتثلوا أمره بهذا - أى يؤويهم ويؤيدهم وينصرهم على أعدائه ، ويجعلهم أعزة ، ويرزقهم من طيبات الرزق ، كل ذلك رجاء قيامهم بالشكر ، فإن شكروا زادهم الله ، وإن لم يشكروا ولم يمتثلوا .. أصبحوا أذلة فى ديارهم ، مستعبدين فى أوطانهم ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

* ومن العوامل النفسية المشجعة ، التى مَنّ الله بها على المسلمين ، أنه سمح لهم بالتمتع بالغنائم حلالا طيبا . وفى ذلك يقول الله عز شأنه :

﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٩] .

أى لولا حكم فى الأزل من الله سابق ، وهو ألا يعذب المخطىء فى

اجتهاده (لمسَّكم فيما أخذتم عذاب عظيم) أى لأصابكم فى أخذ الفداء من الأسرى عذاب عظيم، روى أنها لما نزلت قال النبى ـ ﷺ :

«لو نزل العذاب لما نجا منه غير عمر».

(فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا) أى كلوا يا معشر المجاهدين مما أصبتموه من أعدائكم من الغنائم فى الحرب حال كونه (حلالا) أى محللا لكم (طيبا) أى من أطيب المكاسب لأنه ثمرة جهادكم. وفى الصحيح ـ «وجعل رزقى تحت ظل رمحى».

يقول تعالى ـ ما معناه: لولا كتاب من الله سبق وحكم قضاه فى اللوح المحفوظ، أن المخطىء لا يعاقب على خطئه، لولا هذا لأصابكم بسبب ما أخذتم من الفداء عذاب عظيم وقعه، شديد هوله، وفى هذا تهويل لخطر مافعلوا.

وقد أبحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا، واتقوا الله، وامتثلوا أمره ونهيه، إن الله غفور رحيم يقبل التوبة، ويعفو عن السيئة.

* ومن العوامل النفسية الهامة ـ أن الله أَعْلَمهم أنه كافيهم أبداً، فلن يحتاجوا معه إلى أحد. وفى ذلك يقول سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٤].

أى الله وحده كافيك وكافى أتباعك، فلا تحتاجون معه إلى أحد.

قال الحسن البصرى: المعنى: حسبك ـ أى كافيك اللهُ والمؤمنين.

والقول الأول معناه: حسبك الله وحده، وحسب أتباعك، وقد اختاره الزمخشرى ونصره ابن القيم فى مقدمة زاد المعاد بأدلة مقنعة.

يقول المولى عز وجل: يأيهـا النبى حسبك الله وكافيك فى جميع أمورك أنت والمؤمنين بك، فكونوا أقوياء العزم، ثابتى الجنان، فإن الله معكم بالنصر والمعونة. ولاشك أن هذا يقوى الروح المعنوية فى جيوش المسلمين.

* ومن العوامل النفسية المشجعة للمؤمنين ـ بعد المعركة ـ وصف الله لهم بكمال الإيمان، والتحقق فى مراتب الإحسان، وعِدتهم بالمغفرة والرزق الكريم.

وفى ذلك يقول الله سبحانه:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٧٤].

وهم المهاجرون أصحاب السبق إلى الإسلام (والذين آوَوْا ونصروا) وهم الأنصار أصحاب الإيواء والإيثار (أولئك هم المؤمنون حقا) أى أولئك هم الكاملون فى الإيمان، المتحققون فى مراتب الإحسان (لهم مغفرة ورزق كريم) أى لهم مغفرة لذنوبهم، ورزق كريم فى جنات النعيم.

قال المفسرون: ليس فى هذه الآيات تكرار، فالآيات السابقة تضمنت الولاء والنصرة بين المؤمنين، وهذه تضمنت الثناء والتشريف، ومآل حال أولئك الأبرار من المغفرة والرزق الكريم فى دار النعيم.

يقول الحق سبحانه: ـ مامعناه ـ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله، والذين آووا الرسول وعزروه ونصروه، وهم المهاجرون والأنصار، أولئك هم المؤمنون حقا، فالهجرة والنصرة دليل على صدق الإيمان، وكمال الإسلام، ولهم مغفرة من الله ورضوان، ولهم رزق فى الدنيا والآخرة كريم، أى حسن وكبير. هؤلاء هم السابقون المقربون، ومن أتى بعدهم فهذا حالهم والذين آمنوا من بعد ذلك.

خاتمة البحث وأهم نتائجه

وبعد.. فهذه دراسة لسورة مدنية من سور القرآن الكريم، درسناها دراسة تحليلية فنية، وبطريقة جديدة مغايرة، ليس تفسير آياتها هدفا فى ذاته، بقدر ما قصدنا إليه من إبراز الجوانب التاريخية والنفسية والبلاغية الدقيقة فى آياتها، مع التركيز على دراسة مايتصل بأدب الحرب والسلم، ومايتصل بذلك من أحكام تشريعية حددها القرآن.

لقد كانت سورة الأنفال أول سورة قرآنية تنزل لتسجل أحداث ماقبل غزوة بدر، ثم أحداث بدر، ومابعد بدر لتكون ذكرى لجهاد المسلمين المؤمنين الصابرين، ونبراسا ومنهجا يسيرون على هديه.

إن هذه السورة الكريمة لتسجّل أن أدب الحرب والسلم إنما تقرر ووضح بعد معركة بدر الكبرى، التى كانت نتيجة تربية دامت خمس عشرة سنة، جعلت المسلمين شخصا واحداً، عقيدة وهدفا وأخلاقاً وسلوكاً وتربية.

سبعون آية فى كتاب الله المجيد، نزلت قبل بدر، تنهى رسول الله ـ ﷺ ـ والمسلمين عن القتال، لأنه كان مايزال فى مرحلة التربية والتزكية للفرد المسلم، ولأنه لو قاتل وهو فى مكة، لقاتل فى وقت غير مناسب، ولأظهرته قريش على أنه أحد أفرادها. وهى فى قضائها عليه فى موقف التأديب ولمّ الشمل ووحدة القبيلة والعشيرة، وكأن الأمر أمر داخلى ضمن الأسرة الواحدة، ولو أنه يمس جوهر العقيدة بينها وثنية وشركا، وبينه

توحيداً مطلقا، فليس المقصود الحرب فى ذاتها، بل المقصود تحقيق النصر وبأقل خسائر(١). فبعد شطط قريش فى عداوتها :

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭ ﴾ [النحل : ١٠١].

﴿ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال : ٣١].

﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞ ﴾ [النحل : ١٠٣].

﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠].

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ * ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ ﴾ [الحج : ٣٩، ٤٠].

كانت معركة بدر، ونزول سورة الأنفال بعد هذا الشطط، وهذه العداوة، ولكن بعد أن هيأ رسول الله ـ ﷺ ـ الفرد المسلم، فجعل فى القلب الله وحده، وأخرج منه كل ماسوى الله، فنضجت القلوب وتطهرت، وملئت بنور الله، ـ عز وجل ـ وبأحكام شريعته، فلو كانوا ملايين فى عددهم، هى شخص واحد عقيدة وهدفا، فكان فوز بدر ثمرة تربية وتزكية رسول الله ـ ﷺ ـ المستمدة من كتاب الله. قال لهم :

وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ [الأنفال : ١].

● ـ فأطاعوا الله ورسوله ...

﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ ﴾ . [الأنفال : ٤٦].

(١) شوقى خليل : بدر الكبرى ص١٤٦ ط دار الفكر سنة ١٩٨٢ .

رحما، كلّم صاحبك أن يجعلنى كرجل من أصحابه، فهو والله قاتلى إن لم تفعل. فكان جواب مصعب: إنك كنت تقول فى كتاب الله، وفى نبيّه كذا وكذا، وكنت تعذب أصحابه، قال النضر: لو أَسَرَتْك قريش ما قتلك أحد أبداً وأنا حىّ، قال مصعب: والله إنى لا أراك صادقا، ثم إنى لست مثلك فقد قطع الاسلام العهود.

وكان النضر أسير المقداد، وكان يطمع أن ينال فى افتداء أهله إياه مالاً كثيراً، فلما رأى الحديث حول قتله، صاح: النضر أسيرى، قال – ﷺ –: اضرب عنقه، واللهم أغن المقداد من فضلك، فقتله على بن أبى طالب ضربا بالسيف.

هذا وقد تناقلت كتب التاريخ والسير مرثية لأخت النضر أو ابنته، على خلاف فى ذلك، واسمها قتيلة، تخاطب فيها رسول الله – ﷺ – بأسلوب شعرى مؤثر، يستدر العطف والرحمة، حتى روى أن رسول الله – ﷺ – حين سمعها بعد مقتل النضر بكى، وقال: لو بلغنى هذا الشعر قبل مقتله لمننت عليه – تقول فيها (١):

يا راكباً إن الأثَيْلَ مظنة ... من صبح خامسة وأنت موفّقُ
أبلغْ بها ميتا بأن تحية ... ما إنْ تزال بها النجائبُ تخفقُ
منىّ إليك وعبرة مسفوحة ... جادت بوابلها وأخرى تخنقُ
هل يسمعنّ النضْر إن ناديته ... أم كيف يسْمَعُ ميتٌ لا ينطقُ؟
أمحمد يا خير ضنْء كريمة ... من قومها والفحل فحل معرق
ماضَرَّكَ لو مَنَنْتَ وربما ... من الفتى وهو المغيظ المحنقُ
أو كنت قابل فدية فلينفقن ... بأعزّ ما يغلو به ماينفقُ
والنضر أقرب من أسرت قرابة ... وأحقهم إن كان عتق يُعْتَقُ

(١) عيون الأثر ج١ ص٢٩٢.

ظلت سُيُوف بنى أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تشقق
صبراً يقاد إلى المنية متعبا ... رسف المقيد وهو عان موثق

* أما عقبة بن أبى معيط، فقد أمر رسول الله ـ ﷺ ـ بقتله، عندما كان بعرق الظبية، فى طريقه إلى المدينة أيضاً.

نقل ابن كثير عن ابن اسحاق، قال: قال عُقبة حين أمر رسول الله ـ ﷺ ـ بقتله: فمن للصبية يا محمد؟ قال: النار، ولما قدم للقتل قال: يا معشر قريش.. عَلامَ أُقتل من بين من ههنا، قال له عاصم بن ثابت، وهو الذى تولى قتله، على عداوتك لله ورسوله. وكان عُقبة من أشد المشركين عداء لرسول الله، ومن المستهزئين به ـ كما ذكرنا..

ونقل أيضا فى مقتله، أنه قال للرسول ـ ﷺ: أتقتلنى يا محمد من بين قريش، قال: نعم، أتدرون ماصنع بى هذا، جاء وأنا ساجد خلف المقام، فوضع رجله على عنقى، وغمزها فما رفعها حتى ظننت أن عينى ستندران (أى تخرجان).

وجاء مرة أخرى بَسلاَ شاة فألقاه على رأسى وأنا ساجد، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسى.

* أما القسم الثالث من الأسرى، فقد مَن عليه رسول الله ـ ﷺ ـ وأطلق سراحه دون أخذ فداء، وذلك لظروف وملابسات خاصة، وفى طليعة هذا القسم أبو العاص بن الربيع زوج زينب ابنة رسول الله، وكان من أمره أن قريشا عندما بعثت بفداء أسراها، بعثت زينب فى فداء أبى العاص بقلادة لها، كانت خديجة رضى الله عنها ـ قد أدخلتها بها على أبى العاص، فلما رأى رسول الله ـ ﷺ ـ القلادة عرفها، ورَقّ لها رقة شديدة، وقال

● ــ فحولوا معانى الآية إلى أعمال وواقع ..

﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأنفال : ٤٥] .

● ــ فثبتوا وذكروا الله كثيراً .

انتصار بدر الذى احتفلت به وسجلته سورة الأنفال ، كان ثمرة بناء الإسلام فى قلب وروح وفكر المسلم ، بناء عقل وحكمة ، وفكر ومنهج ، وذكر وإبانة ، وصدق وإخلاص ، وعمل وتفان . لقد خاض المسلمون بدراً بعد أن ملأ رسول الله ــ ﷺ ــ قلوبهم بنور العشق الإلهى ، فتوقدت فيهم الأشواق إلى الشهادة ، إلى رحلة العروج إلى الله ، فجاءت النتائج نصراً ومجداً ، وأن القليل مع الإسلام ينتصر على الكثير الفاقد للاسلام .

انتصار بدر ثمرة صبر طويل ، وجهاد دؤوب ..

● ــ التراب على الرأس .. ولا تراجع .
● ــ حجارة سفهاء ثقيف فى الطائف .. ولا تراجع .
● ــ مقاطعة شعب أبى طالب حتى أكلوا الشوك وورق الشجر .. ولا تراجع .

● ــ تعذيب فى رمضاء مكة .. وتهجير إلى الحبشة .. ولا تراجع .

فانتصار بدر كان نتيجة عمل شاق ، وجهد مستمر ، لا حادث عفوى ، ولو أن الله ــ عز وجل ــ أنزل مَدده . فنزول الملائكة نتيجة صبر على الطاعة ، ونتيجة تفان فى خدمة الإسلام ، ونتيجة صلة بالله حقيقة ، ونتيجة نصر جانب الله على جانب الشهوات ، فاتصلت قوة المؤمنين بقوة الله .

وانتصار بدر يعنى انتصار التوحيد على الشرك ، وانتصار التاريخ المجيد على

تاريخ الوثنية والضياع والنسيان، وانتصار بدر يعنى انتصار وحدة العرب وإخائهم، وانتصار حركة الفكر..

انتصار بدر يعنى فوز الإيمان الصادق، مع فوز صدق العزيمة، فكانت المقدمات سليمة. صحيحة، والنضوج كاملا، فمن يستطيع أن يمنع النتيجة الرائعة إذا هيئت المقدمات زمانا ومكانا ورجالا؟

● ومن يحول دون الغاية المرجوة إذا صدقت العزيمة باكتمال التربية والإيمان؟

● ومن يحول دون العزة والرفعة إذا وجد القائد المثالى، الذى سيطر على ما يحيط به من أحداث، وما سلبته الأحداث سيطرته وتوازنه لحظة واحدة، فبقيت ثقة رجاله به ثابتة كاملة، وبالتالى امتلك مقومات القيادة.

لقد تعامل رسول الله ـ ﷺ ـ مع مادة خام هى الرجال، فكسب ثقتهم، ورفع من روحهم المعنوية، وبالتالى المقدرة القتالية إلى قمها الشمّ.

إن القيادة فن وعلم، وأظهر رسول الله ـ ﷺ ـ الفن والعلم ببراعة فى التطبيق العملى، وما نظام الصف الذى فوجئت به قريش يوم بدر إلاّ جزء من عبقريته العسكرية.

وكان رسول الله ـ ﷺ ـ عظيما فى علم النفس، فحفظ معنويات جنده فى الأوج، قبل المعركة، وأثناءَها وبعدها..

أمام هذه المعنويات، وهذه الروح، لم تعد الأعداد ذات جدوى فى مواجهة الإيمان والثبات والعقيدة، فتحطم غرور قريش، وتحطمت كرامتها على صخرة العقيدة والنظام والروح المعنوية العالية.

لقد ذكرنا فى صدر البحث أن سورة الأنفال لايمكن دراستها من فراغ، فلابد من دراسة تمهيدية، للوصول إلى الأسباب الجوهرية التى أدت إلى

نزولها بهذه الكيفية ، بكل عناصرها وجوانبها التاريخية والتشريعية والنفسية ، وبكل مشتملاتها التى تتصل بأحكام الأنفال ، وكيفية توزيعها .

ولقد قلنا فى مقدمة البحث أيضا ، إن طبيعته أدت إلى تقسيمه إلى تسعة فصول ، كل منها يتصل بسابقة ولاحقه ويكمّله .

فى الفصل الأول ، درسنا « الدعوة الإسلامية فى مواجهة الشرك » .

فذكرنا أن القرآن الكريم ، منذ بعثته ، ـ ﷺ ـ أخذ يعرف بالرسول والرسالة ، وكان هذا التعريف مرتبطا بأمور ، منها نوعية القوم الذين يتحدث إليهم القرآن ، ومنها موقفهم من دعوته ، ومبلغ تصديقهم أو تكذيبهم برسالته ، ومنها مبلغ مايذيعونه ويفترونه لتشويه وجه دعوته ، وإثارة الشكوك حولها فى نفوس الناس . لذلك توخى القرآن التعريف بالرسول ـ ﷺ ـ لهدف عظيم ، وهو إثبات صدق نبوته ، وتأكيد صحة دعوته ، وإظهار الحجة والبينة على ذلك .

● فتارة يقرب القرآن الرسول من المخاطبين من قومه ، وتارة يقدم صورة واضحة عن مهمته ، وتارة يربط بينه وبين رسالته ، التى حمّلها له الحق سبحانه ، والتى مضمونها تنوير القلوب ، وتربية النفوس ، وتوضيح أن المؤمنين به يعبدون الله وحده ، لا يشركون به شيئاً .

● ولقد أوضحنا أن هذه الصورة ، التى حددها القرآن لشخصية رسول الله ـ ﷺ ـ كانت تزداد وضوحا فى الصراع الذى صوره القرآن بينه وبين الكافرين ، هذا الصراع الذى كان جوهره التشكيك ، إما بالكذب ، أو بمحاولة التعجيز ، أو التنكر لإنسانيته ، تمهيداً للتنكر لرسالته . كما صورت ما ذهب إليه المشركون من محاولة فرض اختيارهم على الله ، حتى أنهم كانوا ليتساءلون .. لماذا لم ينزل القرآن على رجل عظيم ؟ .

• ولقد تتبعت حركة التشكيك والجدال، التى قامت حول الرسول ـ ﷺ ـ حينما كانوا يريدون أن يخرجوه عن طبيعته البشرية، ويطالبوه بأمور هي فوق طاقته الإنسانية، وسجلت مافضحهم به القرآن ليؤكد بشرية الرسول ـ ﷺ ـ.

• وتتبعت أيضا ماجاء فى القرآن عن رسالته، مضمونها ومشمولها، هدفها ومرادها .. استناداً إلى الدستور الالهى. فالرسالة روح من أمر الله، ووحى من السماء، ونور وهداية، وتوجيه لهداية الناس، وضعها الحق ـ سبحانه ـ فى كتاب يقرأ، يحمله رسول الله، ويقرأه على الناس.

ويزيد القرآن فى تحديد معنى الرسالة، فينفى عن الرسول أن يكون شاعراً، أو كاهنا، أو ساحراً، ويبرهن على أن الرسالة دعوة للناس كافة.

ويزيد القرآن فى توضيح جوانب كثيرة من طبيعة الرسالة، ويقرن بين التعريف بالرسول والتعريف برسالته، حتى يمزج بينهما تماما، فصورة الرسول هى نفسها صورة الرسالة، والرسول لا ينفك عن الرسالة، والرسالة لا تنفصم عن الرسول .. إذا تحدث القرآن عن الرسول قرن إلى صورته تعاليم رسالته.

* ومن هنا قلنا: إن الرسول والرسالة عنصران مترابطان متلازمان، الرسول جزء من الرسالة، والرسالة مرآة تعكس صورة الرسول، وتصور المنهج الإلهى، الذى وضعه الله لرسوله، لكى يخاطب البشر، ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد.

* ثم سجلت اهتمام القرآن بالكافرين، ومناقشتهم ومجادلتهم فى الكثير من الآيات، خاصة وأن الكافرين كانوا يواجهون الدعوة فى وضوح .. بالإنكار أو المحاجة أو العنف.

لذلك تتبع القرآن الكفر فى مختلف إحساسات وتصرفات الكافرين، وورد

عليهم ، وسفّه آراءهم ، وأبطل زيف إدعاءاتهم عن الرسالة ، وعن الرسول ، وعن إنكار البعث ، أو التقليل من شأن القرآن .

وأوضحت أن الدعوة الإسلامية ، لم تكن تواجه الكافرين فحسب ، بل كانت تواجه نماذج كثيرة من أهل الكتاب والمشركين والمنافقين. ولقد عشت مع القرآن فى تتبعه لكل هذه النماذج ليسكت قولتهم ، وليكبح جماحهم ، وليرد عليهم ، ويبطل حججهم ، اتباعا للمنهج الذى استنّه وهو أن الدعوة لا تثبت إلا بعد الإقناع بالحجة والمجادلة .

ـ ثم تتبعت أهل الكتاب ، هؤلاء الذين كفروا بمحمد وبرسالته ، مع أنه مذكور عندهم فى التوراة والإنجيل ، وأن كتبهم السماوية قد بشرت به ، لذلك اتجه القرآن إلى أقوى الأدلة ، ليؤكد خطأهم حين يعارضون ويتحدون وجود رسول الله ـ ﷺ .

ـ ولقد تتبعت ماجاء فى التوراة والانجيل من تبشير بقرب بعث النبى محمد ـ ﷺ ـ لأصل فى النهاية إلى أن تنكرهم للرسول ـ ﷺ ـ أبعدهم عن الحق والصواب .

وكان لابد من التفريق بين الكفر والشرك ، فأوضحت أن الشرك ربما كان أصل الكفر ، ولعل طبيعة الشرك تزيد عن طبيعة الكفر من جهة ، وتقل عنها من جهة أخرى : تزيد عن الكفر لأن المشرك لا يكتفى بالكفر بالله ، رغم الحجج والدلائل التى تقوم لديه عن وجود الله ، بل يشرك بالله غيره ، أو يعبد غير الله ، وفى ذهنه فكرة مشوهة عن الله ، انفتحت أمامه إذن طريق الهداية ، ولكنه مع ذلك اختار الضلال ، حينما اختار أن يشرك مع الله غيره ، فهو إذن كافر وزيادة .

وتقلّ عن الكفر لأن فى ضميره بعض الإيمان بالله ، نعم ، ولكن الهداية لم تكتمل مادام يشرك مع الله غيره ، وربما لم يكن يعبد هذا الغير ليقرّبه إلى الله .

ـ وأوضحت أن الشرك ـ كما قرر القرآن ـ من طبيعة البشر، الذى يحاولون الاهتداء إلى مصدر القوة الغيبية ، فلا يكادون يهتدون بالعقل ـ إلاّ القِلّة الذين رجحت عقولهم ، فاتبعوا طريق الهداية . ومن هنا كان الشرك مشكلة كل الأنبياء ، فما جاء نبى إلا واصطدم بمشكلة الشرك والمشركين .

* وكان من المهم أن نجيب على السؤال الهام : هل للشرك طابع خاص ، أم هو الكفر الذى حدَّث القرآن عنه طويلا ؟

فقلت : إن الذى يظهر من تتبع الآيات ، أن الكفر يعطى المعنى العام لعدم الإيمان بالله ، فإذا كان يعنى أحيانا انعدام الإيمان مطلقا فهو كفر بالمعنى العام ، وإذا كان يعنى الكفر برسالة محمد ـ ﷺ ـ مع الإيمان برسالة موسى أو عيسى ـ رغم التحريف فى العقيدة ـ فيسميهم القرآن أهل الكتاب ، وربما كان بعضهم موحداً إذا احتفظ بأصل العقيدة ، أى بالتوحيد ، وربما كان مشركا إذ قال : إن عزيراً ابن الله ، أو قال : إن المسيح ابن الله .

* ثم انتقلنا إلى الحديث عن أعباء الدعوة ، وقلنا إن الرسول ـ ﷺ ـ فهم أن الدين الذى أرسله به الله دين دعوة ، وقد كان القرآن الكريم يؤكد على هذه النقطة بالذات فى كثير من آيات الكتاب المجيد . ثم بيّنا أن النبى ـ ﷺ ـ كان يوقن أن دعوته تندرج تحت أنواع من التكامل .. التكامل التاريخى ، والتكامل المكانى والإنسانى ، والتكامل الموضوعى .

وأوضحت هذه العناصر ، ودللت عليها بشواهد من القرآن والسنة والسيرة العطرة . كما أوضحت أن الرسول ـ ﷺ ـ سلك المنهج الملائم ، والأسلوب الأمثل ، فى هداية قومه ، وتحلّى بالحكمة والخلق ، والشجاعة ، والصمود ، والصبر الجميل فى علاج النفوس البشرية ، وإصلاح المجتمع .

● ولقد أوضحت كذلك أن دعوته ـ ﷺ ـ كانت تلتقى عند الإلتزام

الفكرى والسلوكى رغم المساومات والتهديدات، والإيجابية، فلم يكن ليهدأ حتى يظفر بالنتيجة التى يريدها ولو أوذى فى سبيل ذلك أشد الإيذاء.

إن الدعوة الإسلامية لم تكن مرتبطة بزمان أو مكان أو لغة أو جنس. ولما كان مجالها واسعاً، فإن الرسول - ﷺ - كان يجابه فى دعوته أنماطا من الناس: الرجعية التى تتعصب لكل قديم دون فهم، الوجودية، التى تهزل فى نظرتها إلى الأمور، والفساد الاقتصادى، والفساد الخلقى، والفوضى الفكرية والعقائدية.

* وفى الفصل الثانى: «القرآن فى مواكبة الدعوة سرًّا وجهراً».

تحدثت عن امتثال الرسول - ﷺ - لأمر ربه، وقيامه بدعوة أقوام جفاة، لا دين لهم إلا أن يسجدوا لأصنام لا تنفع ولا تضر، ولاحجة لهم إلا أنهم متبعون لما وجدوا عليه آباءهم.. فجاءهم رسول الله بما لا يعرفونه.. فذوو العقول السليمة بادروا إلى التصديق، وخلع الأوثان، ومن أعمته الرياسة أدبر واستكبر كيلا تسلب منه عظمته.

ولقد أجابه سرًّا مجموعة ممن أنار الله بصائرهم، ودخلوا فى دين الله اقتناعا بما ذكره الرسول الكريم - ﷺ - وكانوا من السابقين الأولين.

ومضت ثلاث سنوات من النبوة، والنبى لايظهر دعوته، ولا يجهر بها فى مجامع قريش، ولم يكن المسلمون يتمكنون من إظهار عبادتهم حذراً من انتقام قريش، فكان كل من أراد العبادة يذهب إلى شعاب مكة، يصلى مستخفيا.

ولما دخل فى الإسلام مايربو على الثلاثين، وكان من اللازم اجتماع الرسول بهم لإرشادهم وتعليمهم، اختار لذلك دار الأرقم بن الأرقم، وظل يدعو إلى الإسلام سرًّا حتى جاءه الأمر بالجهر بالدعوة، فجمع أهل عشيرته،

وأبلغهم بأمر الله، ودعاهم إلى عبادة الله وحده، فدخل فى دينه من اهتدى، وعزف عنه من ضل من المشركين.

* ثم انتقل الرسول - ﷺ - إلى مرحلة أعلى من مراحل دعوته، وهى مرحلة تحقير أصنامهم، وتسفيه عقولهم، فثارت فى رءوسهم حمية الجاهلية، فذهبوا إلى عمه أبى طالب، سيد بنى هاشم، الذى أخذ على عاتقه حمايته من أيدى أعدائه..

وقد نزل القرآن الكريم يؤازر النبى - ﷺ - ويؤيده، ويحكى كل مايتصل بدعوته. فلما تمسكوا بحجة التقليد لآبائهم، جرّ ذلك إلى وصف آبائهم بعدم العقل والدراية، فهاج ذلك أضغانهم، وتحوّلوا إلى مرحلة الإيذاء العملى، بعد أن كان إيذاؤهم منحصراً فى الإيذاء القولى.

ولقد أوضحت مدى تحمل الرسول - ﷺ - وصحبه لإيذاء المشركين، وكيف أن القرآن الكريم، كان ينزل للتخفيف عنه، وكان يقص عليه قصص الأنبياء السابقين، ومدى ما تحملوه فى سبيل دعوتهم، فكان هذا عاملاً من عوامل الصبر على تحمل أعباء الدعوة.

ثم كان اجتماع كفار قريش للشورى، وانتهى بهم الأمر إلى إرسال عتبة بن ربيعة، فلما قابل الرسول - ﷺ - واستمع إلى القرآن، رجع إليهم.. فلما سألوه قال مقالته الشهيرة:

«يا معشر قريش: أطيعونى، فاجعلوها لى.. خلّوا بين الرجل وبين ماهو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لكلامه الذى سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فعزّه عِزّكم، فقالوا: لقد سحرك محمد.

ولقد سجل القرآن الكريم هذا اللقاء، وما دار فيه، وتتبع حركة الدعوة في كل اتجاهاتها مؤيداً لرسول الله بالحجة والقول الصادق.

ولما رأى المشركون ضعفهم عن مقاومة دعوة الرسول - ﷺ - تحولوا إلى سياسة القوة التي اختارها قوم ابراهيم - عليه السلام - عندما عجزوا عنه.. بل وازدادوا بالأذى على كل من أسلم، رجاء صدهم عن اتباع رسول الله، ولم يتركوا باباً إلا ولجوه، فقال - ﷺ - لأصحابه:

«تفرقوا في الأرض. فإن الله سيجمعكم، فسألوه عن الوجه، فأشار إلى الحبشة. فهاجر المسلمون إليها، بيد أنهم رجعوا إلى مكة بعد ثلاثة أشهر، حيث لم يتيسر لهم الإقامة في الحبشة لأنهم قليلو العدد.

ولقد أوضحت كذب ادعاء بعض المؤرخين، الذين حكموا حكاية وجعلوها سببا في رجوع مهاجري الحبشة، وهي أنه بلغهم إسلام قومهم حينما قرأ عليهم الرسول آية من سورة النجم، وتكلم فيها كلاماً حسنا عن آلهتهم، والحقيقة التي أثبتُّها أن قصة الغرانيق هذه موضوعة، وغير ثابتة من جهة النقل، وهي مما لاتجوز روايته.

ولقد أوضحت أن هجرة الحبشة هذه، كانت سببا في إسلام نجاشي الحبشة، وإرساله رسالة إلى رسول الله - ﷺ - يعلن فيها ولاءه وإيمانه بدعوته.

ثم حدث تحول خطير في سير الدعوة، وتحول كبير في الصراع، أقض مضجع مشركي مكة، وجعلهم يغيرون من نظرتهم إلى المشكلة، وهذا التطور هو نجاح النبي - ﷺ - في الخروج بدعوته من نطاق مكة، والاتصال بأهل يثرب، واقناع الكثير منهم باعتناق الإسلام، ثم إقامة حلف عسكري بينه وبينهم، يمنعونه بموجبه كما يمنعون أنفسهم ونساءهم وأولادهم..

فلما كان العام التالى قدموا عليه وقد ازداد عددهم ، فكانت بيعة العقبة الأولى. ولم يأت ذكر فى هذه البيعة للناحية العسكرية ، لأن هذه البيعة تمت قبل أن يأذن الله لنبيه بالقتال .

* وفى العام التالى للبيعة الأولى ــ أى سنة ٢ قبل الهجرة النبوية ــ حضر لأداء مناسك الحج من أهل يثرب ثلاثة وسبعون رجلا وامرتان ، وبمجرد وصولهم إلى مكة ، جرت الاتصالات بينهم وبين الرسول ــ ﷺ ــ واتفقوا على اللقاء فى الشعب من منى. وفى هذا الاجتماع حدث قيام التحالف العسكرى بين النبى ــ ﷺ ــ وأهل يثرب ، مما أدى إلى قلق قريش ، فقد تجسد أمامهم الخطر الحقيقى الكبير. فكان أن عقدوا مؤتمر دار الندوة ، الذى قرروا فيه التخلص من محمد ــ ﷺ ــ بعد أن عرفوا أن مواكب المسلمين بدأت السير إلى يثرب .

وهنا بلغ الإذن للرسول ــ ﷺ ــ بالهجرة إلى يثرب .. فلما هاجر إليها نورت بمقدمه ، وسميت بالمدينة المنورة .

وقد سجل القرآن الكريم فى آياته .. كل هذه المراحل .

وفى الفصل التالث .. « دولة الإسلام فى المدينة المنورة »

ــ أوضحت أن الاسلام أحدث انقلابا جذريا فى حياة المجتمع المدنى كله ، بحيث تغير سلوك الأفراد اليومى ، وعاداتهم المتأصلة تغيراً كليا ، كما تغيرت مقاييسهم وأحكامهم ، ونظرتهم إلى الكون والحياة والإنسان ، وكذلك تغيرت بنية المجتمع بصورة واضحة ، فاختفت مظاهر وصور ، وبرزت معالم وظواهر جديدة ، وقد كان ذلك أوضح مايكون فيما يتصل بالعبادات .

ــ وأوضحت أيضاً أن الهجرة كانت حدثا عظيما ، ودليلا على الاخلاص والتفانى فى سبيل العقيدة ، لأنها اقترنت بظروف صعبة كانت تمحيصا

لإيمان المؤمنين، واختباراً لقوة عقيدتهم، واستعلاء إيمانهم على الأعراض، والمصالح الدنيوية.

ـــ وأوضحت كذلك، أن أحداث الهجرة كانت دليلا على سلامة التربية المحمدية للصحابة، فقد صاروا مؤهلين للاستخلاف فى الأرض، وتحكيم شرع الله، والقيام بأمره، والجهاد فى سبيله، وهم يقبلون على بناء دولة الإسلام فى المدينة المنورة، بعد أن كانوا مستضعفين فى الأرض، يخافون أن يتخطفهم الناس.

وقد بيّنت أن الحث على الهجرة، وبيان فضل المهاجرين، ظل يتأكد بنزول الآيات القرآنية، مما أدى إلى تدفق المسلمين الجدد من كل مكان، فقد كانت الدولة الإسلامية الناشئة فى ـــ المدينة المنورة ـــ بحاجة إلى المهاجرين من المؤمنين، ليتوطد سلطان الاسلام فيها، إذ كان يغالبه اليهود والمشركون والمنافقون، وتحيط به قوى الأعراب المشركين من حول المدينة، ويترصده كفار قريش الذين أقضت الهجرة مضاجعهم، فمضوا يخططون للإجهاز على كيان الإسلام الفتى، ودولته الناشئة.

ـــ وقد بيّنت أن الهجرة أدت فيما أدت ـــ إلى تنوع سكان المدينة المنورة، فلم يعودوا يقتصرون على الأوس والخزرج واليهود، بل نزل معهم المهاجرون من قريش، وقبائل العرب الأخرى.

والمجتمع المدنى الجديد، أرسيت قواعده على أساس روابط العقيدة، التى استعلت على ارتباطات القبيلة وعصبيتها وسائر الروابط الأخرى، وبرزت فكرة الأمة الواحدة، وتقسيمات السكان صار أساسها عقديا، وصاروا يقسمون إلى ثلاث مجموعات هى: المؤمنون، والمنافقون، واليهود.

ـــ وأوضحت أن الدولة الإسلامية فى المدينة ، كانت تحتاج إلى معالجة مجموعة من الأمور: أمر اليهود، وأمر المهاجرين والأنصار.

أما فيما يتصل باليهود، فقد عالج الرسول - ﷺ ـــ أمرهم بمعاهدة عقدها معهم ، تنص هذه المعاهدة على : اعتبار اليهود مواطنين فى دولة الإسلام، لهم حريتهم الدينية ، تحميهم الدولة وتدفع عنهم ، وأن اليهود يساندون الدولة الاسلامية فى ردّ العدوان عنها ، وعليهم النصح لدولة الاسلام فلا يتآمرون عليها ، وأنه يفرض عليهم الاقامة الجبرية ، وأن السيادة للدولة الاسلامية برئاسة رسول الله - ﷺ ـــ وإليه يرجعون فى فصل الخصومات التى تنشب بينهم وبين المسلمين .

وأما فيما يتصل بالأنصار، فقد عالج الرسول أمرهم بتقسيمهم إلى خلايا متكافلة متضامنة فيما بينها على الخير، ومسئول بعضها تجاه بعض ، وبذلك وضعها أمام مسئولياتها .

وأما أمر المهاجرين ـــ الذين خرجوا من ديارهم ، ولا مال ينهض بحوائجهم ، فكان لابد أن يتخذ الرسول تدبيرا اقتصاديا يحل مشكلتهم ، إلى جانب التدبيرات السياسية والاجتماعية ، ولذلك آخى الرسول بينهم وبين الأنصار ـــ وإن كان القرآن الكريم قد نسخ التوارث بالمؤآخاة ، وجعل التوارث بالقرابة النَّسَبِيَّة المشربة بالإسلام .

* وفى الفصل الرابع درست « مشروعية القتال »

وقلت إن رسول - ﷺ ـــ ماكاد يستقر فى المدينة ، ويقيم دولة الإسلام . حتى بدأ العكوف على دراسة الموقف الخارجى ، وفى أثناء ذلك نزل تشريع الجهاد ..

ولقد أوضحت ـــ استناداً إلى ما جاء فى القرآن والسيرة العطرة ـــ أن

سياسة التشريع الإسلامى للجهاد ، كان سمتها التدرج ، فقد شرع الله فى مكة جهاد النفس والهوى والشيطان ، كأساس أصيل لكل أنواع الجهاد ، ثم شرع جهاد الكفار ــ فى مكة ثانيا ــ بالصبر على أذاهم ، وتوضيح الحجة لهم ، ثم شرع الله الجهاد بالنفس بعد الهجرة النبوية ــ فى المدينة .

كما أوضحت أن الجهاد الإسلامى مر بمراحل ، إلى أن وصل إلى حكمه النهائى .

فى المرحلة الأولى : أبيح القتال من غير فرض ، وفى المرحلة الثانية : فرض القتال على المسلمين لمن يقاتلهم فقط وفى المرحلة الثالثة : فرض القتال جميع الكفار على اختلاف أديانهم وأجناسهم ، ابتداء وإن لم يبدأوا بقتال حتى يسلموا ، أو يدفعوا الجزية .

ولقد استشهدت لكل هذه المراحل بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وبآراء ابن تيمية والسَّرخَسِى والشافعى وابن رشد ، وابن القيم ، وغيرهم .

وهنا كان لابد من وقفة لنحدد المقصود بموضوع القتال وشرعيته ، ونرد على تلك التخرصات التى أرادت أن تشوّه وجه الإسلام .

ــ فهل كان جهاد المسلمين بدافع الانتقام ، وطلبا للغنيمة ، وبدافع الحنين إلى الوطن ... أم كانت الرغبة فى الجهاد حبا لله ولرسوله ، والجهاد فى سبيله لإعلاء دينه .

فقمنا بتوضيح الأمر وتحليله تحليلا دقيقا .

● ثم انتقلنا بعد ذلك إلى تحديد أهداف الجهاد وغايته . ولقد أوضحنا استناداً إلى كتاب الله العزيز ، وسنة نبيه المطهرة ، أن الأهداف الحقيقية للجهاد ، إنما تنحصر فى أمور منها :

تعبيد الناس لله وحده، واخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد، وأيضا فى ردّ اعتداء المعتدين على المسلمين، وإزالة الفتنة عن الناس حتى يستمعوا إلى دلائل التوحيد. ثم حماية الدولة الإسلامية من شر الكفار، وأخيراً: إبادة الكافرين ومحقهم حتى يكون الدين لله.

هذا بالإضافة إلى أن للجهاد أهدافاً سامية، وفوائد عظيمة تتحقق للمسلمين فى ذوات أنفسهم منها: كشف المنافقين، وتمحيص المؤمنين من ذنوبهم، وتربية المؤمنين على الصبر والثبات والطاعة، وبذل النفس.

* وفى الفصل الخامس: درسنا «التشريعات القرآنية بشأن الحرب والسلم».

فألمحنا إلى ما قرره القرآن، من أن الإنسانية كلها أمة واحدة، وأنها وحدة فى خلقها وأصلها، فالرحم بين بنى الإنسان موصولة، وإذا كانت الألوان مختلفة، والألسنة مختلفة، والأجناس متباينة، فإن الأصل واحد، ويجب أن تكون العلاقات مبينة على الأصل الموحد، لا على التخالف الظاهر. ولذلك كان الأصل فى علاقات الشعوب والدول بعضها مع بعض هو السلم لا الحرب.

وقد ذكرنا أن الرسول المصطفى - ﷺ - قد ربى المؤمنين على المحبة، فكانوا يكرهون القتل والقتال إلا أن يكون جهاداً، وكان القتال بالجهاد لدفع الشر، وتعميم الخير، لأن الإسلام يدعو إلى الخير، وإلى الفضيلة، وفضيلة الإسلام إيجابية، وليست سلبية، فهى تدافع الرذيلة ولا تستسلم.

وإذا كان الوجود يتنازع فيه الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، فإنه لابد من دفاع الخير.. لذلك شرع مبدأ الجهاد لدفع الشر، ومنع الفساد.

كما ألمحنا إلى أن أول تشريعات الإسلام -بشأن الحرب- كان عقب

الاعتداء، وفتنة المسلمين وإيذائهم لكى يرجعوا عن دينهم، عندئذ أذن الله تعالى بالجهاد وأوجبه.

ويقرر القرآن فى تشريعه للحرب، أن القتال لأجل دفع الاعتداء، وأنه ينتهى بنهايته، فما كان السبب ليستبيح دماء المخالفين لأجل المخالفة، بل يستبيحها لأنهم استباحوا دم المسلمين، ولأنهم أرادوا حمل المؤمنين على تغيير ملّتهم.

ولأن هدف الإسلام هو دفع الاعتداء، والفتنة فى الدين، فإن الإسلام أباح الهدنة، إذا أرادها المخالفون. ولقد فرض الإسلام هدنة إجبارية إن التزم بها المخالفون، وهى ألا يكون قتال فى الأشهر الحرم.

والاسلام إذ يقر الهدنة، يحترم العهود والمواثيق ما احترمها المخالفون واستقاموا عليها. ولقد ذكرت استناداً إلى كتاب الله، وسنة رسوله ـ ﷺ ـ أن القرآن يقرر نظرية الحياد، ويحترم المحايدين، فلا يرفع سيفا عليهم، فالناس على ذلك ـ فى نظر القرآن ـ ثلاثة أقسام: محاربون للمسلمين، وهؤلاء يجب قتالهم لرد اعتدائهم. وأهل الميثاق، وهؤلاء هم الذين بينهم وبين المؤمنين ميثاق عدم الاعتداء، وهؤلاء يحترم ميثاقهم.

والمحايدون: وهم الذين لايكونون مع المؤمنين، ولا مع أعدائهم واقعا، لأنه مادام الأصل فى العلاقات هو السلم.

ولقد ناقشت الذين لايدرسون المسائل دراسة فاحصة، وفهموا أن لا مواضع للحياد فى الفقه الإسلامى، وأبطلت ادعاءاتهم، وأثبت أن القرآن الكريم جعل الحياد موضعا، للذين يعتزلون الحرب مع المسلمين أو ضدهم.

* ولقد أجبنا على السؤال الحائر.. وهو: ألم يبح القرآن القتال إلا دفاعاً أو ردًّا للاعتداء ولم يبح الهجوم؟

فقلنا : إن القرآن الكريم صريح فى أنه لايباح القتال مع من ألقى السلام ، وبذلك يكون من المؤكد أن الإسلام لايبيح الهجوم على الآمنين ، الذين يلقون السلام ، وإن ذلك حق لاريب فيه ، لأنه لايباح الهجوم على من لايعلن العداوة على المؤمنين ، ولكن هل يمنع الهجوم مطلقا ؟ .

قلنا فى الجواب عن ذلك : إن الذى استنبط من صريح الآيات القرآنية التى ذكرناها أننا لانحارب إلاّ من اعتدى علينا ، أو فتنّنا عن ديننا ، ومن الفتنة فى الدين أن يمنع المتدين من إقامة شعائر دينه ، وأن يحال بين الحق والدعوة إليه ، إنه فى هذه الحال يكون القتال ، ولكن يزاد عليها إذا قامت العداوة التى ابتدأها غير المؤمنين بالاعتداء على المؤمنين ، ومحاولة غزوهم فى ديارهم ، أو فتنتهم فى دينهم ، فإنه عندئذ قتال يتعين العدو المترصد ، الذى لا يألو المؤمنين إلا خبالا ، ويود عنتهم وإرهاقهم ، فلا يكون الاقتصار فى الحرب على الدفاع ، بأن ينتظر المؤمنون حتى يهاجمهم الأعداء ، وقد بدت عداوتهم وأعلنوها صريحة لا إبهام فيها ، إنه كما قال بطل الجهاد على بن أبى طالب : «ما غزى قوم فى عقر دارهم إلاّ ذلوا» . وبذلك نفسر قولنا : إن المؤمنين ما قاتلوا إلاّ ردًّا للاعتداء بمثله وتوقفه .

وإذا ظهر الاعتداء ، وما يسكت عنه إلا للاستعداد لمثله ، كان القتال مشروعا بكل ضروبه لهؤلاء الأعداء ، بالهجوم على مآمنهم ، وبالقصد إلى مكانهم ... هكذا يقرر القرآن الكريم .

* وقد وصلنا من تتبعنا للتشريعات القرآنية بشأن الحرب والسلم إلى حقيقتين :

أولاهما : أن محاربة المؤمنين لأى قوم لايكون إلا عند اعتدائهم بإخراج المسلمين من ديارهم أو إيذائهم فى دينهم .

والحقيقة الثانية: أنه إذا كان الاعتداء بأى ضرب من ضروبه، فإن باب الجهاد يفتح دفاعاً وهجوماً وغزواً والتقاء، لايمنع مانع إلا ما توجبه الفضيلة.

* ولقد أوضحت أن القرآن الكريم يقرر أن الاعتداء المنهى عنه قسمان:

الأول: الاعتداء بالقتال على قوم لم يعتدوا على المؤمنين، وهم الذين ماجعل الله عليهم سبيلا.

والثانى: الاعتداء فى القتال، فيقتل من لا يقاتل، فيقتل مثلا الشيوخ والنساء والذرية، كما أن من مقتضى أخلاق الإسلام ألا يقاتلوا من لا يقاتل، وألا يقطعوا الأشجار، وألا ينتهكوا الأعراض، وألا يستبيحوا الأموال بغير حقها.

كما ذكرت أن القرآن الكريم يقرر مبدأ الوفاء بالعهد، لأن نقض العهد يؤدى إلى الزلل، ومع الزلل الضياع. ولقد شدد القرآن على هذا المبدأ لأنه فى ذاته عدالة، ولأن العهد فيه حدّ للحقوق، وخصوصاً إذا كان بين متكافئين.

وفى الفصل السادس: درسنا «مخططات الرسول السياسية والجهادية».

وهذا الفصل فى رأيى هو محور الدراسة كلها. ولقد قسمته إلى قسمين:

* فى القسم الأول درسنا «المخطط السياسى لرسول الله» وقد ذكرنا أن النبى ـ ﷺ ـ بعد أن استقر فى المدينة. وأخذ فى تنظيم شئون الدولة الداخلية، عكف على دراسة الموقف الخارجى. لتحديد العدو من الصديق، ومدى مايمكن أن يقدمه الصديق حين تقع الواقعة.

• كان الصديق الأوحد.. هو نجاشى الحبشة، ولكنه رغم إيمانه كان لا يستطيع أن يقدم للرسول ـ ﷺ ـ أية معونة مادية أو عسكرية، نظراً لبعد المسافة بينهما، ولأن شعبه كان على خلافه فى قضية الإيمان بمحمد ـ ﷺ.

• أما الأعداء، فمنهم الأعداء، فى المدينة وحولها، لأن رسول الله ـ ﷺ ـ حوّل عصا القيادة عنهم إلى المسلمين، ولأن دينه نسخ دينهم، فهم أعداء ولكنهم أذكياء، لذلك رأى النبى ـ ﷺ ـ تصفيتهم فى الوقت المناسب، بيد أنه استطاع بفكره الثاقب، ونظره السياسى البعيد، أن يجمد عداءهم.

• ومن الأعداء، المشركون، المنتشرون فى أنحاء الجزيرة العربية، ومن تحالف معهم، وقد ظهرت عداوتهم ـ كما نعلم. منذ أن بدأ رسول الله ـ ﷺ ـ دعوته إلى عبادة الله.

• ومن الأعداء أيضاً ـ وكما توقع الرسول ـ ﷺ ـ فارس والروم، وهؤلاء رغم أنهم لم تظهر عداوتهم بعدُ ـ لكنه ـ ﷺ ـ استشعر أن عداوتهم لابد أن تظهر، لأنهم لن يرضيهم أن تقوم بجوارهم دولة قوية، يسودها العدل والإنصاف.

وانطلاقا من هذا التقدير الدقيق، اتخذ رسول ـ ﷺ ـ قراراً مؤلفا من ثلاث نقاط، وقد انكشف لنا هذا القرار من مخططه العسكرى، الذى تناولته السيرة العطرة، خاصة بعد الإذن له بالقتال:

النقطة الأولى: المراقبة المستمرة لتحركات العدو، فكان يجهز السرايا الخاصة لهذه الغاية.

النقطة الثانية: تثبيت وتجميد أكبر عدد ممكن من أطراف العدو، بعقد الموادعات واتفاقات الهدنة.

النقطة الثالثة: القيام ببعض المناوشات الجانبية بقصد إرباك العدو.

وخلال ذلك أيضا، كان مخطط رسول الله ـ ﷺ ـ يهدف إلى إعداد قوات مسلحة، إعداداً يضمن لها النصر فى المعارك الفاصلة إن اقتضى الأمر.

وقد تناول هذا الإعداد ثلاثة ميادين :

أولها : إعداد القوة البشرية لجيش الجهاد .

الثانى : الإعداد المعنوى .

والثالث : تدبير السلاح والعتاد .

ثم بدأ رسول الله ـ ﷺ ـ بتنفيذ أمر ربه بالقتال .

* وفى القسم الثانى من هذا الفصل درسنا : « المخطط الجهادى لرسول الله » .

وقد بدأه ـ ﷺ ـ بإرسال السرايا ، بهدف إنذار أعداء الدولة الناشئة من جهة ، ومن جهة أخرى لاختبار مقدرة المسلمين الحربية ، وقدرتهم على تحمل أعباء الجهاد .

لقد انطلقت السرايا منذ منتصف السنة الأولى للهجرة ، بقصد إرباك قريش ، وتهديد تجارتهم . وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يقود بعض هذه السرايا أو الغزوات الصغيرة ، تشجيعا للمسلمين ، وتقوية لقلوبهم ، فقد قاد ـ ﷺ ـ غزوة ودّان على رأس قوة قوامها مائتا مجاهد ، كما قاد غزوة بواط بقوة مماثلة ، ثم قاد كذلك غزوة العشيرة ، وغزوة سفوان .

ولقد أثبتّ أن الرسول القائد ـ ﷺ ـ قد حقق بسراياه الأولى عدداً من المنجزات الهامة ، منها : الاستطلاع ، وقدرة المسلمين على القتال ، واستخدام الرسائل المكتومة للمحافظة على الكتمان ، والحصار الاقتصادى ، مما كان له أسوأ الأثر على تجارة قريش ، وإقامة شئون الحكم ، داخل المدينة أثناء الغزوات .

* وبعد إذ انتهيت من دراسة المخطط الجهادى المصغر ، الممثل فى تجهيز السرايا للمناوشة وإقلاق راحة قريش ، انتقلت إلى دراسة الظروف التى أدت

إلى قيام معركة بدر الكبرى، فبدأت بتحليل الموقف العسكرى ـ السياسى قبل المعركة.

إن اطلاق هذه السرايا والنتائج التى أنتجتها، جعلت النبى ـ ﷺ ـ يفكر ويخطط للقضاء على نفوذ المشركين، حتى يتيسر له نشر دعوته فى ربوع الجزيرة العربية، أما المشركون المقيمون فى مكة، فقد أيقنوا أن وجود النبى والمسلمين فى المدينة، خطر عليهم على تجارتهم سواء فى الذهاب إلى الشام، أو الإياب منها، يضاف إلى ذلك شعورهم بالخطر المتزايد على مقدساتهم الدينية، وما تمثله هذه المقدسات فى نظرهم ـ من رمز لسيادتهم على قبائل الحجاز بشكل خاص، ومركزهم فى الجزيرة العربية بشكل عام.

ولهذا كله كان كلّ من الطرفين يستعد ويخطط من أجل القضاء على خصمه، والإيقاع به، ونشبت بين الطرفين سلسلة من الاشتباكات الحربية، كانت غزوة بدر الكبرى فاتحتها وأهمها.

وقد بدأت الأسباب الواقعية التاريخية، التى قادت إلى المعركة الحاسمة تتجمع إلى بعضها منذ اللحظة التى أبلغ فيها الرسول ـ ﷺ ـ أن قافلة كبيرة لقريش تضم ألف بعير، قادمة من الشام صوب مكة، يقودها أبو سفيان، فى ثلاثين أو أربعين تاجراً مكيا، وبمبادرة لا تردد فيها قال ـ ﷺ ـ لأصحابه:

«هذه عير قريش، فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله يُنْفلكُموُها».

وفى الثامن من رمضان ـ من السنة الثانية للهجرة، خرج رسول الله ـ ﷺ ـ على رأس قواته المجاهدة، بعد أن أمر بقطع الأجراس من أعناق الإبل، وتحركت قوات الجهاد على النحو التالى:

• دورية استطلاع أمامية، للحصول على المعلومات عن اتجاهات القافلة التجارية.

• الكتلة الرئيسية للقوات، وتتألف من كتيبتين: كتيبة المهاجرين ورايتها مع على بن أبى طالب. وكتيبة الأنصار ورايتها مع سعد بن معاذ، وكانت رايتا الكتيبتين سوداوين، أما راية المسلمين العامة فقد كانت بيضاء، وكان يحملها مصعب بن عمير، كما أعطى الرسول ـ ﷺ ـ قيادة ميمنة الجيش للزبير بن العوام، والميسرة للمقداد بن عمرو، وهما الفارسان الوحيدان فى جيش المسلمين، كما أعطى قيادة المؤخرة لقيس بن أبى صعصعة.

وسار الجيش، فلما وصلوا قريباً من «الصفراء» بعث الرسول ـ ﷺ ـ بدورية استطلاع قوامها رجلان إلى بدر، للحصول على المعلومات عن قريش وقافلتها، فلما وصل المجاهدون «وادى ذفران» جاءهم الخبر بخروج قريش من مكة بخيلها وخيلائها للتحدى.

وهنا أدرك النبى ـ ﷺ ـ أن وجه الأمر قد تغيّر، فلم يعد مقصوراً على اللحاق بالعير، بل أضحى القتال والمناجزة راجحة الكفة، فلم يكن بدّ للنبى ـ ﷺ ـ من أن يستشير أصحابه، المهاجرين والأنصار على السواء، فلما استمع إلى تأييدهم ووقوفهم معه صفًّا واحداً، انشرح صدره ـ ﷺ ـ وأشرق وجهه، وازداد ثقة برجاله، ثم بشرهم بالنصر قائلاً:

«سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين، فوالله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم».

ثم دارت المعركة، ولما اشتعل لظاها، اتجه الرسول ـ ﷺ ـ بالدعاء إلى ربه بقوله:

«اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض».

فلم يزل كذلك حتى سقط رداؤه، فأخذ أبو بكر فوضع رداءه عليه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال:

« كفاك يا نبى الله ، بأبى وأمى بعض مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ماوعدك » .

ثم مالبث أن انتبه الرسول ــ ﷺ ــ فجأة ، وقال والبشر يكسو وجهه : « أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله!.. هذا ــ جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النقع» .

وأنزل الله تعالى بهذه المناسبة ، الآية الكريمة :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾

[الأنفال : ٩] .

ولقد تتبعنا ــ فى بحثنا ــ سير الأعمال القتالية يوم بدر، منذ مبارزة الفرسان، حتى كتب الله النصر للمؤمنين . فأرسل النبى ــ ﷺ ــ المبشرين إلى المدينة ، فأرسل عبد الله بن رواحة لأهل العالية ، وأرسل زيد بن حارثة لأهل السافلة ، راكبا على ناقة رسول الله ، وكان المنافقون والكفار من اليهود قد أشاعوا عن الرسول والمسلمين السوء ، يقصدون بذلك فتنة المسلمين ، فجاء أولئك المبشرون بما سرّ أهل المدينة .

ثم قفل رسول الله ــ ﷺ ــ راجعا . وهنا وقع خُلْف بين المسلمين فى قسمة الغنائم ولما كان هذا الاختلاف مدعاة إلى الضعف ، ويزرع فى القلوب العداوة والبغضاء المؤدين إلى تشتت الشمل ، أنزل الله تعالى ــ حسما لهذا الخلاف ــ أول سورة الأنفال .

فسطع على أفئدتهم نور القرآن ، فتآلف بعد أن كادت تفترق وترك أمر الغنائم لرسول الله ــ ﷺ ــ يضعها كيف شاء ، كما حكم القرآن ، ثم أقبل رسول الله ــ ﷺ ــ حتى إذا خرج من مضيق الصفراء ، نزل على كثيب بين المضيق وبين النازية ، فقسم هنالك النفل ، الذى أفاء الله على المسلمين ، وإنما لم يقسم رسول الله ــ ﷺ ــ الغنائم فى أرض المعركة ، لئلا تكون سُنّة ، لو

قسمهاً لانشغل الناس بها عن اليقظة الواجبة، لما قد يفاجئهم به العدو.

ولقد كان من المفيد أن نذكر الأسباب الحقيقية التى أدت إلى النصر فى غزوة بدر الكبرى، فأرجعناها إلى عدة أسباب: منها القيادة الموحدة الحكيمة، ثم التعبئة الجديدة، التى طبقها رسول الله ـ ﷺ ـ فى مسيرة الاقتراب من المدينة إلى بدر، وأيضا فى قوة العقيدة ورسوخها عند المجاهدين وكذلك فى المعنويات العالية، التى تحلى بها المجاهدون، قبل القتال، وأثناءه.

وبالطبع لايمكن أن نتجاهل المؤيدات الإلهية، التى تتجلى فى النعاس الذى مَنَّ الله به على المسلمين، كما يتجلى فى رمى الحصى وحفنة التراب، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة.. هذا بالإضافة إلى الإمداد بالملائكة، يقاتلون فى صفوف المسلمين. وهذه النقطة بالذات كانت محل مناقشة، مع الذين ينكرون هذا الإمداد، ويقولون إنه كان تأييداً معنوياً فقط، وليس إمداداً حقيقياً، ولقد أوضحت هذا الأمر توضيحا جليا، استناداً إلى القرآن الكريم، وما جاء فيه حول استمرار تأييد الله لنبيه المصطفى ـ ﷺ ـ بإمداده بالملائكة يوم بدر، وفى غير يوم بدر. واستناداً كذلك إلى شهود العيان، الذين حضروا المعركة، وذكروا ما رأوه.

* وفى الفصل السابع تحدثنا عن «توزيع الأنفال» استناداً إلى ما جاء فى سورة الأنفال.

لقد أوضحت السورة الكريمة أمرين هامين:

١ ـ حكم الأنفال وكيفية تقسيمها.

٢ ـ حكم الأسرى وكيفية التصرف فيهم.

أما حكم الأنفال، فقد أصدره الله:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [الأنفال : ١]

لقد كانت هذه الآية الكريمة بمثابة قرار حاسم لحل الخلاف بين المجاهدين حول الغنائم، وإذ جعل الله أمرها عائداً إلى النبى — ﷺ — وعلى المسلمين أن يطيعوه.

ولقد أوضحت أن هذه الآية الكريمة، تنطوى على مجموعة من الأحكام الشرعية، ذكرتها وأوضحت مضمونها استناداً إلى الكتاب والسنة، وآراء الفقاء.

فالحكم الأول: حول الغنائم وحكمها وكيفية تقسيمها.
والحكم الثانى: حول تنفيل بعض المجاهدين من الغنيمة
والحكم الثالث: هل التنفيل من أصل الغنيمة أم من الخُمس؟.

وناقشت كل ما جاء حول هذه الأحكام في كتب الفقه القديمة والحديثة على السواء.

وبعد أن تناولت ماجاء فى حكم الأنفال، انتقلت إلى كيفية توزيعها، حسب ما أمر الله به رسوله، فى الآية المبينة لذلك، وهى قوله تعالى:
﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الأنفال : ٤١].

ولقد أوضحت كذلك — أن هذه الآية تنطوى على مجموعة من الأحكام الشرعية الهامة:

الحكم الأول: هل الغنيمة والفىء شىء واحد؟ ووضحت ذلك.

والحكم الثانى: كيف يوزع الخُمس بين الغانمين؟

وأوضحت ما المقصود بسهم الله، وسهم الرسول، وسهم ذى القربى، وسهم اليتامى، وسهم المساكين، وسهم ابن السبيل، وتتبعت المذاهب الفقهية الأربعة فى خلافهم حول هذا الحكم.

والحكم الثالث: كيفية توزيع الغنائم. وهل توزيعها يكون بين المحاربين على السوية أم لا.

أما الحكم الرابع: فهو هل هذه الآية ناسخة للآية الأولى من السورة؟ وناقشت هذا الأمر اعتماداً على آراء العلماء والفقهاء.

* ٢. ـ أما حكم الأسرى وكيفية التصرف فيهم، فقد وضحه القرآن بعد استشارة النبى ـ ﷺ ـ أصحابه، بعد انتصار بدر.

ـ فقال أبو بكر: يارسول الله قومك وأهلك، إستبقهم واستأن بهم، لعل الله أن يتوب عليهم، وخذ منهم فدية، تكون لنا قوة على الكفار.

وقال عمر: يا رسول الله، كذبوك وأخرجوك، قدّمهم نضرب أعناقهم.

وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، انظر واديا كثير الحطب، فأدخلهم فيه، ثم أضرم عليهم ناراً فسكت رسول الله ـ ﷺ، ثم دخل فى عريشه..

فأنزل الله سبحانه:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

[الأنفال: ٦٧، ٦٨].

حيث نهى الحق سبحانه عن اتخاذ الأسرى قبل الإثخان فى قتل الذين يصدون عن سبيل الله، ويمنعون دين الله من الانتشار، وعاب بعض المسلمين على إرادة عرض الدنيا، وهو الفدية، ولولا حكم سابق من الله ألا يعاقب مجتهداً على اجتهاده مادام المقصد خيراً لكان العذاب.

ثم كان من المهم أن أعرض لمواقف الرسول ـ ﷺ ـ تجاه الأسرى، فتتبعت موقفه من عمّه خاصة، من حيث التشديد والعطف، وتتبعت موقفه من أعداء الله وأعدائه، الذين نالوا منه بالسب والاضطهاد، حيث أمر بقتل النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، وحددت الأسباب التى حدت بالرسول إلى فعل ذلك.

ولقد احتلت قضية الأسرى هذه ـ مكاناً بارزاً فى كتب كثير من الباحثين المحدثين ـ خاصة المستشرقين وتلاميذهم، الذين أفزعهم أن أحكام الشريعة الاسلامية تضاد تلك التشريعات الصادرة من الدول الغربية المتحضرة، والتى يفترضون فى تشريعاتها منتهى الرقى والتقدم.

ولقد صنفت هؤلاء الباحثين إلى قسمين، حتى يسهل علّى مناقشتهم وإفحامهم.

القسم الأول: طعن فى أحكام الشريعة الإسلامية صراحة، وكان فى رأيى ـ أخف ضرراً لأنه مكشوف للمسلمين، الذين يحبون الله ورسوله.

أما القسم الثاني: فكان يتلون كما تتلون الحرباء وحرّف الكلم عن مواضعه، ليطوع أحكام الإسلام حتى توافق التشريعات الوضعية الحديثة، التى يراها تلاميذ الاستشراق بعين الرضا والاعجاب.

لقد تتبعت أراءهم فى كتبهم وناقشتها، وحللتها تحليلاً دقيقاً، ورددت على مزاعمهم الردود الكافية، استناداً إلى كتاب الله وسنة رسوله ـ ﷺ ـ وأراء العلماء المشهود لهم بالرسوخ فى العلم، وأثبتّ فى النهاية أن ما يذكرونه، إنما يشتمل على الكذب على الله، وعلى رسوله.

وقدمت الدليل تلو الدليل، بما يبهرج علمهم، ويبين خبث نواياهم، حيث أنهيت كلامى بذكر ماقاله العلماء الأجلاء من أمثال الجصاص،

والسيوطى، والشّوكانى، وابن قدامة، فى أحكام الأسرى المبينّة على الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة.

* وفى الفصل الثامن ـ انتقلنا لدراسة «أدب الحرب والسلم الوارد فى سورة الأنفال».

وكان علينا أن نبدأ بذكر حكمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى جعل الصراع بين الحق والباطل سُنّة جارية بين الناس، وكيف أن البشر عادة لا ينقادون للحق بدون قوة ردع، تحملهم على ذلك.

واستشهدت على ذلك بالأسباب التى سبقت وقوع معركة بدر، والظروف التى أحاطت بها، مما أدى إلى نزول سورة الأنفال، لتكون وثيقة للمسلمين، ودستوراً دائما يسيرون على نهج ما جاء فيه من قيم وآداب، ترتبط بالحرب والسلم على السواء، صالحة لكل عصر، وإلى أن تقوم الساعة.

لقد أوضحت أنه قد ورد بين ثنايا السورة مجموعة من النداءات الإلهية، التى وجّهها الحق سبحانه للمؤمنين، ترشدهم وتحثهم على الصبر والثبات فى مجاهدة أعدائهم، وتذكرهم أن هذه التكاليف الإلهية، التى أمروا بها ـ من مقتضيات الإيمان، الذى تحلّوا به. من أبرز هذه القيم والآداب:

١ ـ التحذير من الفرار فى المعارك.
٢ ـ الثبات عند لقاء الأعداء.
٣ ـ الأمر بالسمع والطاعة لرسول الله ـ ﷺ.
٤ ـ الاستجابة لدعوة الرسول ـ ﷺ.
٥ ـ عدم إفشاء سر الأمة للأعداء.
٦ ـ تقوى الله.
٧ ـ أن القتال لرد الاعتداء وأنه ينتهى بنهايته.

٨ ــ احترام العهود والمواثيق .
٩ ــ اليقظة والاستعداد الدائم للحرب .
١٠ ــ الاستجابة لمن طلب الأمان .

وهنا كان لابد لنا من وقفة أيضا ، للرد على مزاعم المستشرقين ، الذين شككوا فى تأثير الجهاد فى نشر الاسلام ، فزعموا أن الدعوة السليمة المجردة عن الجهاد هى سبب انتشار الاسلام سابقاً . وهى الطريق الأصلح الآن ، بل لقد بلغ بهم الأمر إلى اعتبار أن انتشار الاسلام بالجهاد فرية على الاسلام ينْبغىَ أن تدفع .

فأوضحنا حقيقة الأمر، وزيف ادعاء هؤلاء المغرضين، وكيف أنهم بآرائهم العقيمة يكذبون على الله وعلى رسوله ، وعلى الواقع التاريخى للاسلام ، وقدمت الدليل تلو الدليل ، من كتاب الله وسنة رسوله ــ ﷺ .

ثم كان لابد من الوقوف أمام الطرف المضاد ، الذى يتهم الرسول ــ ﷺ ــ بالغزو والقتال والتوسع ، لتشييد مجد ذاتى ، فدافعت عن الرسول ــ ﷺ ــ وأبطلت الطعون الموجهة ضده .

* ثم كان علينا أن نختم بحثنا هذا بدراسة فنية تتناول الشكل والمضمون ، فكان هذا هو موضوع الفصل التاسع والأخير. حيث قسمناه قسمين :

القسم الأول : دراسة بلاغية لآيات سورة الأنفال .

والقسم الثانى : دراسة الجوانب النفسية التى أدت إلى انتصار المسلمين فى غزوة بدر.

فى القسم الأول : بدأت بمقدمة تمهيدية عن الحقيقة والتشبيه والاستعارة فى القرآن ، ثم دراسة قوة البلاغة الواردة فى الأسلوب ، ثم انتقلت إلى الدراسة البلاغية لآيات السورة . فتحدثت عما جاء متضمنا بعض عناصر علم

المعانى، وماجاء متضمنا لألوان علم البيان، كالتشبيه والاستعارة والكناية، ثم ماجاء حاملا ألوان علم البديع.

وفى القسم الثانى: درست الجوانب النفسية، التى أدت إلى رفع الروح المعنوية عند المجاهدين، فقدمت بمقدمة عن النفس الإنسانية وعناية القرآن بها، ثم انتقلت إلى تحليل هذه الجوانب فى مرحلة ماقبل المعركة، ثم فى مرحلة القتال، وأخيراً الجوانب النفسية التى غمرت المسلمين بعد المعركة.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه إنه نعم السميع المجيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلاة وسلاماً على البشير النذير، إمام المتقين، وقائد الغر المحجلين، ﷺ.

أ. د. أحمد جمال العمرى

المصادر والمراجع

١ - القرآن الكريم

٢ - أبجديات التصور الحركي للعمل الاسلامي، فتحي يكن، ط مؤسسة الرسالة سنة ١٤٠١ هـ.

٣ - الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، تحقيق محمد أبي الفضل، ط الهيئة المصرية للكتاب سنة ١٩٧٥م.

٤ - آثار الحرب في الفقه الإسلامي، الدكتور وهبه الزحيلي، ط دار الفكر، الطبعة الثانية.

٥ - الأجوبة المفيدة لمهمات العقيدة، عبد الرحمن الدوسري، ط دار الأرقم بالكويت سنة ١٤٠٢ هـ

٦ - الاجتهاد في طلب الجهاد، ابن كثير، تحقيق عبدالله عبدالرحيم عسيلان، ط مؤسسة الراسالة سنة ١٤٠١ هـ.

٧ - أحكام القرآن، ابن العربي، تحقيق على محمد البجاوي، ط عيسى الحلبي بمصر سنة ١٣٨٧ هـ.

٨ - أحكام القرآن، أبو بكر الجصاص، ط دار الكتاب العربي ببيروت.

٩ - أحكام القرآن، الشافعي، ط دار الكتب العلمية، بيروت سنة ١٣٩٥ هـ.

١٠ - أحكام الذميين والمستأمنين في دار الاسلام، الدكتور عبدالكريم زيدان، ط مؤسسة الرسالة سنة ١٣٩٦ هـ.

١١ - أحكام أهل الذمة، ابن القيم الجوزية، تحقيق صبحى الصالح، ط دار العلم للملايين سنة ١٤٠١ هـ.

١٢ - أحكام المرتد فى الشريعة الإسلامية، نعمان عبد الرزاق، نشر دار العربية ببيروت سنة ١٣٨٧ هـ

١٣ - إحياء علوم الدين، الغزالى، ط دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

١٤ - اختلاف العلماء، ابن جرير الطبرى، تحقيق جوزيف شاخت. الطبعة الأولى.

١٥ - الإخاء الدينى ومجمع الأديان وموقف الاسلام، الدكتور محمد البهى، ط مكتبة وهبة بالقاهرة سنة ١٤٠١ هـ.

١٦ - إرشاد السارى بشرح صحيح البخارى، أحمد بن محمد القسطلانى، ط مكتبة المثنى ببغداد.

١٧ - إرادة القتال فى الجهاد الاسلامى، محمود شيث خطاب، ط دار الفكر سنة ١٣٩٨ هـ.

١٨ - الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، محمد عبده، نشر على صبيح بمصر سنة ١٣٧٣ هـ.

١٩ - الاستشراق والمستشرقون، الدكتور مصطفى السباعى، ط المكتب الاسلامى سنة ١٣٩٩ هـ.

٢٠ - أساليب الغزو الفكرى للعالم الاسلامى، الدكتور على محمد جريشة وزميله، ط دار الاعتصام سنة ١٣٩٨ هـ.

٢١ - الإسلام والدعوات الهدامة، أنور الجندى، ط دار الكتاب اللبنانى، بيروت سنة ١٩٧٤م.

٢٢ - الإسلام أمام افتراءات المفترين: توفيق على وهبه، نشر جامعة الامام محمد بن سعود بالرياض سنة ١٣٩٧هـ.

٢٣ - الإسلام فى مواجهة التحديات المعاصرة، لأبى الأعلى المودودى، تعريب خليل الحامدى، ط دار القلم سنة ١٣٩٨هـ.

٢٤ - الإسلام والحرب، أبو لبابة حسين، ط دار اللواء للنشر الرياض سنة ١٣٩٩هـ.

٢٥ - الإسلام والرق، الدكتور محمد البهى، ط مكتبة وهبه بالقاهرة سنة ١٣٩٩هـ.

٢٦ - الإسلام والحضارة الغربية، الدكتور محمد محمد حسين، ط. المكتب الإسلامى سنة ١٣٩٩هـ.

٢٧ - الإسلام ظهوره وانتشاره، حامد عبد القادر، ط دار نهضة مصر للطبع والنشر.

٢٨ - الإصابة فى تمييز الصحابة، ابن حجر، دار إحياء التراث، بيروت سنة ١٣٦٩هـ.

٢٩ - أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، ط مكتبة المنار الإسلامية سنة ١٣٩٦هـ.

٣٠ - أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطى، ط مطبعة المدنى بالقاهرة سنة ١٣٨٦هـ.

٣١ - اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، محمد بن عمر الرازى، نشر مكتبة الكليات الأزهرية سنة ١٣٩٨هـ.

٣٢ - الإكليل فى استنباط التنزيل، السيوطى، ط دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٣ - الأم، الإمام الشافعى، تصحيح محمد زهرى النجار، ط دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

٣٤ - الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ابن تيمية، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، نشر مجلة التوعية الإسلامية سنة ١٣٩٩ هـ.

٣٥ - الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه، أبو محمد مكى القيسى، تحقيق أحمد حسن فرحات، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض سنة ١٣٩٦ هـ.

٣٦ - الإيمان، أركانه، حقيقته، نواقضه، الدكتور محمد نعيم ياسين، ط دار عمر للطباعة بالاسكندرية.

٣٧ - بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع. أبو بكر بن مسعود الكاسانى، ط دار الكتاب العربى ببيروت سنة ١٣٩٤ هـ.

٣٨ - بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ابن رشد، نشر مصطفى البابى الحلبى سنة ١٣٧٩ هـ.

٣٩ - البداية والنهاية، ابن كثير، ط دار الفكر العربى، بيروت سنة ١٩٧٧ م.

٤٠ - بدر الكبرى، شوقى أبو خليل، ط دار الفكر سنة ١٩٨٢ م.

٤١ - بحوث المؤتمر الثالث للسيرة النبوية، المنعقد فى الدوحة فى محرم سنة ١٤٠٠ هـ الطبعة الأولى سنة ١٤٠١ هـ.

٤٢ - بحوث المؤتمر العالمى لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة، المنعقد فى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة ١٣٩٧ هـ.

٤٣ ـ البرهان فى علوم القرآن، الزركشى، تحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم، نشر عيسى البابى الحلبى.

٤٤ ـ البرهان فى معرفة عقائد أهل الأديان، عباس بن منصور السكسكى، تحقيق خليل أحمد ابراهيم نشر دار التراث العربى سنة ١٤٠٠ هـ.

٤٥ ـ تاريخ المذاهب الإسلامية، الشيخ محمد أبو زهرة، ط دار الفكر.

٤٦ ـ تاريخ الدعوة إلى الله بين الأمس واليوم، آدم عبدالله الألورى، ط مكتبة وهبة بالقاهرة سنة ١٣٩٩ هـ.

٤٧ ـ تبين الحقائق شرح كنز الدقائق، عثمان بن على الزيلعى، ط دار المعرفة بلبنان.

٤٨ ـ تحريم الحروب فى العلاقات الدولية، الدكتور يحيى الشيمى، طبع القاهرة سنة ١٩٧٦م.

٤٩ ـ تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذى، محمد عبد الرحمن عبدالرحيم، تصحيح عبدالرحمن محمد عثمان، ط. دار الفكر سنة ١٣٩٩ هـ.

٥٠ ـ تذكرة دعاة الإسلام، أبو الأعلى المودودى، ط مؤسسة الرسالة سنة ١٣٨٥ هـ.

٥١ ـ تذكرة الدعاة، البهى الخولى، ط دار العلم للملايين، بيروت سنة ١٣٩٧ هـ.

٥٢ ـ الترغيب والترهيب، عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى، ط دار الفكر سنة ١٣٧٣ هـ.

٥٣ ـ التفسير السياسى للسيرة النبوية، الدكتور محمد رواس، ط دار السلام للطباعة والنشر ببيروت سنة ١٣٩٩ هـ.

٥٤ ـ تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا، ط دار المعرفة ببيروت.

٥٥ - تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق عبدالعزيز غنيم وزميله، ط مطبعة الشعب بالقاهرة.

٥٦ - التفسير القيم، الإمام ابن القيم، جمعه محمد أويس، وحققه محمد حامد الفقي، ط دار الكتب العلمية ببيروت سنة ١٩٨٨ هـ.

٥٧ - التفسير الواضح، محمد محمود حجازى، ط دار الكتاب العربى ببيروت.

٥٨ - تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان، عبد الرحمن ناصر السعدى، ط المطبعة السلفية بالقاهرة.

٥٩ - تيسير العلام شرح عمدة الأحكام، عبد الله بن عبد الرحمن آل بسام ط. مكتبة النهضة الحديثة بمكة سنة ١٤٠٤ هـ.

٦٠ - تيسير العزيز الحميد فى شرح كتاب التوحيد، سليمان عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، نشر رئاسة البحوث والافتاء بالرياض.

٦١ - وجاء النبى المنتظر، عبد الوهاب عبد السلام طويلة، ط الجامعة الإسلامية بالمدينة سنة ١٤٠٥ هـ.

٦٢ - الجامع لأحكام القرآن، القرطبى، ط دار الكتب المصرية سنة ١٣٦٥ هـ.

٦٣ - جامع العلوم والحكم فى شرح خمسين حديثا، ابن رجب، ط دار المعرفة للطباعة والنشر.

٦٤ - جامع الأصول فى أحاديث الرسول، ابن الأثير، تحقيق عبد القادر الارناؤوط، نشر مكتبة الحلوانى سنة ١٣٨٩ هـ.

٦٥ - جامع البيان فى تفسير القرآن، ابن جرير الطبرى، ط دار الفكر ببيروت سنة ١٣٩٩ هـ.

٦٦ - الجزية فى الإسلام، الدكتور محمد يوسف النجرامى، ط دار الفكر ببيروت سنة ١٣٩٨هـ.

٦٧ - الجهاد، محمد اسماعيل ابراهيم، ط دار الفكر العربى، الطبعة الثانية.

٦٨ - الجهاد فى السنة النبوية، ابراهيم القيسى، رسالة ماجستير قدمت لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض سنة ١٣٩٩هـ.

٦٩ - الجهاد طريق النصر، عبدالله غوشة، نشر وزارة الأوقاف بالأردن سنة ١٣٩٩هـ.

٧٠ - الجهاد فى القرآن الكريم، عطية الدسوقى محمد، ط دار الشعب بالقاهرة سنة ١٣٩٩هـ.

٧١ - الجهاد فى الإسلام، محمد محمود الرامينى، ط دار مكتبة الحياة ببيروت سنة ١٩٦٧م.

٧٢ - الجهاد فى الإسلام، محمد شديد، ط مؤسسة الرسالة ببيروت.

٧٣ - الجهاد فى الإسلام، توفيق على وهبة، ط دار اللواء بالرياض سنة ١٣٩٧هـ.

٧٤ - الجهاد فى الإسلام، مراتبه ومطالبه، لأحمد محمد جمال، نشر رابطة العالم الإسلامى سنة ١٤٠١هـ.

٧٥ - جهاد المسلمين فى الحروب الصليبية، الدكتور فايد حماد، ط مؤسسة الرسالة سنة ١٤٠١هـ.

٧٦ - الجهاد والفدائية فى الإسلام، حسن أيوب، ط المطبعة العصرية بالكويت سنة ١٣٩٩هـ.

٧٧ - الجهاد فى سبيل الله، أبو الأعلى المودودى، وحسن البنا، وسيد قطب، إصدار الاتحاد الاسلامى العالمى سنة ١٣٨٩م.

٧٨ - الجهاد وما يترتب عليه في مذهب المالكية، الدكتور علي عبد العال، ط دار الهدى بمصر سنة ١٤٠٠هـ.

٧٩ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية، نشر رئاسة البحوث والافتاء بالرياض.

٨٠ - حرية الاعتقاد في الإسلام، جمال البنا، ط المكتب الإسلامي سنة ١٤٠١هـ.

٨١ - حرية الاعتقاد في الشريعة الإسلامية، عبد الله ناصح علوان، ط دار السلام ببيروت سنة ١٤٠٠هـ.

٨٢ - الحرب والسلام في الإسلام، عبد الكريم الخطيب، ط دار نجد للنشر والتوزيع سنة ١٤٠١هـ.

٨٣ - الحرب والسلم في شرعة الإسلام، المستشرق مجيد خدوى، نشر الدار المتحدة سنة ١٩٧٣م.

٨٤ - حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول، الدكتور شكري فيصل، ط دار العلم للملايين سنة ١٩٨٠م.

٨٥ - حقائق عن التبشير، عماد شرف، ط المختار الإسلامي بالقاهرة سنة ١٣٩٥م.

٨٦ - الحقوق والواجبات والعلاقات الدولية في الإسلام، الدكتور محمد رأفت عثمان ط. مطبعة السعادة سنة ١٣٨٥هـ.

٨٧ - حقيقة الجهاد في سبيل الله وغايته في الإسلام، عبد الله القادري، رسالة دكتوراه مخطوطة، مقدمة لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سنة ١٤٠١هـ.

٨٨ - حكم وأحكام من السيرة النبوية، عبد الله خياط، ط الرياض سنة ١٤٠٢هـ.

٨٩ - الحكم الجديرة بالإذاعة من قول النبى بعثت بالسيف بين يدى الساعة، ابن رجب الحنبلى، تحقيق محمد الفقى، ط مكتبة السنة المحمدية بمصر، ضمن مجموعة (دفائن من كنوز السنة).

٩٠ - الخراج، القاضى أبو يوسف، صورة لطبعة بولاق سنة ١٣٠٢ هـ.

٩١ - خفايا المبشرين فى تنصر أبناء المسلمين، أحمد محمد سالمان، ط. المطبعة السلفية سنة ١٣٥٣ هـ.

٩٢ - خلاصة فى أصول الإسلام وتاريخه، ابن حزم، تحقيق أبى عبد الرحمن أبن عقيل وزميله ط. دار الاعتصام.

٩٣ - دراسات فى القرآن الكريم والسنة، الدكتور أحمد جمال العمرى دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٢م.

٩٤ - دراسات قرآنية، لمحمد قطب، ط دار الشروق، الطبعة الأولى.

٩٥ - دراسة فى السيرة، الدكتور عماد الدين خليل، ط مؤسسة الرسالة سنة ١٤٠٣ هـ.

٩٦ - الدر المنثور فى التفسير بالمأثور، السيوطى، نشر محمد أمين دمج ببيروت.

٩٧ - الدرر فى اختصار المغازى والسير، ابن عبد البر، تحقيق الدكتور شوقى ضيف، طبع القاهرة.

٩٨ - الدعوة إلى الجهاد فى القرآن والسنة، عبد الله بن محمد بن حمد، ط مؤسسة مكة للطباعة سنة ١٣٩٤ هـ.

٩٩ - الدعوة الإسلامية وظهور الدولة، حمادى العبيدى، ط الدار التونسية للنشر.

١٠٠ - الدعوة الإسلامية فريضة شرعية وضرورة بشرية، الدكتور صادق أمين، ط دار الإيمان بعمان.

١٠١ - الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، تعريب الدكتور حسن إبراهيم حسن، وعبد الحميد عابدين واسماعيل النجراوى، ط مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة.
١٠٢ - دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، محمد الأمين الشنقيطى. ط مطبعة المدنى بمصر.
١٠٣ - دلالة النصوص والإجماع على فرض القتال للفكر والدفاع، سليمان بن عبد الرحمن ط دار الطباعة والنشر بعمان سنة ١٣٩٨٢ هـ.
١٠٤ - دلائل النبوة، الحافظ أبو نعيم، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع بمكة المكرمة.
١٠٥ - دور المنهج الربانى فى الدعوة الإسلامية، عدنان النحوى، ط دار الإصلاح بالامام.
١٠٦ - الرسالة الخالدة، عبد الرحمن عزام، ط دار الشروق ودار الفكر ببيروت سنة ١٩٦٩م.
١٠٧ - رسالة تحكيم القوانين الوضعية، محمد بن ابراهيم، ط الرياض.
١٠٨ - الرسول القائد، العماد محمد مصطفى طلاس ط دمشق.
١٠٩ - روح الدين الإسلامى، عفيف عبد الفتاح طبارة ط دار العلم للملايين ببيروت سنة ١٣٩٤ هـ.
١١٠ - الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية، السهيلى، ط دار المعرفة للطباعة والنشر بالقاهرة.
١١١ - زاد المسير فى علم التفسير، ابن الجوزى، ط المكتب الإسلامى.
١١٢ - زاد المعاد فى هدى خير العباد، ابن قيم الجوزية، ط مؤسسة الرسالة سنة ١٤٠١هـ.
١١٣ - سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحى. نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة سنة ١٣٩٢ هـ.

١١٤ ـ سبيل الدعوة الإسلامية، الدكتور محمد أمين المصرى، ط دار الأرقم سنة ١٤٠٠ هـ.
١١٥ ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألبانى ط المكتب الإسلامى.
١١٦ ـ السلاح فى الإسلام، الدكتور محمد عبد الحميد أبو زيد، ط دار النهضة العربية بالقاهرة سنة ١٤٠٠ هـ.
١١٧ ـ سماحة الإسلام، الدكتور أحمد محمد الحوفى، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة سنة ١٣٩١ هـ.
١١٨ ـ سنن النسائى، بشرح جلال الدين السيوطى، ط دار إحياء التراث ببيروت.
١١٩ ـ السنن الكبرى، البيهقى، ط دار الفكر.
١٢٠ ـ سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، ط دار إحياء التراث العربى ببيروت سنة ١٣٩٥ هـ.
١٢١ ـ سنن أبى داود، تعليق عزت عبيد الدعاس، نشر دار الحديث بحمص سنة ١٣٨٨ هـ.
١٢٢ ـ السياسة الشرعية، عبد الوهاب خلاف، ط دار الأنصار سنة ١٣٩٧ هـ.
١٢٣ ـ السياسة الشرعية، ابن تيمية، ط دار الكاتب العربى.
١٢٤ ـ سيرة الرسول مقتبسة من القرآن، محمد عزة دروزة ط عيسى الحلبى بالقاهرة.
١٢٥ ـ السير والمغازى، محمد بن اسحاق، تحقيق سهيل زكار ط دار الفكر سنة ١٣٩٠ هـ.
١٢٦ ـ السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق مصطفى السقا، وابراهيم الأبيارى، وعبد الحفيظ شلبى، ط دار الكنوز الأدبية.

١٢٧ - شرائع الإسلام فى مسائل الحلال والحرام، الحلى أبو القاسم جعفر، ط مطبعة الآداب في النجف سنة ١٣٨٩م.

١٢٨ - شريعة القتال، عثمان سعيد الشرقاوى، نشر مكتبة الزهراء بالقاهرة سنة ١٣٩٢هـ.

١٢٩ - شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفى، تحقيق محمد ناثر الدين الألبانى ط المكتب الإسلامى سنة ١٣٩٦هـ.

١٣٠ - الصارم المسلول على شاتم الرسول، ابن تيمية، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، ط دار الفكر.

١٣١ - الصبر فى القرآن، الدكتور يوسف القرضاوى، مكتبة وهبه بالقاهرة سنة ١٣٩٧هـ.

١٣٢ - صحيح مسلم مع شرح النووى، ط دار إحياء التراث العربى ببيروت.

١٣٣ - صحيح البخارى، ط المكتبة الإسلامية باستنبول سنة ١٩٧٩م.

١٣٤ - الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، أبو الحسن الندوى، ط دار القلم بالكويت سنة ١٣٩٧هـ.

١٣٥ - الطبقات الكبرى، ابن سعد. ط دار صادر بيروت.

١٣٦ - طريق الدعوة فى ظلال القرآن، سيد قطب، جمع أحمد فائز ط مؤسسة الرسالة سنة ١٣٩٧هـ.

١٣٧ - العالم الإسلامى والمكائد الدولية، فتحى يكن، ط مؤسسة الرسالة سنة ١٤٠١هـ.

١٣٨ - العبرة مما جاء فى الغزو والشهادة والهجرة، صديق حسن القنوجى ط الهند سنة ١٢٩٤هـ.

١٣٩ - العبودية، ابن تيمية، تقديم عبد الرحمن الألبانى ط. المكتب الإسلامى سنة ١٣٩٧ هـ.

١٤٠ - عدة المجاهدين فى الكتاب والسنة، عطية عبدالرحيم، نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٤٠٠هـ.

١٤١ - العقيدة فى الله، عمر سليمان الأشقر ط مكتبة الفلاح بالكويت سنة ١٣٩٩ هـ.

١٤٢ - العقيدة والشريعة فى الإسلام، المستشرق جولد تسيهر، تعريب محمد يوسف موسى، وعبد العزيز عبد الحق وعلى حسن عبد القادر، طبع دار الرائد العربى، ببيروت.

١٤٣ - العلاقات الدولية فى القرآن والسنة، الدكتور محمد على حسن، ط مكتبة النهضة الإسلامية بعمان.

١٤٤ - العلاقات الدولية فى الاسلام ـ مقارنة بالقانون الدولى الحديث، الدكتور وهبة الزحيلى، ط مؤسسة الرسالة، سنة ١٤٠١ هـ.

١٤٥ - العلاقات الدولية فى الحروب الإسلامية، على قراعة، ط دار مصر للطباعة سنة ١٣٧٤ هـ.

١٤٦ - العلاقات الدولية فى الإسلام على ضوء الإعجاز البيانى فى سورة التوبة، الدكتور كامل سلامة الدقس، ط دار الشوق سنة ١٣٩٥ هـ.

١٤٧ - الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام، مجموعة بحوث قدمت لمؤتمر الفقه الإسلامى، الذى عقد بالرياض سنة ١٣٩٦ هـ. ط ونشر جامعة الإمام محمد بن سعود.

١٤٨ - غزوات النبى، محمود شيث خطاب، ط بغداد مكتبة الحياة سنة ١٩٦٠م.

١٤٩ غزوات النبى (يوم الفرقان)، الخولى البهى، ط مكتبة الاعتصام بالقاهرة سنة ١٩٧٧ هـ.

١٥٠ ـ الغزوات الإسلامية، محمد فرج، ط الدار القومية للطباعة والنشر.

١٥١ ـ غزوة بدر، البرزنجى، زين العابدين جعفر، ط مطبعة المدنى بالقاهرة سنة ١٣٨٦ هـ.

١٥٢ ـ غزوة بدر الكبرى، محمد عبد القادر ط دار الفرقان بعمان سنة ١٤٠٢ هـ.

١٥٣ ـغزوة بدر، محمد أحمد برانق ط دار المعارف بمصر.

١٥٤ ـ غزوة بدر، محمد أحمد باشميل، ط دار الفاتح للنشر ببيروت سنة ١٣٨٨ هـ.

١٥٥ ـفتح البارى شرح صحيح البخارى، ابن حجر، ط دار المعرفة ببيروت.

١٥٦ ـفتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكانى، ط مكتبة الحلبى سنة ١٣٨٣ هـ.

١٥٧ ـ الفرد والدولة فى الشريعة الإسلامية، عبد الكريم زيدان، طبع الاتحاد الإسلامى العالمى سنة ١٣٩٨ هـ.

١٥٨ ـ فقه السيرة، الدكتور محمد سعيد البوطى، ط دار الفكر، الطبعة السابعة.

١٥٩ ـفقه السيرة، محمد الغزالى، ط دار الكتب الحديثة بمصر.

١٦٠ ـالفقه على المذاهب الأربعة، عبد الرحمن الجزيرى، ط دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

١٦١ ـ الفرق بين الفرق، عبد القادر البغدادى، تحقيق محمد محمد محيى الدين عبدالحميد، ط دار المعرفة ببيروت.

١٦٢ - فقه السنة، الشيخ سيد سابق، ط دار الكتاب العربي ببيروت.

١٦٣ - الفروسية، ابن قيم الجوزية، ط دار التراث العربي.

١٦٤ - في ظلال القرآن، سيد قطب، ط دار الشروق.

١٦٥ - القانون والعلاقات الدولية في الإسلام الدكتور صبحي محمصاني، ط دار العلم للملايين، بيروت سنة ١٣٩٨٢ هـ.

١٦٦ - القانون الدولي العربي، محمود كامل المحامي، ط دار العلم للملايين سنة ١٩٦٥م.

١٦٧ - القتال في الإسلام، أحمد نار، ط الدار السعودية للنشر بجدة سنة ١٣٨٩ هـ.

١٦٨ -القتال في الإسلام، محمد بن ناصر الجعوان، الطبعة الأولى سنة ١٤٠١ هـ.

١٦٩ -لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي، ط دار إحياء العلوم ببيروت سنة ١٩٧٨م.

١٧٠ - لباب التأويل في معاني التنزيل، علي بن محمد الخازن، ط مطبعة الحلبي سنة ١٣٧٥هـ.

١٧١ - لسان العرب، ابن منظور، ط دار صادر ببيروت.

١٧٢ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الهيثمي، ط دار الكتاب العربي بيروت.

١٧٣ - المجتمع الإسلامي والعلاقات الدولية، الدكتور محمد الصادق عفيفي، ط مطبعة الخانجي بالقاهرة.

١٧٤ - المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، محمد أبو زهرة، ط الدار السعودية للنشر بجدة سنة ١٤٠١هـ.

١٧٥ - المجتمع المدني في عهد النبوة، الدكتور أكرم العمري، ط. الجامعة الإسلامية سنة ١٤٠٣هـ.

١٧٦ - مسند الإمام أحمد بن حنبل، ط المكتب الإسلامي ودار صادر ببيروت .
١٧٧ - المعجزة الكبرى، الشيخ محمد أبو زهرة، ط دار الفكر العربي .
١٧٨ - مغازي رسول الله، عروة بن الزبير، جمع وتحقيق الدكتور محمد مصطفى الأعظمي، منشورات مكتب التربية العربي الرياضي سنة ١٩٨١ م .
١٧٩ - المغازي، الواقدي، تحقيق الدكتور مارسدن جونس، ط أكسفورد سنة ١٩٦٦ م .
١٨٠ - المغني، ابن قدامة، ط مكتبة الرياض الحديثة، نشر رئاسة البحوث السعودية .
١٨١ - الملل والنحل، الشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، ط دار المعرفة سنة ١٣٩٥ هـ.
١٨٢ - مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ابن الجوزي، تحقيق الدكتورة زينب ابراهيم، ط دار الكتب العلمية ببيروت سنة ١٤٠٠ هـ.
١٨٣ - منهج الإسلام في الحرب والسلام، عثمان جمعة، نشر مكتبة الأرقم بالكويت سنة ١٤٠٢ هـ.
١٨٤ - من هدى سورة الأنفال، الدكتور محمد أمين المصري، ط دار الأرقم بالكويت سنة ١٠٤٢ هـ.
١٨٥ - منهج الدعوة النبوية في المرحلة الملكية، على بن جابر، رسالة ماجستير مخطوطة مقدمة إلى جامعة أم القرى بمكة سنة ١٤٠١ هـ.
١٨٦ - نظرية الحرب في الشريعة الإسلامية، الدكتور إسماعيل محمد. ط مكتبة الفلاح الكويت سنة ١٤٠١ هـ.
١٨٧ - نظام الرق في الإسلام، عبد الله علوان، دار السلام بحلب سنة ١٤٠٠ هـ.

١٨٨ ـ النفاق ـ آثاره ومفاهيمه: عبد الرحمن الدوسرى، ط دار الأرقم، بالكويت سنة ١٤٠٠ هـ.

١٨٩ ـ نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين، الشيخ محمد الخضرى طبعة قديمة.

١٩٠ ـ نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، الشوكانى، ط مطبعة مصطفى الحلبى.

١٩١ ـ هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى، ابن قيم الجوزية، ط دار الكتب العلمية بيروت.

١٩٢ ـ هذا هو الإسلام، الدكتور مصطفى السباعى، ط المكتب الإسلامى سنة ١٤٠٠ هـ.

١٩٣ ـ هذا الدين، سيد قطب، ط دار الشروق ببيروت.

١٩٤ ـ الولاء والبراء فى الإسلام، محمد سعيد القحطانى، ط دار طيبة بالرياض.

الفهرس التحليلى

● قيام التحالف العسكرى بين النبى وأهل يثرب .
● مؤتمر دار الندوة .
● الإذن للرسول بالهجرة إلى يثرب .

الفصل الثالث : دولة الإسلام فى المدينة المنورة (٩٩)

١ ـ أثر الدعوة فى المجتمع المدنى :

● الإسلام يحدث تغييراً جذرياً فى حياة الفرد والمجتمع .
● أحداث الهجرة تدل على سلامة التربية المحمدية للصحابة .
● تأخر هجرة النبى إلى المدينة حتى هاجر معظم القادرين على الهجرة .
● القرآن يمنع المسلمين القادرين على الهجرة من الإقامة مع المشركين .
● الهجرة أدت إلى تنوع سكان المدينة .

٢ ـ وحدة العقيدة أساس المجتمع المدنى : (١٠٩)

● القرآن يوضح أن مصلحة العقيدة هى المعتبرة .
● المجتمع المدنى كان مجتمعاً عقيديا .

٣ ـ موقف اليهود من الدولة الجديدة : (١١٣)

● يهود المدينة .
● اليهود يعيبون على الإسلام نسخ الأحكام .
● معالجة أمر اليهود وابرام المعاهدة معهم .
● تسوية الأوضاع الداخلية فى المدينة .
● المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار .
● القرآن ينسخ التوارث بالاخوة الإسلامية .

- القرآن يقرر أن الإنسانية كلها أمة واحدة.
- أول تشريعات القرآن بشأن الحرب كانت عقب الاعتداء وفتنة المسلمين.
- هدف الإسلام هو دفع الاعتداء.
- الاسلام يفرض هدنة إجبارية فى الأشهر الحرم.
- الإسلام لا يبيح القتل لمن يريد السلام.
- القرآن يقرر نظرية الحياد ويحترم المحايدين.
- ألم يُبح القرآن القتال إلا دفاعاً أو ردًّا للاعتداء ولم يبح الهجوم ؟
- الاعتداء المنهى عنه قسمان:

ـــ الاعتداء بالقتال على قوم لم يعتدوا على المؤمنين.

ـــ الاعتداء فى القتال فيقتل من لايقاتل.

ـــ القرآن يقررمبدأ الوفاء بالعهد.

- الرسول يحدد الصديق والعدو.
- الأعداء: ـــ اليهود.

ـــ دولة فارس والروم.

- الرسول يتخذ قراراً سياسياً هاماً.

ـــ المراقبة المستمرة لتحركات العدو.

ـــ عقد موادعات واتفاقات هدنة.

ـــ القيام ببعض المناوشات الجانبية.

ـــ إعداد القوات السلحة.

الحكم الثالث: كيفية توزيع الغنائم.

الحكم الرابع: هل هذه الآية ناسخة للآية السابقة؟.

٢ ــ كيفية التصرف فى الأسرى (٢٥٧)

- الرسول يستشير أصحابه بشأن الأسرى.
- القرآن ينهى عن قبول الفدية.
- مواقف الرسول تجاه الأسرى.
- موقفه مع عمه العباس.
- موقفه مع الذين استكرهوا على الخروج إلى بدر.
- الرسول يأمر بقتل بعض الأسرى بوصفهم مجرمى حرب.
- قضية الأسرى تحتل مكانا بارزاً فى القرآن.

٣ ــ حكم الأسرى فى شريعة الاسلام (٢٦٦)

- محاولة خصوم الاسلام من المستشرقين مخالفة أحكام الأسرى والطعن فيها.
- الطعن فى أحكام الاسلام صراحة.
- التلون لتطويع أحكام الإسلام للقوانين الوضعية.
- مناقشة المستشرقين وتلاميذهم حول إدعاءاتهم.
- المستشرقون وتلاميذهم يكذبون على الله وعلى رسوله الله.
- وقفة مع علماء الإسلام لمعرفة ماقالوه فى أسرى الحرب.

ــ قول أبى بكر الجصّاص.

ــ وقول السيوطى.

ــ قول الشوكانى.

ــ قول ابن قدامة.

الفصل الثامن: أدب الحرب والسلم فى سورة الأنفال (٢٧٩)

١ ـ حكمة الله فى جعل الصراع بين الحق والباطل سنة جارية.

• نزول سورة الأنفال لتكون وثيقة ودستوراً للمسلمين.

* الآداب والقيم التى وردت فى سورة الأنفال:

١ ـ التحذير من الفرار فى المعارك.

الأحكام الشرعية

الحكم الأول: الفرار من الزحف من الكبائر.

الحكم الثانى: كم عدد العدو الذى يحرم الفرار منه.

الحكم الثالث: هل يجوز الفرار عند الضرورة؟

٢ ـ الثبات عند لقاء العدو

• الثبات عند لقاء الأعداء وعدم الفرار من المعركة.
• ذكر الله فى الحروب.
• الطاعة.
• عدم التنازع.
• الصبر على الشدة.

٣ ـ الأمر بالسمع والطاعة لأمر الله ورسوله.

٤ ـ الاستجابة لدعوة الرسول.

٥ ـ عدم إفشاء سر الأمة للأعداء.

٦ ـ تقوى الله.

٧ ـ أن القتال لرد الاعتداء وأنه ينتهى بنهايته.

فهرس الموضوعات

رقـــم الايـــداع	٢٩٨٠ / ١٩٨٩
الترقـــيم الدولـــى	٣ - ٢٦٣٤ - ٠٢ - ٩٧٧

١٣ / ٨٨ / ٣

طبع بمطابع دار روتابرينت